ادوار الخراط



ترابها زعفران

نصوص إسكندرانية

المستقبل العربي

دار المستقبل العربي

تراب الزعفران



نصوص إسكندرانية

ادوار الخراط



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف
للفنـان : سعـد عبـد الوهـاب

الطبعـة الأولـى ١٩٨٦

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـرة

• ليست هذه النصوص سيرة ذاتية ، ولاشيئاً قريبا منها . ففيها من شَطْح الخيال ، ومن صنعة الفن ما يشطّ بها كثيراً عن ذلك .

• فيها أوهامٌ ــ أحداث ، ورؤى ــ شخوص ، ولُوَيّات من الوقائع هى أحلام ، وسحابات من الذكريات التى كان ينبغى أن تقع ولكنها لم تحدث أبدا.

• لعلها أن تكون صيرورة ، لاسيرة . وليست ، فقط ، ذاتية .

• هى وَجْد ، وفقدان ، بالمدينة الرخامية ، البيضاء ــ الزرقاء ، التى ينسجها القلب باستمرار ، ويطفو دائما على وجهها المُزبِد المضىء .

• اسكندرية ، يااسكندرية ، أنتِ لستِ ، فقط ، لؤلؤة العمر الصلبة فى محارتها غير المفضوضة .

• مع ذلك ، أنشودتى إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة .

إدوار الخراط



١

السّحاب الأبيض الجامح

عدت إلى شارع راغب باشا . كان الكوبرى الصغير مفتوحاً ، ومياه ترعة المحمودية تحته حمراء ، وكنت أعرف أنها تدور حول قوائم الكوبرى فى دوامات متقلبة .

كنت أقف فى أول عربة من عربات الكارّو الطويلة ، قدماى متشبثتان بالخشب ، خلف الحصانين القويين بينهما قائم التعريشة الطويلة ، أرى الذيول المقوسة مليئة بالشعر الأشقر ، والكفلين الدائريين بلونهما الأصهب عليهما ندى لامع من العرق ، الرأسان بعيدان ، محنيان ، فى الأمام ، أسمع الحمحمة الغضوب المكتومة بجهد .

من كان إلى جانبى يمسك بالأعنة ؟ وجوده ملىء بالسيطرة والتحكم ، لكننى لا أكاد أراه مع ذلك ، أعرف فقط أنه إلى جانبى فى نور الصبح تحت سحاب الاسكندرية الوضىء الرقيق الذى ينساب بسرعة فى السماء الصافية

كنا نقف أمام وابور الدقيق ، أحجار جداره العالى باللون الأحمر الكابى

تقطعه شبابيك طويلة عليها قضبان حديدية رفيعة سوداء من ورائها عتمة الداخل التى تصدر عنها أصوات الماكينات تدق دقات مسدودة الصدى بإصرار .

وكنت أعرف أننى تركت غيط العنب وشارع راغب من زمن بعيد وأننى مع ذلك مازلت هناك .

كانت العربة محملة بالشوالات البيضاء ، تفوح منها رائحة الدقيق المطحون حديثاً ، أمام الباب المكون من ضلفة حديدية واحدة عريضة بعجلات تنزلق على قضيب فى الأرض ، وعلى الرصيف ميزان قبانى ضخم ليس على أرضيته المعدنية الرصاصية اللون شيء . ذراعه الطويلة ممدودة ومائلة فى اخرها الصنجة الحديدية مدورة من الجانبين وحافتها العلوية — والسفلية — مقطوعة وحادة .

وكان آخر الحمالين يضع آخر الشوالات على آخر العربة . كانوا سمر الوجوه ، صخريين ، يرتدون شوالات فارغة ، من الخيش ، مقصوصة من الجانبين ، تبرز منها الأذرع الناحلة المفتولة ، عارية حتى الكتف .

كنت أعرف أن الباب يفضى إلى طرقة طويلة مبلطة تقف إلى جانبها الغرابيل الاسطوانية الضخمة ، فى الظل ، تحت سقف مائل من الحديد المموّج ، وأن أشعة الشمس تسقط فى أعمدة مخروطية تتسع إلى أسفل وتقطع العتمة.وتطير داخل هذه المخروطات من النور ذرات الدقيق الدقيقة المتقلّبة لا تنقطع عن الصعود والهبوط والدوران . والى اليسار كنت أرى الماكينات والتروس الدائرية الكبيرة والأقماع المفلطحة الفوهات والسيور الجلدية العريضة التى تتوتر مشدودة ممتدة فى الفراغ حتى تصل إلى الطارات الدوارة فتحتضنها وتدور معها ، والمواسير الضخمة فوق الطرقة تربط بين البناء الرئيسى وبين الغرابيل التى تهتز فى عتمة العنبر المستطيل .

كانت أمي ترسلني إلى الوابور أشترى كيلة دقيق ونصف كيلة ردّة ، من كشك خشبي أخضر اللون من داخل الباب ، فيه صعيدى عجوز مكسور الأسنان يضع على رأسه الجاف عمامة وحول رقبته كوفية صوف ، صيفاً وشتاءً على السواء . وكان يكيل لى الدقيق والردّة ، بجاروف حديدى كبير ، كلاً منهما فى صندوق خشبى عال مائل الفتحة ، ويضعها فى كيسين من الورق الأصفر الداكن ، أحسّ بثقلهما على ذراعىّ ، وأنا أحملهما إلى صدرى ، وبقليل من الخجل .

ولكن الكوبرى كان مقطوعاً والترام يلف القضبان الدائرية ويعود ، وعلىّ أن أنتظر حتى يقوم حسين افندى بإغلاقه ، فأعبره ، وأسير قليلا فى شارع الترام ، وأنعطف يمينا إلى بيتنا فى شارع الكروم .

وكان يسحرنى دائما دوران التروس الحديدية ، المعشقة تحت جسم الكوبرى ، وانطباق أرضية الكوبرى إذ تنزلق ببطء حتى تلتقى بأرضية الشارع ، بإحكام ، لايبقى بينهما إلا خط دقيق جدا كالشعرة ، أرى منه ماء المحمودية يبرق وينساب بسرعة .

وكانت بائعات الفجل اليانع العريض الورق برؤوسه الباهتة ، والليمون البنزهير والمش فى قصاعه البنية الصغيرة والبصل الأخضر والكرات المرشوش بالماء ، يجلسن على رأس الكوبرى ، على التراب ، بملابسهن السوداء ، والطرح المغبرة التى تنتهى بربطة عمامة مربعة على الرأس ، ويرضعن أولادهن الذين ينامون وقد انطبقت أفواههم على أثداء مكشوفة متهدلة من شق طولىّ فى جانب الجلابية الواسعة .

كنا نسكن فى الدور الثالث من البيت ، وأمامنا السطح الذى كانت أمى

تربى فيه البط والفراخ ، وتربط خروف العيد . وكان للسطح سور قصير أشبّ برأسى فوقه لكى أطلّ على حديقة كثيفة مستطيلة الشكل ، ضيقة ، بين بيتنا وحائط البيت المجاور ، وفيها نخل ترتفع شواشيه حتى تستند إلى الحائط العالى المقابل ، وتحته زرع غامض وأصص ريحان وعتر متزاحمة ، وكان للجنينة باب داخلى يفتح على الشقة التحتانية ، وليس لها باب على الشارع .

وكان حسين افندى يسكن فى الشقة التى تحتنا مباشرة ، فى أول كاط ، وكان أحمر الوجه دائما ، قصير ومدملك وله كرش صغير ، ويلبس الطربوش المكوى على الزاوية الصحيحة دائما ، ويمسك بعصا من خشب الجوز اللامع ذى العقد . وكنت أراه فى بيتهم أحيانا بالجلابية البيضاء النظيفة وكان يضحك معى ويعاكسنى ، بطيبة قلب ، بصوته الأجش المرح .

لم يكن عنده أولاد ، وكانت زوجته الست وهيبة صديقة أمى جداً ، وكانت تقول لها أحياناً إن نبيهم أوصاهم بنا وأن عيسى نبينا هو أيضا رسول من عند الله مثل موسى وابراهيم ، وكانت أمى تحلف لها أحيانا بالمسيح ابن الله الحىّ ، وكانتا تضحكان معاً على أشياء لاأعرفها يقولانها بهمس ، وتنتهى زيارتها اليومية لنا بأن تقبّل إحداهما الأخرى وكنت أستغرب قليلا لأنهما تضعان الخد بإزاء الخدّ، وتمصمصان بالشفتين تضمانهما على شكل التقبيل تماماً لكنها ليست قبلة بالفعل .

وسمعت أمى وستِ وهيبة تتحدثان همساً عن السكان الجدد الذين جاءوا فى الشقة التحتانية المطلة على الجنينة وسمعت الست وهيبة تقول إن ذلك فى وجهنا ويجب أن نفعل شيئاً .

كانت الشقة التحتانية دائما مغلقة الشبابيك ، وكنت وأنا أعود من المدرسة أرى الباب مواربا قليلا وألمح وراءه حسنية .

كنت أراها ، نحيلة ، شعرها الحالك مربوط بمدورة بيضاء ، وصغيرة الجسم ولا تكبرنى ربما إلا بسنين قلائل ، وأحس أن فيها شيئاً مايجذبنى وأحبه جداً .

كانت تجلس على كرسى خيزران أمام مائدة رخامية واسعة القرص عليها مفرش أبيض مخرم ومشغول ، وهى فى قميص نوم واسع عليها وقصير لايصل إلى ركبتيها ، مفتوحة الرجلين تمدهما أمامها بتعب واسترخاء . وعندما تحس بى تستدير بوجهها إلىّ من العتمة الخفيفة التى فيها نور خافت كأنه أخضر اللون يأتى من باب الجنينة الداخلىّ ، وأنا فى الفسحة الرطبة البلاط بعد الباب الخارجى ، أمام الدرجة العريضة الأولى من السلّم ، أرى عينيها الواسعتين فى وجهها الحاد المخروطىّ العظم ، منتفختين ولكن حاجبيها كانا مقوسين ورفيعين حدا على محجرى العينين .

وكنت أرى أمها الكبيرة فى السن ، قوية الجسم وسمينة جداً تخرج من البيت بعد الظهر ، لاتلبس ملاية بل دائما بفستان مشجر واحد وفى إحدى ساقيها خلخال غليظ من الفضة يحبك كاحلها المتورم على الشِكِربينـة القماشية ذات الكعب المنخفض .

كانت حسنية ، فى الأول ، تومىء لى برأسها ، على سبيل التحية ، فأجرى أصعد السلالم ووجهى أحسه ممتلئا بالدم لاأعرف إن كنت قد رددت عليها التحية أم هربت .

وفى مرة أشارت إلىّ تدعونى بإصبعها ، برفق ، فخطوت إليها متردداً ووقفت خارج باب شقتها ، وكانت فى قميصها الواسع القصير ، من نسيج حريرى أبيض له وبرة ناعمة ممسوحة من القدم وكثرة اللبس .

قالت لى : تعال ياحبيبى ، تعال
بصوت مبحوح كأنه مدعوك قليلاً
وقالت : تروح تشترى لى باتنين مليم كراملة من عند حسنى البقال ؟
أومأت برأسى موافقاً ، وكان ريقى قد جف ، وجريت بسرعة ، ومعى كتب المدرسة ، وفى غمضة عين كنت قد عدت ، فقامت إلىّ ، وأعطتنى حبة كراملة برتقالية اللون ، سداسية الأضلاع ، وعليها وجه « أبو الهول » فتياً وله لحية ، بارزاً ونصف شفاف . وفجأة مدت ذراعها الرفيعة وضمت رأسى إليها ، ووقع وجهى تحت ثديها الحرّ الذى أحسسته لدناً ومتماسكاً وصغيراً وضغطت رأسى إلى أضلاع صدرها اليابسة من فوق القميص اللين النسيج .

وأفلت منها ، وقلبى يدق وأنا أصعد السلم جرياً .

فقالت أمى ضاحكة منى وهى تفتح الباب : مالك ؟ هو أنت شفت عفريت فى عز الضهر ولا ايه ؟ ادخل اغسل وشك ادخل ..

واحتفظت بالكراملة ، لففتها فى ورقة فضة ، ووضعتها فى علبة دخان الغزالة الذى كان جدى يصنع منه سجائره اللف ، والتى كنت أحتفظ فيها بكنوز طفولتى : عظمة كعب بيضاء ، وقوقعة ملفوفة الطبقات من الشاطبى ، وخمس بليات رقراقة الألوان كالجواهر المخططة المشللة بالأزرق والأصفر ، وزلطة رمادية ناعمة الجسم ، وشرائح من فيلم أسود أحبها عليه صور متعاقبة لتوم ميكس على حصانه لاتكاد تتغير مع أنه يجرى . وظللت أحتفظ بقطعة الحلوى حتى بعد أن ذهبت حسنية ، وبعد أن بهت لونها البرتقالى وساحت حواف صورة أبى الهول ، ثم أكلتها غاضباً .

كنت أحبها وكنت أيضا أخاف من شىء ما مكتوم فى همود جسدها الرفيع المهدود .

قالت لى مرة ، وهى لاتنظر إلىّ ، إنها تسافر فى الليل ، وتروح بعيداً جداً وأن سفر الليل متعب ولا تطلع له شمس .

وخيل إلىّ أننى فهمت وأنها ربما تذهب الى محطة مصر وتقضى الليل مسافرة فى القطار وتعود قبل الصبح. وكنت أصدق هذا وأعرف فى الوقت نفسه أنها لاتترك البيت أبداً .

وقالت : ربنا يتوب علينا من سفر الليالى .

وكنت فى تلك الأيام أقرأ الكتاب المقدس الكبير بغلافه الأسود المنقوش بزخرفة بارزة قد بهتت قليلا ، من الجلدة للجلدة ، بإصرار ، الإصحاح بعد الإصحاح . وكنت لاأفهم كثيراً تعقيدات العهد القديم والأسماء الكثيرة فيه ، وأحلم مع نشيد الإنشاد وأبكى كثيراً عندما أقرأ عن صلب المسيح وكيف تعذب ومات على الصليب من أجلنا . وكان سر المسيح يُمضّ قلبى ويحمله عبئاً لايعرفه أحد .

وكنت أنزل عند ست وهيبة أستلف من عندهم روايات روكامبول وفانتوماس وجرجى زيدان ونقولا رزق الله ، التى كان يشتريها سى حسنى أخ حسين افندى ويضعها فى سحّارة خشبية صغيرة جنب سريره . وقرأت من عنده رواية سافو فى طبعة كبيرة غلافها رمادى كالح وعليه اسم المؤلف بالمطبعة بالبنط الثلث الطويل القائم العود . وأشعلت الرواية حواسى وازدحم بها خيالى .

كان سى حسنى عنده دكان بقالة على قمة الشارع الآخر الذى تطل عليه شرفة بيتنا ، وكان طول النهار فى دكانه . وكان طويلا ووسيما وخشن الشعر ولم يكن يكلمنى كثيرا . كانت ست وهيبة هى التى تعطينى كتبه ، وأحيانا تتركنى

أدخل لكى أفتش فى السحارة وأنتقى ماأريد ، وهى تقف ورائى بجلابية النوم الخفيفة ، ممتلئة الجسد ، وأنثوية ، وصدرها وافر وأسمر وناعم الجلد أراه من فتحة الجلابية ، عالياً عنى ، يهتز بثقل واطمئنان .

كان لدخول البيت عندهم ، دائما ، رهبة فى قلبى ، إحساس مثير ووجِل وسعيد كأن فيه إثما ومتعة ، إحساس بالجو السرّى الخاص لبيتهم ، وأنهم ينامون ويأكلون ويعيشون معا ، مجهولين ، بطريقة لا أعرفها ، وعيب أن تعرف ماذا يفعلون ، فى ملابسهم التى لاتراها أبداً بخارج البيت . ولما كانوا مسلمين أيضا فقد كان فى ذلك عنصر آخر من عناصر الستر والرهبة والغموض الجذاب .

كنت ألمح حسين افندى نائما أثناء النهار ، على السرير الكبير فى الغرفة الأخرى ، تحت غرفة أبى وأمى ، استعدادا لدورية الليل عندما يقوم ليفتح الكوبرى، وكانت ست وهيبة عندما أدق الباب تفتح الشراعة الزجاجية وترانى وتردها وتفتح لى الباب وأعرف أنها خارجة من عنده ، أنفاسها متسارعة قليلا ووجهها الطيب مضرج السمرة وهى تسوّى شعرها الخشن الوحشىّ الشكل بذراعها الملفوفة فيظهر لى جانب صغير خفى من صدرها بين الإبط والثدى عندما أرفع إليها عينى ، وتقول لى : يوه الله يجازى شيطانك باميخائيل ، عايز كتاب تانى ؟ هو أنت ماتشبعش روايات ؟ تعال ياحبيبى ادخل . وكانت لها عندئذ رائحة خصيبة ومليئة كرائحة العجين الخمران ، فأدخل بسرعة وأنا خجل ومُستثار ، وأسأل نفسى ترى أين هو شيطانى وكيف هو ؟ وأنسى ذلك كله وأنا أقلب فى الكتب ، ومازالت رهبة الدخول إلى شقق الغرباء عندى حية حتى الآن ، وكأننى أخطو إلى عالم آخر ينذرنى ، ويناديني ، ويصدنى معاً بما يحمل من خطر .

فى يوم مسح السلالم كانت أمى تملأ الجردل الحديدى بالماء من حنفية الحمام ، وتحمله إلى البسطة وتصبّه فيتدفق على درجات السلّم وهو ينزل بصوت

التطام متكرر بهيج ، ثم تقعى على رجليها تمسحه بالخيشة الداكنة سلّمة سلّمة حتى باب الست وهيبة التى تكون تنتظر وهى تضحك وتقول : ياختى حاسبى ياست أم ميخائيل ، على مهلك شوية ، عينى عليك باردة ، ثم تنحنى وهى ترفع طرف جلابيتها البيتى عن ساقين ممتلئتين سمراوين وهى تنظر إلىّ بخجل أراه غريباً جداً ، وتكمل المسح حتى الشقة التحتانية ، وتتأخر الست أم حسنية كثيراً فيظل الماء محصوراً فى برك صغيرة عكرة على البلاط ، وبعد الغداء فقط عندما أنزل لشراء حاجة أرى مدخل البيت والبسطة التحتانية تلمع ورطبة .

وكانت ست وهيبة تجلس بعد ذلك ، وقد غيرّت جلابيتها المبلولة وغسلت شعرها ، مع أمى ، تثرثران وتشربان القهوة على الكنبة الاسطمبولى المفروشة بملاءة بيضاء متغضنة على المرتبة القطن المنجدة ، وفى وسطها مخدتان صغيرتان صلبتان جداً إحداهما فوق الأخرى تميل عليها الست وهيبة بجنبها وهى تتكلم . وأنا أعطيها ظهرى ، أذاكر وأعمل تمارين الانجليزى على مائدتى الرخامية البيضاوية الشكل المفروشة بورق الجرائد ، مسنودة إلى الحائط ، رُصّت عليها كتبى المدرسية وكراريسى فى رصتين متساويتين ، وبينها رواية من روايات الجيب مخبأة بعناية وقد نزعت غلافها الملون حتى لايفضحنى بصورة الغانية الزرقاء الممشوقة جداً يلفها رداء عارى الظهر بحمالة واحدة وينسدل الرداء طويلا متموجاً برشاقة حتى آخر الغلاف من تحت .

كنت أسترق السمع إلى حديثهما الهامس ، وأنا أنقل تصاريف الافعال الانجليزية ، بالريشة ذات السن النحاسية الرفيعة التى تنزل منها فجأة قطرة مدوّرة من الحبر فتتشعّع على الورق قبل أن ألحقها بالنشافة . وعرفت أن العربجية من الاصطبل الذى أمامنا يدخلون الشقة التحتانية بالليل ، ويخرجون بعد ساعة أو ساعات ، واحداً بعد الآخر ، وأن رائحة الحشيش تعبق فى بير السلم حتى الصبح ، وهمست ست وهيبة بصوت أجش قليلا ومليء بالحرارة : ومش بس

العربجية ياختى ، دول بيجبوهم زباين من القهوة اللى على المحمودية فى انصاص الليالى ، ولا كوم بكير . وكان للكلام الغريب وقع غامض فى نفسى ولم أجرؤ أن اسأل فقد حدست طبعاً أن فيه مما يحدث بين الرجال والنساء مايروّع .

كان فى هذه الغرفة جرامفون على شكل صندوق مربع ، موضوع على كومودينو ببابين ، من الخشب الداكن اللامع وعليه زخرفة نباتية معشقة من الخشب الأصفر ، وفوقه البوق الذى تنفتح فوهته تبدأ دقيقة ثم تتسع حتى تنفرج ضافية الاستدارة ، وكان على الأسطوانات السوداء كلب يضع فمه فى بوق آخر يشبه بوق الجرامفون الذى عندنا تماماً ، ومكتوب تحته صوت سيده ، ويحيرنى أنه ينبح داخل البوق بصوت سيده ، ومَن سيده ؟ بينما كانت الأسطوانة تدور ببطء وقتذاك بصوت سريع رفيع : بيضافون تقدم الأستاذ محمد عبد الوهاب ثم يرتفع صوته الحلو الذى يخشخش بأغنية عن النيل نجاشى حليوه أسمر ، ثم تخفت الأغنية حتى ندير المقبض ونملأ الجرامفون من جديد .

تنفتح غرفتى هذه على باب شرفة طويلة مقفلة عليها تعريشة خشبية مسقوفة تغطيها من كل الجوانب ولها نافذتان صغيرتان تطلان على الاصطبل الذى تقف فيه بالليل عربتا حنطور وأربعة خيول ، وأكوام رطبة الشكل زهمة من البرسيم ، وعجلات مخلوعة ، تحت سقف مائل مقطوع قائم على أربعة أعمدة حجرية قصيرة ، للاصطبل بوّابة خشبية عريضة وواطئة تفتح على رحبة ترتفع قليلا واسعة من غير انتظام ، بين الاصطبل والبيوت ، ثم تخلص الى حارة ضيقة تعلو أرضها ثم تهبط ، أخيرا ، إلى شارع الترعة المحمودية . وحافة الترعة العريضة النازلة إلى الماء مزروعة بالجرجير والخس والفجل الذى كنت أشتريه لأمى من فلاح يلبس قميصا خشنا كالح الزرقة من غير أكمام قصير على رجليه العظميّتين السوداوين يخرج إلىّ كالعفريت من خص صغير جداً بناه من الطين والقش تحت جسر الترعة ، وكانت يداه كبيرتين وصلبتين وأصابعه قصيرة ومقوسة .

كنت نائماً على السرير الكبير ذى الأعمدة السوداء فى نهايتها العساكر النحاسية المتخلخلة التى كنت أفكها أحيانا وألعب بها وأُركّبها بسرعة قبل أن يعرف أحد ، وأخواتى البنات نائمات جنبى من ناحية الحائط ، عايدة التى كنت أحبها ، وهناء الصغيرة .

وعندما تيقظت فجأة وسط الليل ، على صوت خبط سريع ملهوف على باب الشقة ، كانت لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة بالحائط وفتيلتها منخفضة ، من وراء بطن زجاجتها الرشيقة تلقى ظلالا مهتزة على أركان الغرفة ، وسمعت أبى يقوم من السرير فى الغرفة الكبيرة المقابلة ، ورأيته يمر فى الفسحة ، وهو يلف على نفسه طرف القفطان الصعيدى المفتوح ويربط حبله المضفور الرفيع حوَل وسطه ، ويسرع إلى الباب ، ومن ورائه أمى بجلابية نومها ، تحمل لمبة الجاز الكبيرة نمرة عشرة ، وتلحق به ، حافية على بلاط الفسحة .

كنت قد تيقظت تماماً الآن ، وأنا أرتجف قليلا من الترقب والخوف والمفاجأة ، وأختاى نائمتان جنبى .

سمعت صوت حسنية بالباب ، خافتاً وحاراً ، متضرّعاً :

— فى عرضك ياسيدى ، اتستّر علىَّ ربنا مايفضح لك ولية . خبينى عندك ، فى عرضك ، أبوس رجليك .

وسمعت صوت أبى ، أجشّ من النوم ، طيباً وعذباً جداً ، بلهجته الصعيدية التى لم يغيرها طول عمره :

— باسم الاب والابن والروح القُدُس. ادخلى يابنتى، ادخلى. لاحول ولا جوة إلا بالله . مالك يابنتى ، فيه ايه ؟

وسمعت حسنية تتوسل ، تكاد تجهش :

ـــ البوليس ، ياعم قلدس ، ورايا . غلبانة ياعمى والله ، مظلومه ، خبينى فى عرضك أبوس رجليك ، فى عرضك .

الباب يُرد والخطوات مضطربة ومتلاحقة ، وأمى تدخل علىّ باللمبة الكبيرة . وفى همس سريع ، أبى يقول لها : ادخلى يا بنتى . أدخلى فى السرير جنب الأولاد . واتغطى . وكأنما يقول لنفسه ، أو يقول لامرأته بصوت خاص به وحده : ربنا أمر بالستر . ربنا يستر على ولايانا .

أما أمى فقد رأيتها فى الظلال والنور المتراوح متنمرة لامعة العينين متوترة وهمست لأبى : الولد ! فأغمضت عينى وجمدت . عندما فتحت عينى رأيت حسنية تنزلق بجانبى فى قميصها الأبيض الواسع الذى أعرفه ، شعرها مهوش وعيناها واسعتان من الخوف ، وكانت حافية . وتقلبت عايدة قليلا وتنهدت فى نومها . واحتضنتنى حسنية ، وأحسست كل جارحة فيها تنتفض كأنها لاتملك أن تردها ، وكان جسمها بارداً .

فى الهدوء الليلى الخارجى سمعت وقع سنابك الخيل على الشارع المدكوك بالحجر الأبيض الدقيق والتراب الرملى وضجة أصوات مختلطة . وخبط يأتى على باب الشقة التحتانية ، ثم خطوات ثقيلة وسريعة تعلو على السلم ، وباب شقة الست وهيبة يفتح ، وطرقات ملحة عنيفة على بابنا .

لم أستطيع أن أقاوم ، فقفزت من السرير ، بجلابيتى البيضاء الحرير ، ولكنى شددت الملاءة وغطيتها ، وجريت الى الباب .

وعندما فتح أبى الباب اندفع إلى داخل الشقة كونستابل فارع الطول بملابس الركوب ، الحزام الجلدى السميك والبنطلون الضيق ، شاهراً فى يده إلى الأمام المسدس الحكومى جسيماً ومنتصباً وشريراً ، ووراءه مخبران بالأحذية الميرى الثقيلة والبالطو الافرنجى على الجلابية البلدى ، وعصا الجوز الغليظة مقوسة اليد .

وعندما رأى الكونستابل أبى ، نحيلاً وقائم العود وفيه كبرياء الصعيدى ، رافع الرأس ، وأمى من ورائه واضح أنها تيقظت على الفور من النوم ، وأنا ، تردد لحظة ، ثم توقف متحيراً قليلاً وقال :

ــ لامؤاخذه يابا . لامؤاخذة . ماحدش دخل عندكم دلوقتى ؟

قال أبى بثبات ، هادىء الصوت :

ــ حد مين بابنى فى الساعة دى ؟ خير .. إيه الحكاية ؟

صرخت أختى هناء الصغيرة فى نومها صرخة صغيرة فجرت أمى إليها ومعها اللمبة وتركتنا فى العتمة المضطربة ، مع البوليس .

قال الكونستابل وقد بدأ يحس أنه سخيف ومتقحمّ :

ــ أبداً أنا بس قلبى عليكم ياعمى . انتو ناس طيبين . لامؤاخذة جاتنا إخبارية عن الشقة التحتانية عندكم . نصيحة يابا خلّ بالك . ماتدخّلش حد عندك لامؤاخذة . اقفلوا الباب عليكم . تصبحوا على خير .

سمعتهم ينزلون ببطء وسمعت الحصان الميرى فى الليل تتباعد دقات سنابكه على شارعنا

قال لها أبى : انزلى يابنتى خلاص . ربنا يهديك وينور لك سكتك . انزلى ربنا معاك .

كانت تبكى من غير دموع تشهق بجفاف ، محنية الرأس . واندفعت تخطف يد أبى تبوسها فاستردها بسرعة كالملسوع وهو يقول بصوت خفيض متتابع النبرات : سامحنى يارب سامحنى يارب سامحنى يارب .

وكنت أطل عليها وهى تنزل السلم ، ورأيت ست وهيبة تنظر إليها من خلف الباب الموارب الذى يلقى على بسطة السلم خطاً مرتعشاً من النور .

وأنا أرجع للسرير ، رأيت أبى يقف فى غرفة نومه ، يرسم الصليب على وجهه ، ويصلّى .

فى الصبح لم نجد أثراً لحسنية ولا لأمها التى قالت الست وهيبة إنها لم تكن أمها ولاحاجة . كانوا قد لموا عزالهم فى عربة كارو وتركوا الشارع وكنت أفكر فيها وأشتاق إليها .

وعندما عرفت أن البوليس لم يدخل شقة الست وهيبة ، ولم يسألها عن شىء سطع لذهنى همسها لأمى ، وفهمت ، وكنت لا أريد أن أراها .

ودون أن أحس كانت العربة قد انتُسِفت من الأرض وانطلقت يجرها الحصانان الغاضبان بفتوة وعرامة الجموح ، وأنا أسمع قرقعات العجلات الخشبية المكسوة بطبقة رقيقة من الصاج على أحجار البازلت السوداء وكانت حسنية مرمية تحت سنابك الخيل الحديدية التى تطأ عظام صدرها وعيناها مسددتان إلىّ من الأرض ، صلبتين وينسكب منها حنان صامت لا أريده . وينفجر دق العجلات

والحوافر متلاحقة ، والعربة الكارو المحملة بشوالات الدقيق تدور ، تعلو تهبط ، ولاتتوقف ، تعود مرة ثانية أمام باب وابور الدقيق الضخم ، وتدور أمام الكوبرى المفتوح ، وقد سقطتُ إلى الخلف على المقعد الخشبى ، أتشبث بيدى بجانب العربة ليس بجانبى أحد ، ولايتوقف جموح العربة ولكنه لاينفلت بل هو محكوم .

وكنت أرى نفسى عندئذ والآن فى حضيضٍ وَهْدةِ الأشواق تنطلق بى الأحلام الوحشية التى لها وجه خيول الذكريات ، ضجيجها يكاد يطؤنى .

وفى عتمة آخر العمر التى استضاءت فجأة بالحب الزاخر القابض الفسيح كنت أعرف أننى أعتنق أيضا وهيبة وأتنسم عجينة أنوثتها . وكانت هناك ، فى داخل لدونة جسدها الخصب ، حسنية المقهورة الحنون ، وكان شعرها القصير الخشن حياً تحت أصابعى ، وكنت أُحوِّط عليها بذراعين دُقت فيهما المسامير ، مطعون الجنب بالحربة يتقطر منى دم نزر .



٢

بار صغير فى باب الكراسته

ما زلتُ أذرع شوارع غيط العنب ، كما كنت أعرفها وأنا فى مدرسة النيل الابتدائية ، واسعة ، نظيفة ، مستقيمة ، أرضها من الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملى جاف ، والشجر على الارصفة أمام البيوت المنخفضة ، وفيها رائحة الملاَّحة الرطبة تأتى من وراء سور السكة الحديد .

شارع الترامواى وحده كان مكسواً بالأسفلت الاسود الصقيل تشقه قضبان الترام اللامعة الجديدة ، وكنا نسير ، أنا وأمى ، أمام مطعم الفول الذى كنا نسميه التركى ، وكان فسيحا ومبلطا ببلاط أبيض وأسود ، وبابه ، ذو المصراعين الزجاجيين اللذين يُبرقان ، عريض جدا ، ووراءه مباشرة بجانب المنصة الرخامية الطويلة ، قدرة الفول النحاسية الهائلة . وكان يعلق صورة الملك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشين ، وبجانبها صورة الملكة نازلى وعلى شعرها المرفوع فى شكل هالة صلبة مرتفعةٍ تاجٌ نصفىّ صغير، وعلى الجدران الأخرى صور تلمع من تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سبْع يرفع سيفا ، وأبونا آدم وأمنا حواء ، مطرودين من الجنة ، عاريين إلا من ورقة التوت ، والحيّة ملفوفة بنظام

هندسى حول الشجرة ، والخليل ابراهيم يرفع سكينا ليذبح ابنه اسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل من السماء ، ألوانها زرقاء وخضراء يانعة وخطوطها رفيعة مسطحة ، وكنت أذهب اليه أشترى باتنين مليم فول فى السلطانية الصينى الغويطة ، ويغرف لى بمغرفته الطويلة البيضاء من قلب القِدرة ، وعندما أقول « اتُّوصّ » يضيف غَرْفة صغيرة أخرى وهو يبتسم لى من أعلى ، من تحت شاربيه البيضاويين المصفرّين ، وعيناه النافذتان الغائرتان تبتسمان لى أيضا من عمق وجهه الصخريّ العظام الشاهق البياض ، وفوقه صورة أتاتورك بالقلبق الفَرو الداكن والنظرة الصارمة ، وكانت الموائد الخشبية ، عند التركى ، داكنة ومرصوصة فى المحل بنظام،وقد دُعِكت فى الخشب طبقة من اللمعان المشقّق من كثرة المسح ، من غير مفارش .

وكنت أعرف أن اليوم هو ١١ بؤونة ، وأن غداً عيد الملاك ميخائيل . وكنا نذهب ، أنا وأمىّ ، لنشترى زيت السيرج الذى ستصنع به فطير الملاك . وكانت السيرجة بعيدة علىّ ، فى شارع جانبى ناحية غربال ، لم أكن ، لوحدى،أستطيع أن أذهب إليه .

وكانت أمى تخرج أيضاً بالملابس الافرنجى ، ولكنها هذه المرة كعادتها فى مشاوير غيط العنب ، لبست ملاءتها السوداء الناعمة النسيج ، لفّتْها على نفسها بإحكام ورشاقة ،والبرقع الخفيف الأسود المخرَّم وعليه القصبة الذهبية المدورة عليها خطوط عرضية بارزة فوق الأنف ، وكانت بيضاء الوجه من وراء شبكة البرقع الهفهاف ، وتقاطيعها عذبة ، وأنا أمشى بجوارها ، تمسك بيدى بقوة ، وتسير على حذائها المرتفع الكعب ، وكنت أحسها جميلة جدا فى الشوارع الجانبية الهادئة التى يظللها الشجر ، وكنت أنا ألبس جلابية فاتحة الزرقة عليها خطوطِ طولية حريرية داكنة الزرقة ، وحذاءً أسود جديداً متين الجلد والشراب القصير عليه حلقة أستك عريضة بيضاء ماسكةً بشدة على منتصف رجلى .

كان الصبح غير حار ، والبيوت حوالينا من دور أو دورين ، بعضها له جناين فيها تعريشات العنب الذى مازال بعناقيدة الصغيرة الملتَمَّة حول بعضها بعضاً بحصرم دقيق مدبب صلب الخضرة .

حَوَّدنا إلى حارة ضيقة ، ورأيت أن الأرض مبللة ببقع واسعة داكنة مندّاة على التراب أمام السيرجة ، ونزلنا درجتين من الحجر تعجّنت عليهما طبقة غير مستوية من التراب وعَقَدَت . واشتدت قبضة أمى على يدى حتى لا أنزلق .

انفسحت أمامى رَحَبة معتمة عالية السقف ، وفيها أعمدة مبنية من الحجر الخشن العارى ، مربعة الاضلاع ، وعلى الحائط شوالات الخيش المكتنزة بالسمسم ، مرصوصةً على بعضها بعضا ، ولدنة الانبعاجات ، وفَغَمَتْنى رائحة الزيت المعصور اللزجة النفاذة ، ولها عبق حلو سكّرى قليلا ، وكان هناك بغل عريض الكفلين ، مغمى العينين ، واقفا مدكوك الجسم ، بجانب عَجَلة المعصرة الخشبية السوداء الضخمة التى لاتتحرك الآن .

ورأيت أننى قد انزلقَتْ بى السلالم ، وكنت أتدحرج فى العتمة ، وحدى ، لاأحس احتكاكاً بشيء ، ولا يخدشنى شيء ، وأنا مازلت أهوى وكأننى أطير إلى أسفل ، وبلا وزن ، والبغل المربوط إلى حجر المعصرة الضخم يدور فى العمق تحتى ، من بعيد ، وتتزايد سرعته ، كأنما يُحلّق فى دورانه ، من غير صوت ، وسرعة دورانه أكبر وأكبر ، حتى أصبحت العتمة نورا صافيا غريبا ليس من هذه الأرض .

وهناك أيضا رصّة صفائح بيضاء عالية تومض فى العتمة رقيقة الجوانب كأننى أحس الزيت المعبأ فيها يترقرق تحت الصفيح الناعم الساكن الذى لا يكاد يتذبذب من ضغط السائل المحبوس فى داخله .

وفى آخر هذه الساحة السفلية المعتمة سرنا حتى وصلنا إلى مائدة خشبية غليظة الأرجل عليها دفاتر حسابات ضخمة كعوبها الدائرية بالجلد الاسود السميك ، ورصّة أوراق الفواتير ، ومحبرة عريضة من الزجاج الكثيف المُرَبّد فيها ثلاثة عيون مدورة إحداها مليئة بالحبر الأزرق وعلى سطحه غشاوة خفيفة من التراب ، والثانية فارغة وفيها دبابيس وأسنان الرِيَش ، والثالثة فيها طبقة مترسبة وعليها سائل الحبر الاحمر ، وريشتان من الخشب الاسود لهما أسنان مفلطحة تنتهى بذؤابات رفيعة ملوثة بالحبر .

نهض من وراء المائدة رَجُلٌ طويل ونحيل الوجه ، يلبس عمامة صعيدية رقيقة القماش دخانية اللون ، وقفطانه مفتوح الرقبة تنتهى أكمامه باتساع كبير على معصميه الرقيقين وأصابعه الطويلة ، وقال : ياأهلا وسهلا شرفتِ ياست سوسن نوّرتِ السيرجة اتفضلى اتفضلى . كل سنة وانتم طيبين ، وهو يُخّرِج منديلا كبيرا من جيب قفطانه ، مربّع النقوش ، ويمسح به بقوة المقعدَ القش المحدَّب قليلا فى الكرسى الوحيد الموضوع أمام المائدة ، وأمى تقول له ، بصوت بارد وكأن فيه عدم تصديق : وانت طيب ، كتّر خيرك يامعلم عوض ، وازاى المحروس اسكندر ؟

جلست امى على الكرسى بحذر ، وانحسرت ملاءتها عن فستانها الذى كان بلون سمنى ليس ضيقاً ولا واسعا بل فقط مُوحياً وأنثويا ، ووقفتُ وعيناى معلقتان بالحيوان الواقف جنب المعصرة ، ركيناً وقريبا من الأرض ، وخطمه يعمل بإصرار فى مِخلاة التبن الذى تناثرت أعوادٌ جافةٌ منه على الأرض الغمِقة الموحلة قليلاً بالزيت .
قال المعلم عوض : بخير ياست سوسن بخير ، نشكر الرب .. اسكندر .. ياواد اسكندر ، تعال سلّم على خالتك أُمّ ميخائيل .

وجاء من جوف السيرجة ولد فى مثل سنى ، محروق الوجه وجاف ، على جلابيته بقع حائلة ، وسلَّمَ على أمى بغضب وصمت ، ولم ينظر إلىّ ، وجرى راجعا إلى ماوراء الأعمدة الثقيلة المربعة .

وكان فى أركان السيرجة رجال نائمون على شوالات فارغة على الأرض أو مستندين بظهورهم الى أكوام شوالات السمسم المليئة ، وتصدر عنهم أصوات غطيطٍ خفيف أو أنين خافت مكتوم ، وفهمت ، بقليل من الرعب ، أنهم لابد قد سهروا طول الليل يحملون ويَعْتلون ويعصرون ، حتى الفجر .

كانت صفيحة السيرج الصغيرة ثقيلة مع ذلك فى يدى والحلقة المستطيلة التى أحملها منها ، مصنوعةً من معدن مدور رفيع ، تُهدِّد بالانخلاع وتحز فى باطن أصابعى وتحرقها قليلا ، وقالت أمى ونحن فى طريق العودة : ثِقيلة عليك ياميخائيل ؟ فقلت بشجاعة : لا أبدا ، وأنا أغالب وجع الحزّ فى أصابعى والخَدَر فى ذراعى لاننى فرحان بعيد رئيس الملائكة الذى كنت منذوراً له ، وكنت أعرف أنه هو الذى دحرج الحجر الضخم عن فتحة قبر المسيح القائم من بين الأموات .

وفى البيت كانت أمى تصب السيرج من الصفيحة إلى طشت أبيض صغير لتُصفّيه من عكارة السمسم الدقيقة العالقة به ، وكان الزيت ثقيلا ولونه أصفر عجيب الصفاء وله قوام شفاف متموّج ومتماسك .

وفى الليل قامت أمى تُقرِّص فطير الملاك فى الشرفة الواسعة العالية المُطلّة على الشارع النائم ، وتضغط على كل قرص بالخشبة المدورة الممسوحة بالسيرج ، التى عليها خطوط غائرة خشنة الحدود تعطى صورة للملاك يحمل الميزان وحوله فروع نباتات دائرية ، وكلمات بالقبطية عرفت أخيرا أنها يسوع المسيح ابن الله

وفوقها الصليب القبطى المُورق الاطراف . ورأيت القمر مستديراً كامل الفضة كأنه باب القلب المفتوح فى السماء .

فى الصبح أعطانى أبى عيديّتى ، أنا وحدى ، حِتّه بخمسة ، فضية جديدة عليها طغراء باسم السلطان حسين ، وقبّلنى على جبهتى ونزل للشغل ، وبعد أن رجعنا من الكنيسة قالت أمى إننا سنذهب لخالى حتّا نسلّم عليهم ونعطيهم فطير الملاك ، وخرجْنا حتى شارع الترامواى ، وكانت هناك أمام الكراكون ثلاثة أربعة عربات حنطور واقفة ، وساومت أمى العربجى حتى وافق على ثلاثة صاغ وكان يلف رأسه بشال مخطط وملون ووجهه أعجف مُخَدَّد وفيه تَرَفُّع ، ويكحّ بشدة من وقتٍ إلى آخر ، وكنت مُحْبَطاً قليلا لأننى لاأستطيع ، هذه المرة ، أن أركب بجانب العربجى ، وراء الحصان من فوق ، لأننى كنت أحمل بين ذراعىّ أقراص الفطير ، ملفوفةً بورق من مجلة قديمة وعليها فوطة بيضاء ، وكنت أحس بالفطير ، من وراء الورق والقماش هشا سريعا إلى الانكسار ، وأحرص ألا يصطدم بشىء ، وكان العربجى يسابق ترام محرم بك وهو يقرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان الذى له لون الكونياك الفاتح الذى يشربه أبى ، وكانت عجلات العربة تقرقع على قضبان الترام التى تومض فى الشمس .

ودخلت العربة إلى شارع الرصّافة ، وكانت الأشجار ظليلة فى الصبح والشمس تهتزّ من بين أوراقها التى لها رقرقةٌ سريعةُ الموج وجافة فى الهواء الرطب . ثم حوَّدَتْ العربية إلى شارع جانبى ترابى ولكنه واسع ، وفيه خرابات مسورة بالحجر الابيض الكبير المكسر الضلوع وفى الحجر خطوط متعرجة داكنة اللون ، وفيه بيوت كالسرايات لها أسوار حديدية تتهدل عليها أغصان كثيفة وتهبّ منها رائحة الياسمين البلدى العبِقة ورائحة الأرض المبلولة .

نزلنا أمام سور البيت . وكانت أمى تلبس فستانها السمنى اللون من غير

ملاءة ، وتضع قبعة صغيرة من القماش البِيج الفاتح وعليه عنقود صغير ، مرتّب بمكر ، من حبوب الكريز الاصطناعية وزهور قاتمة الحمرة على أغصان رقيقة جدا خضراء ، مشبوكة كلها بالقبعة بدبوس مذهَّب فى غاية الدقة .

كان الباب الذى وقفنا أمامه ضيقا وعاليا ومصنوعا من الحديد المشغول الصدىء ، ودفعناه من غير أن ندق عليه فانفتح ، ببطء ، عن ممرٍ عرضى ضيق يحيط بالبيت ، مزروع ، وكانت هناك وراء الباب ، مباشرة من الداخل ، حنفية ماء غليظة الفوّهة قائمة على عمود رفيع قصير ، ينزل منها سلسال أبيض مُزبْد مستمر تكونت تحته بِركة صغيرة موحلة .

وصعدنا ثلاث درجات حجرية إلى باب البيت المقفل المصنوع من الخشب البنى السميك وعليه كرانيش طولية وعرضية ومثلثات بارزة من نفس الخشب وله نافذة من الزجاج المحبَّب غير الشفاف تُفْتح من الداخل ، وكان فى الجنينة العرضية الضيقة بين السور الحجرى وحائط البيت ، ثلاث نخلات طويلة ، تنبثق متلاصقة الجذور ، وتَنْفرِع جذوعها الخشنة المضلّعة الحوافّ ثابتةً فى انشعابها ، مائلة متباعدة عن بعضها بعضا وسعفها العالى يهتز فى الهواء بعيداً فوق سطح البيت المنخفض الطويل .

فتحت لنا الباب أولجا بنت خالى حنّا ، وكانت طويلة وبيضاء وجاحظة العينين ، وتلبس جلابية فلاحى من قماش مشجَّر ، وانحنت علىّ وقبّلتنى بفمها الواسع وأسنانها البارزة طيّبِةِ القلب ، وأحسست بثقل ثدييها ، بصلابة ، على وجهى وهى تميل علىَّ بشفتيها الكبيرتين ، ونَشقْتُ منها ريحاً حريفة غامضة ، وكنت أتعجب ، عندما سارت أمامنا ونحن ندخل البيت ، من أن عجيزتها مدورة وملفوفة وليس لها جانبان مشقوقان بل هى كتلة واحدة مكورة . وكانت كبيرة السن وأمى تقول عنها إن عندها ثلاثين سنة وأكثر وإنها عنّست ياحرام .

وكان البيت معتما وفيه رائحة عَطَن مُترب خفيف من السجاجيد المفروشة والأثاث الخشبى الثقيل الذى لا يَرَى الشمس ، وعلى جانبى الفَسَحة الطويلة التى دخلناها أبواب غرف متقابلة مقفلة تنسدل عليها ستائر من القطيفة الداكنة الحمراء الحائلة اللون ، وكل ستارة منها مفتوحة إلى جانبين مرفوعين ومثبتين بمقابض نحاسية لامعة على عارضى الباب ، ولهما شراشيب كثيرة الخيوط من نفس لون الستارة ، وعلى الحيطان الملساء المدهونة بالزيت ، داكنة الصفرة ، صور قديمة بيضاوية ، باللون البنى السيبيا الفاتح ، فى إطارات بيضاوية أيضا ، لرجال بطرابيش تركية قصيرة وياقات صلبة منشّاة وشوارب كثيفة مستدقة الاطراف ، وفى سقف الفسحة نجفة كبيرة مطفأة ورائحة خاصة هى رائحة العز الرث القديم المختبىء الذى لانعرفه فى بيتنا أمام وابور الدقيق فى غيط العنب ، بحجراته المتقاطعة المفتوحة الأبواب دائما ، والمنيرة بضوء الشمس والتى نسكنها نحن وأخوالى وزوجاتهم وجدى وجدتى كلهم معى ، ولا نحس بالزحمة ولا الضيق بل الحياة فى براح .

خرج إلينا من إحدى الغرف الداخلية حنّا بيه خال أمى ، الذى قالت لى إنه موظف كبير قد الدنيا فى الحكومة وانه عضو أيضا فى المجلس الملّى ، عجوزا قائم العود نحيلا ، خشبىُّ الحركة ، يتوكأ على عصا أبنوس رفيعة وصلبة ، فى جلباب أبيض ناصع له ياقة عالية يابسة ملفوفة حول عنقه الرفيع المتهدّل الجِلد كعنق ديك ، وله عينان غائرتان فى محجريهما متألّقتان بسوادٍ ضيّق اللمعان ، كان فيهما نوع آخر من الحياة الحادة ، وعندما مدَّ إلىَّ يده أحسست ببرودة العظام الجافة وخشونة الجِلد القديم ، وقال لى مباشرة : إنت كويس فى المدرسة ياولد ؟ وكنت لاأحبه ولا أكرهه ولا أحس أنه يهمنى فى شىء وكأنه بالفعل ميّت من الآن ولا ضرورة له ، وكنت أعرف أنه غنى جدا وبخيل جِلْدة وأن له أرضاً فى الطرانة قرية أمى ، تعيش على ريعها أختاه العجوزان جداً اللتان لم أعرفهما إلا بعد ذلك بسنين فى أيام الحرب ، فقالت أمى : اسم الصليب عليه بيطلع الأول فى

الفصل ، فزامَ حنّا بيه من وراء شفتيه المضمومتين الذابلتين كأنهما ورقة شجرة صفراء تحت شاربه الابيض المصفرّ من الدخان ، ونظر إلى أمى دون قبول ، نظرةَ اتهامٍ خفيّة بل إدانة ، كأنه لايُصدِق ، فأحسست بالغضب ، ليس لى ، بل لها .

كانت أمى قد انقطعت عن صناعة فطير الملاك منذ الحرب ، والغلاء ، وشُح السمسم ، ونسيتُ كلٍ شيء عنه ، تقريبا . ودخلت جامعة فاروق الأول ومات أبى فى ليلة باردة جداً من ديسمبر ، فى أثناء الحرب ، وحصلت على « مجانية فقر » أو « مجانية كارثة » كما كانت تسمى ، لكى أكمل دراستى فى كلية الهندسة ، واشتغلت ، مع دراستى ، فى مخازن البحرية البريطانية فى كفر عشرى ، مساعداً لأمين المخزن ، وكنت أذهب إلى المخزن وأمرّ بالحارس اليونانى الذى يقف على الباب الحديدى الضخم الجرار ، وأنا أعلق شارة معدنية سوداء مكتوبا عليها بالانجليزية « الجلاء » على جاكتتى الزرقاء الطويلة وقد اشترتها لى أمى من الملابس المستعملة التى أرسلها الامريكان كمعونة والتى لم يكن عندى غيرها ، وأخلعها وأعلقها على مسمار بحيث تظهر الشارةُ واضحةً للعيان ، وألبس القميص الأبيض والشورت البحّارى من عهدة المخزن ، وكنت أرسم علامة المنجل والمطرقة وعليها رقم ٤ بالانجليزية والهلال بنجومه الثلاثة على الحاجز الخشبى الرقيق الذى يفصل بين الركن الذى فيه مائدة من الصاج هى مكتبى ، وبين مكتب المسترلى ، أمين المخزن الذى جاء من جنوب لندن وكان يعمل فى مخازن البحرية البريطانية من قبل الحرب ، وكان مكتبة أنيقا وله واجهة زجاجية من عمل الأسطى مرسى النجار الذى يشتغل معنا . وكان مسترلى ، من وراء نظارته السميكة المدورة ، ووجهه المكتنز المحمر ، والشرايين الدقيقة على أنفه ، وهو يلبس أيضا الشورت البحارى الأبيض على كرشه الصغير المدور ، يقول لى خسارة أن مصريا شابا ذكيا يدرس الهندسة ويمكن أن ينفع نفسه وبلاده يضيع وقته فى السياسة ويقول لى إننى سأعقل بعد أن أحصل على درجتى الجامعية ، وانخرطتُ فى

مظاهرات ١٩٤٦ وشهدت اعتصام الطلبة وحصار الجيش لربوة العباسية فى محرم بك بدباباته الصغيرة الصفراء ذات المدافع الرقيقة ، أراها من فوق ، كأنها لُعب .

وانتهت الحرب وأُغلقت مخازن البحرية البريطانية فى كفر عَشْرى وذهب الانجليز بعضهم إلى بلاده وبعضهم إلى ثكنات قنال السويس وتخرجتُ من كلية الهندسة وقضيتُ سنةً ونصف أبحث عن عمل وأعطى دروسا فى الحساب والرياضة لتلاميذ من الابتدائى والثانوى وأترجم وثائق فى الكيمياء والميكانيكا لمكتب لبراءات الاختراع يملكه مالطى يهودى عجوز قصير متين الجسم يتكلم الانجليزية بلهجة الملايطة بصوت عال أجش من جوفه ، ووجدتُ نفسى فى قلب الحركة الثورية التى كانت تجيش بها البلاد .

كان اسكندر عوض قد واعدنى باللقاء فى بار الكراستة فى الرابعة والنصف بعد الظهر . كنت قد رأيته يسير إلى جانبى ، ويهتف بحرارة « الموت للانجليز » .. « يسقط الاستعمار » فى مظاهرة شارع سعيد الكبيرة التى رأيت فيها صبياً يموت برصاص التومى جَنْ ويحمله الناس وهو ميتّ على الاكتاف . وجاء إلىّ فى القهوة الصغيرة التى جلست فيها أشهق وأشرب كوب ماء ، وعرّفنى بنفسه وقال إنه وطنى ويحب الوطنيين وكان يخيل إلىّ أننى أعرفه بشكلٍ ما ولكنى لم أتذكر أبدا . وكان يكتب شعرا ثوريا ساذجا باللغة العامية ، فيه أصداء من بيرم التونسى وحسين شفيق المصرى وأبو بثينة معا ، عن غُلْب ومَجْدَعة أولاد البلد ، ويشتغل عند أرمنىّ يملك فابريكة بصطرمة صغيرة فى كوم الناضورة وعندما أذهب للقائه فى المحل المظلم الذى تدور فيه مكنة عتيقة ذات سكين حادة ضخمة دوّارة أرى كتل البصطرمة النيئة المدورة معلقة على الحبال كالغسيل تجف وتستوى فى الهواء والشمس على التل الترابى القليل الارتفاع ، فوق سقف المحل الداخل فى الربوة ، والأعلام الملونة وكرة كبيرة سوداء معلقة فى أعلى كوم الناضورة . وكنت أكلمه عن حركة الوطن ودور الطبقة العاملة وعن القيمة وفائض العمل وعن ثورة

اكتوبر وثورة سنة ١٩١٩ وعلاقة الأدب بالثورة ، وكان فى مثل سنى وقال إنه لم يكمل دراسته فى مدرسة النيل الثانوية بغيط العنب لأن أباه كان عنده فابريكة صغيرة فى غيط العنب وأفلس ومات . ومع ذلك لم أتذكر .

أخذت ترام الورديان ، وكانت عربة الترام تتأرجح قليلا فى اندفاعها وكان شارع السَبع بنات خالياً تقريبا فى حر الظهر ، ورطوبة البحر تأتى إلىّ من نافذة الترام المفتوحة ، ونزلت بعد كركون اللبان بمحطتين ، وكان الشارع مرصوفا بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبه مخازن الخشب والقطن العالية الحيطان ، والورش الصغيرة ، ومخازن الخيش والبصل ، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصمتة الخشنة القوية الحجر ، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر ، خفيفةً وجافةً قليلا ، تأتى من ناحية الميناء تحملها بُلولة الهواء .

ولمحت البار فى منعطف داخل شارع جانبى ، اللافتة الخشبية على بابه مازالت حروفها الانجليزية « بطاطس وسمك » مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسود الذى لطَّخها به الطلبة الوطنيون بلا شك ، وقد أُقلع جنود الحرب الذين كانوا يملأون هذه النواحى بعربدة اليأس والقهر والموت .

دفعتُ الباب الخشبى القصير المكون من ضلفتين متحركتين وتستطيع أن تطل من فوقه على داخل البار الهادىء النور ، والمرايا على الحوائط مرسومة بإعلانات فيها زجاجة كونياك أُوتار كأنها مجسّمة داخل المرآة ، وخلفها كتابة بالذهبى الباهت على أرضية سوداء مشققة ، والمرايا المقابلة تتراسل بزجاجات الأوزو وبراندى جناكليس وويسكى الحصان الابيض ، وكان البلاط الاسود الذى يكسو أرض البار باهتاً قليلاً والموائد الخشبية المربعة مصفوفةً تحت الحائطين القريبين أحدهما من الآخر ، ومنصة البار ، مغلقةً بشبكةٍ نازلةٍ من الحديد،فى نهاية المحل ، وبجانبها باب خلفىّ صغير .

كان اسكندر عوض قد قال لى إن البوليس لايمكن أن يشتبه فى اجتماع ينعقد فى بار صغير فى باب الكراستة وقال لى إنه سيُحضر معه ملاحظ عمال من رصيف الفحم وانه ولد مجدع ومثقف أيضا ، وان الحركة يجب أن تكون موجودة فى عمال الميناء ، وانني لو أحضرت معى شيئا ، بيانات مثلا أو مجلات أو كتب ، ليقرأها الزميل الجديد ويقول عما فيها للعمال الآخرين فى الميناء يكون هذا شيئا عظيما ويدفع الحركة إلى الأمام ، وشدد علىّ فى هذا وكنت مع ذلك أتوخى معه الحذر الكامل وقواعد الأمان ولاأتحدث معه إلا بكلامٍ عام وأحرص ألا أشير الى اسمٍ محدد أو مكان معروف أو أى ميعاد لأى نشاط ، ولم أقل له حتى عن اسمى وكان يعرفنى باسم مستعار .

وعندما دخلت رأيته فى عتمة آخر البار ومعه امرأة .

كان وجهه الطويل المتهضم لامعَ السمرة تقريباً فى نور بعد الظهر الكابى وكان الجو فى البار الخاوى منعشا ببرودة خفيفة من البلاط والظل الرطيب بعد شمس الشارع .

قام اسكندر عوض يسلم علىّ ، وقال لها : الباشمهندس يوسف اللى كلمتك عنه . وهو يومىء إليها برأسه ، ثم همس إلىّ : زيزى ، ماتخافش ، هى عارفة ، ومعانا بكل قلبها وحياة المسيح .

مدت إلىّ يدها وهى جالسة ، من فوق المائدة ، بين زجاجتىْ البيرة الاستيلا وأكواب البيرة الطويلة المكتوب عليها بالانجليزية « زوتوس »، وأحسست يدها رخوة وباردة وليس فيها عصَب ، كأنها سمكة بأصابع طويلة تنتهى بالمانيكير الأحمر القانى ، وكانت تلبس فستانا ناعماً بلا أكمام وفتحته تحت الذراعين واسعة تكشف جانباً من صدرها ، ولمحت الزغب الأصفر الخفيف الهش جدا على ذراعها الممدودة إلىّ فى النور الخفيف .

قالت ، مباشرة ، فى هجوم جنسي واضح ومستقر وطيب القلب ، من أول وهلة :

ــ ياأهلاً بالباشمهندس الحليوة الصُغيَّر بتاعنا ، اتفضل اتفضل ياحبيبى ..

وأحسست الدم يملأ وجهى ويطنّ فى أذنى ولكننى قررت أن هذه التحية ليس فيها مايُضير بكرامتى وأن البنت على العكس تتحبب إلىّ ، فغمغمتُ بكلمات مدغمة ، وانفجرتْ هى فجأة بضحكة صافية وبريئة وليس فيها أدنى شبهة من مهنتها .

كان هناك جزء صغير جداً بارزٌ الى الامام من شفتها العلوية الرقيقة ، يُظلل أسنانها الصغيرة البيضاء ، وشفتها السفلية مليئة ، على العكس ، ونازلة تعطى وجهها إيحاء شهويا صريحا ، لكن شفتيها كانتا بريئتين تماماً مع ذلك ، وبلونهما الطبيعى ليس عليهما طلاء، وشممتُ عطرها الجاف الرقيق عندما مدت ذراعها إلىّ ، وكان وجهها يقول إنها صَحَت من النوم متأخرة جدا ، عيناها منتفختان قليلا وفيهما نظرة ثقيلة ، ويُوحى بأنوثةٍ كثيفة وحنوٍ كثيف .

وقال اسكندر عوض : تشرب إيه يا باشمهندس ؟

وصفّق وبرز من عتمة آخر البار جرسون يونانى عجوز ويتحرك برشاقة وخفة ، يضع فوطة بيضاء على كتفه فوق الجاكتة الاسموكن السوداء ، وبنطلونه ضيق وطويل مخطط ، ووجهه مُخَدَّد نظيف التجاعيد وعيناه مدفونتان . وكنت پيوريتانياً جداً فى تلك الأيام ، لاأدخن ولا أشرب إلا نادرا ، ولاأعرف النسوان ، ولكنى على سبيل التحدى ، طلبت براندى ، وفى ثانية كان الجرسون اليونانى يضع أمامى الكأس المفلطح العريض وثلثه يترقرق بالسائل الأصهب الثمين الشكل .

قلت له ماذا حدث ؟ ولماذا لم يأت صاحبنا ؟ فقال انه لابد سيأتى حالا وهل أحضرت معى الورق والاشياء ؟ فلم أرد عليه ، واقتربتْ زيزى منى بوجهها الابيض المثقل وحاجبيها المقوسين الرفيعين جدا وسألتنى ، متوددة ، أين أشتغل ؟ ومن أين أنا فى اسكندرية ، ورددت عليها بكلام عام ، وكان صدرها المحبوك المستدير مستنداً الى المائدة متكورا فى داخل الفستان الخفيف الذى يكشف عن قميص داخلى أسود له شريط من الدانتيلا يلمّ الصدر الوافر يبدو دسما ومتحفظا وبكْراً وفيه تأكيد خفيف للمرأة لا للأنثى ، وكنت قلقا وغير مستريح ، وهى تتحدث عن الأحوال والشغل الذى أصبح خفيفا ولا يساوى التعب والبهدلة وأحسست ساقها من تحت المائدة تمس ساقى وكان البراندى قد نزل حارا الى قلبى واحسست بالصلابة والتوتر الحميم بين ساقىّ ، ثم قامت فجأة ، ودارت حول المائدة ، ورفع اسكندر وجهه اليها مندهشا متسائلاً ، ومدت الىّ يدها وقالت بهدوء : تعال معى .

ودارت بى خواطر مفاجئة ، وتجسمتْ فى ذهنى ثم اختفت على الفور صورٌ مخطوفة من سافو دوديه ، ونانازولا ، وغادة الكاميليا ، وغرفة زيزى التى تخيلّتها علويةً على سلالم من وراء الباب الخلفى الصغير ، وستائرها خفيفة شفافة تطل على البحر وعلى بابِ القلب المفتوح وهَوَسِ الجنس وعربدته ، ومناعم الجسد كما رأيتها ، أول مرة ، فى الراقصة البلدى ، عارية ، وأنا فى الثانية عشرة ، فى فرح بجوار بيتنا فى محرم بك . وارتعبتُ من احتمال الاصابة بمرض سرى ، وفكرت اننى لاأحتمل أجرة العلاج ، ونفيتُ ذلك كله عن نفسى ولم أكد أخطو معها أوّل خطوة ، وكأنما حَدَسَتْ مابنفسى فابتسمت لى عن أسنانها الصغيرة بغموض وغواية ، فهل كانت غرارتى وعنفُ براءتى هى ماأغواها ؟

ولكننى كنت صاحياً جدا مع ذلك ، وأنا أقوم معها ، والتفتتْ هى الى اسكندر عوض بحسم ، وقال : إيه ياسى اسكندر ؟ وانت مالك ؟ خليك انتَ

هنا يانور عينىّ . وكانت يدى فى يدها وهى تخرج من الباب الخلفى الصغير خلف البار ، ونزلنا درجتين حجريّتين زلقتين من البلل وعشيتْ عيناى قليلا من بهرة نور بعد الظهر ، ووجدت اننى معها فى طرقة مبلّطة بين حائطين عاليين ، وصفائح الزبالة وصناديق البيرة المليئة بالزجاجات الفارغة الى جانب الحائط ، وكانت الشمس تنزل ساخنة بين الحائطين المسدودين ، وباب حديدى أسود صغير مكتوب عليه بالأبيض GENTS بالانجليزية ، ممسوحة وفوقها صورة بيضاء لرأس عليه خوذة عسكرية مُدوَّرة .

نظرتْ إلىَّ وأنا واقف متحيراً فى الطرقة ، وقالت ، غاضبة وحارة بهمس خشن :

— إمشِ من هنا ، يالله ، رَوَّحْ من غير ما تسأل ، إمشِ يالله ياحبيبى إمشِ ، ولكننى أحسست فمها على خدى ، فجأة ، فى قبلة خاطفة مُلِحَّة ، ودفعتنى بيدها ، برفق ، وأقفلت الباب عليها . وسطعَ فى ذهنى على الفور أننى نجوت من الكمين ولم أتذكر الملاك ميخائيل .

ووجدت نفسى ، أنهج قليلا من المشى الجاد السريع ، فى الترام العائد إلى المنشية ، وعرفت معنى الأَمْنَ بين الناس الصامتين ، ولم أر اسكندر عوض بعد ذلك ، أبداً ، وبعدها بكثير تذكرت مرة واحدة ، وعرفت أن الخيانة ، والنقاوة ، لهما طرق خفية .

كنت قد نزلت من الترام ، وكنت أصعد على صقالة خشبية بها حزوز بارزة أُثبت بها قدمىّ ، الى المركب الصغيرة المربوطة بالرصيف ، تتأرجح قليلا على المياه المخضرة الثقيلة القوام التى تطفو عليها ، وسط زَبَد أبيض كرغوة الصابون غير النظيفة ، عُكارة ، وأوراق خضراوات ذابلة ، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء ، حول جنزير الهلب الساقط فى العمق الداكن ، تبرق على موجه نُقَطٌ حادة من شمس بعد الظهر ، وكان زملائى من مدرسة النيل الابتدائية قد ابتعدوا

عنى جدا ولكنى أسمع صوت أقدامهم تصعد السلالم الضيقة الى سطح المركب ، وضحكهم ولغَطهم ونداءاتهم ، وأعرف أن ذلك كان من زمن بعيد ، وكانت المركب خالية تماما ، فجأة ، وأنا أجرى فى ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة أرى منها أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشاهقة ومداخنها العريضة وأبراجها الثابتة ، ومازلت أجرى وأجد أمامى سلالم خشبية عالية تصعد الى مالا نهاية ، لاأصل الى سطح المركب أبداً ، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بني فاتح جدا يكاد يكون أصفر ، ولامعة مصقولة تومض ، وأنا أجرى ، بلا وزن ، على السلالم التى تصعد معى بلا نهاية ، وأسأل نفسى ، من غير دهشة ، الى أين تنتهى السلالم فى هذه المركب الصغيرة التى كنت أظن اننى سأقطعها ، طولاً وعرضا ، فى دقائق ، ولا أنهج ولا أحس ثقلا ولا ضعفا .

وأنا أجرى الآن فى ممر طويل ، على سطح المركب ، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذى تشرَّبه وينفث رائحةَ ملح البحر ، وصرخات النوارس تحوم حولى ثاقبة وجائعة ، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركب الواقفة ، وأنا أطل عليها فجأة من حاجز حديدى طويل .

وتنقض علىَّ نورسٌ سوداء ، صدرها صلب ومدور ومكتنز ، وفى منقارها الطويل الجارح رائحة أعشاب البحر الحادة ، وهى تنظر إلىَّ بعينين حانيتين فيهما حُكْم علىَّ بالقتل .



٣

الموت على البحر

أرى الولد ، صغير الجسم ، ساقاه رفيعتان فى الشورت الأبيض الواسع ، وقميصه مفتوح . عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة ، مبكرة كثيرا عن سِنّه ، وهو يقف فى أول الصبح على حافة البحر الموحش ، عند المندرة .

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة ، مشعّة ولاتكاد تترقرق ، دسامةٌ بيضاء فى الضوء الذى يكاد يكون شتويا ، تنتهى برغوة شفافة تغوص فى الرمل بوشيش خفيض ، متكرر .

أُحِسُّ ، عبر السنين الطويلة ، بالنداوة اللينة تحت قدميه الحافيتين ، والهواء المبلول على وجهه .

وأجد أن الشوق ، مثل نزوع الموج ، يرتمى على الشطّ ممدودَ اليدين ، بلا تحقق ، مثل اندفاع الماء ، مُستَنْفَداً بعد رحلة طويلة على ثَبَج العُمر ، ينكص محسوراً أبدا الى عرض اليمّ العميق ، ولايفتأ يعلو وينحسر ، حلمه يأتى ويعود ،

لايهدأ الى راحة ، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرّج ، لحظةً واحدة .

فى تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطىء الواسع .

وعلى مسافة كبيرة داخل هذا الامتداد الساكن المتسايل تحت سماء خفيفة اللون ، كنقطتين ، أراهما ، لاتكادان تتحركان ، أعرف أنهما أبى وأمى وحدهما فى البُعد الفسيح . وأُريد أن يرجعا ، بسرعة ، إلىّ .

يصل الموج الطفيف إلى قدمىّ ، ويترك غشاء فضيا رقيقا لايكاد يجف ، وهو يلمع ، حتى يبتل من جديد بزبد يتقطع ويذوب .

فى تلك السنة أُجّرْنا كابينة فى مصيف أصدقاء الكتاب المقدس فى المندرة . وكان للمصيف سور منخفض من الطوب الاحمر حول أُرض واسعة ناعمة الرمل . وكنت أُحب أن ألعب تحت النخل العجوز العفىّ خشن الحراشيف ، بين الكباين الخشبية المتناثرة من غير نظام ، وأن أُنظر الى عناقيد البلح الأخضر المدوّر تقريبا بغضارته الكثيفة تحت السَعَف العريض وهو يهتز بأطرافه الشوكيّة المسننّة على زرقة السماء التى تكاد تكون بيضاء . وكانت الفِراخ تجرى وتنقّ وتلقط أَكلها من الرمل تحت النخل وحول الكباين ، ونُقفل الباب الخشبى فى السور ، عندما نجرى وراءها ، أنا وأمى ، لنمسك واحدة ، وتذبحها أمى بالسكين الحادة التى تومض فى الشمس ، وهى تقول « باسم الصليب وشارة الصليب كاك كاك إلهى يصبّرك على مابلاك » ثم ترمى الفرخة على الرمل تصفّى دمها وهى تجرى قليلا ثم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها .

وكنت أعد الأيام ، لأننى سأدخل المدرسة الثانوية بعد هذا المصيف مباشرة ، وأفرح بكل يوم جديد ، وكنت أستوحش مع ذلك الى أخواتى البنات

عايدة وهناء ولويزة التى كبرت الآن وتمشى فى البيت على رجليها غير الثابتتين وتصرخ وتقول بضع كلمات ، تركناهنّ فى بيتنا فى غيط العنب مع جدتى أماليا وخالتى وديدة وخالتى سارة وأخوالى .

وكان أبى يأخذ حمام الصبح مع أمى ، مبكراً جداً قبل القهوة ، هو بالمايوه الأسود الطويل الطويل كالفانلة ، وجسمه كالعود مشدوداً وله عضلات جافة ونحيلة ، وهى بالمايوه القماش ، غامق الزرقة ، مقفل تماما ، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل الى الركبتين ، وكانت قد فصّلته وخيّطته بنفسها على الماكينة السِنْجر القديمة الرفيعة البطن التى بهتت الكتابة الذهبية عليها ، قليلا .

وأجرى معهما ، وأنا لما أكد أصحو من النوم ، بالشورت الأبيض والقميص الخفيف ، نعبر الكورنيش اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة ، هواء البحر البارد بعد كِنّ الكابينة ودفئها يصدم وجهى ، والسيارات قليلة جدا فى هذه الساعة ، وننزل الى الرمل الواسع المتحدّر ، وليس فيه ولا شمسية ، وأقف على حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر ، وعلى ذراعى الفُوَط الطويلة كثيفة الوبَرة .

وتخرج أمى من البحر ، ناصعةً ومضيئة وناعمة ، وشعرها القصير المقصوص مبلول يقطر بالماء ، ويلحق بها أبى ، قائم العود ، ينظر اليها بحبٍ وطيبة ، بعينيه الثاقبتين العميقتين فى وجهه الحاد العظام ، ويلتفّان بالفوَط ، ونرجع جرياً الى الكابينة .

وفى الدفء الذى يأتى من خشب الكابينة المغلق ، يغيّران ، ونقعد لنفطر على الطبلية المنخفضة ، وبعد الفطور نتربع على الكليم الاسيوطى ، ويصنع أبى قهوته السادة بنفسه ، على السبرتاية الصغيرة بلهبها الأزرق يتراقص تحت الكنكة ، ويحكى لنا حكايات عن أيام شبابه عندما كان صرّافا فى الصعيد

يطوف القرى حول إخميم على حماره الميرى ، ليجمع ضريبة الحكومة من الفلاحين ، وكان يضع تحت لسانه فتفوتة مكوّرة لدنة القوام يكحتها بعود كبريت من عجين أسود لزج ، فى علبة صفيح مبططة صغيرة ثم يذهب فيأخذ الأوتوبيس الى شغله ولايعود إلا على العشاء .

وأكون أنا قد أكلت من زمان ، وأكاد أسقط فى النوم ، ولكننى أنتظره وجسمى هادىء وثقيل بهذا التعب الحلو الذى يأتى من اللعب والجرى على البحر طول النهار ، بينما هو يتعشى على الطبلية المحملة بالعيش البلدى الطازه وورك الفرخة والجبنة الرومى والبيض المسلوق مقشراً ومقطوعاً الى شقين قد عصر عليهما الليمون ، ويشرب على العشاء ، كل ليلة ، ويصب لى كأسا صغيرة من خمسينيّة الكونياك ، صهباء اللون ، أحس طعمها لاذعاً وممتعا ، وأنا على مشارف النوم ، وهو يحكى مع أمى .

كان خالى ناثان يسوق الأوتوبيس الأخضر ، بهيكله المربّع ، على الكورنيش بين أول سيدى بشر والمندرة . وكنت بعد الفطور مباشرة ألبس المايوه الضيق الذى يحبك علىّ وقد صنعته لى خالتى وديدة من الصوف التريكو الأحمر ، تحت الشورت القطيفة الأسود الذى بحمالات فيها زراير بيضاء كبيرة ، وأدس تحته القميص الحرير اليابانى ، وأخرج جرياً من الكابينة وأمى تقول لى خلِ بالك من الأوتومبيلات وانتَ بتعدّى بُصّ يمين وشمال وهى مشغولة أمام وابور الجاز تطبخ للغداء ، فى الكابينة المعتمة قليلا .

وأعبر الكورنيش ، بعد أن أنتظر ، واجف القلب ، حتى يخلو من السيارات القليلة، وأثب الى رصيف البحر ، وأمشى قليلا الى محطة الأوتوبيس . فاذا جاء وقف لى حتى ولو لم يكن فى المحطة غيرى ، فأصعد الدرجة الحديدية التى كنت أجدها عالية قليلا ، ويشير إلىّ خالى ناثان بوجهه الصغير الأسمر

المدوّر وعينيه الضيقتين الحانيتين اللتين يمتلىء الجلد حولهما بالتجاعيد عندما يبتسم ، وأجلس بجانبه على كرسى صغير ليس له ظهر . وكان هذا الحيّز الضيق بجانب الباب فى مقدمة السيارة الكبيرة ، دائما ، دافئاً بسخونة المحرّك وفيه رائحة بنزين ، وتسحرنى شارات منصّة القيادة المسطحة وعقاربها الصغيرة المضيئة بنور أحمر .

وفى أول سيدى بشر يقف لى خالى ، من غير محطة ، فأنزل ، وأعبر الكورنيش مرة أخرى ، متلفتا عن يمين وعن يسار ، وأذهب الى « لوكاندة رانة » حيث ينزل بقطر ابن عمتى ، كل سنة . وحتى بعد أن أجّر أخوه ، رفلة افندى ، كابينة فى المندرة قريبة جدا من مصيف أصدقاء الكتاب المقدس ، استمر بقطر ابن عمتى ينزل فى هذه اللوكاندة . ولم تكن أمهما عمتى تماما ، بل بنت عم أبى ، وكانا يناديان أبى ياخال، ويقولان لأمى يامرة خالى، وكانت هذه القرابة تحيرنى وتغوينى .

وكان بقطر ابن عمتى يأتى من إخميم يقضى شهر سبتمبر كل سنة فى سيدى بشر ، بعد جمع محصول البصل وتشوينه ، وكان فى عنفوانه ، لم يتزوج بعد ، وطوالا فارعا ، داكن السمرة فى وجهه المستقيم الخطوط وسامة رجولية كاملة ، وله ضحكة بصوت أجش متملك .

وعندما أدخل من باب اللوكاندة أحس على الفور بنَفْح البلل والعتمة الهادئة بعد نور البحر الصافى . الأرض المبلطة ، من غير سجاد ، رطبة وعليها ماء قليل ، وفى المدخل كله رائحة عامة وحميمة فى الوقت نفسه . وكانت صاحبة اللوكاندة ، مدورة الوجه ، رائقة السمرة ، ممتلئة قليلا ، تجلس وراء المنصة الدائرية فى المدخل ، وعندما ترانى أدخل ترحب بى بصوت ناعم أحسه يدغدغ فىّ اهتزازا داخليا ، أهلا ياغَنّنْ ياحبيبى ، تعالَ ، تعالَ عندى هِىّ الرجالة برضو

ينكسفوا ، وتعزم عليّ بالشيكولاته ، دائما ، كل مرة ، فأرفض ، وأتأبّى ، دائما ، كل مرة حتى تعرينى بأن آخذها ، بصوتها هذا الدسم الكسول ، وهى تجذبنى قليلا إليها ، وتضع ذراعها الرخصة العارية على كتفى وتضمنى ، قليلا ، إليها ، وتنظر إلىّ ، من فوق ، بعينيها الواسعتين اللتين تهتز خضرتهما الداكنة وتسيل بحنو أنثوى يملأ قلبى ، ثم تقول فجأة : اطلع بقى قريبك مستنيك فوق ، واللا عايزنا نطلعوا معاك ؟ فأهز رأسى وأجرى أصعد السلالم إلى غرفة بقطر ابن عمتى فى الدور الثالث .

وعندما أطرق باب غرفته ، وأدخل دون أن انتظر الاذن، أجده ينتظرنى ، عادة ، وقد لبس المايوه الفانلة الطويل الذى يشبه مايوه أبى ، بحمالات عريضة وفتحة عالية تصل الى تحت الرقبة بقليل ، فيضع البرنس المخطط على كتفيه ، ويأخذ فوطة معه وننزل معا ، وعندما نعبر الردهة ، أمام صاحبة اللوكاندة ، كان وجهه فيه ، دائما ، نظرة غائبة متحفظة ، وكانت هى لا تنظر إلىّ ولا تحييني .

ويمسك بيدى لنعبر الكورنيش ، وننزل السلالم القليلة ، ونسير حتى البقعة الفسيحة عند شاطىء الطاحونة ، أخلع الشورت والقميص وأرميهما ، مع الفوطة والبرنس على الرمل ، وألعب عند حافة البحر حتى يصل الماء الى أعلى صدرى ولا أدخل كثيرا ، وكان ابن عمتى بقطر هو الوحيد الذى أحس الأمان معه فى البحر ، كان يسبح إلى الداخل ثم يعود إلىّ، يتوغل فى البحر من جديد ويعود. وكنت ألعب وحدى ، بينما هو فى البحر ، على الرمل المبلل الذى يخبطه الموج وينحسر عنه ، أصنع قوالب من الرمل الطرى المتماسك ، مصنوعة فى علبة كبريت فارغة ، وأحفر حفرة ضيقة أجهد فى تعميقها حتى يملأها الماء. يخرج أخيرا ، شاخ الطول ، يسيل الماء على جسمه ، فيتلفف بالبرنس وأجفف نفسى بفوطته السميكة التى سخنت الآن ، وألبس . ويذهب هو الى اللوكاندة أما أنا فأسير الى المحطة ، حتى يأتى أوتوبيس خالى ناثان ، فأعود معه وأنا خفيف الخطو متوهج

الجسم من الشمس والبحر واللعب فى الماء والرمل .

وفى مرة تأخرت . عندما دخلت اللوكاندة فزعت فزعا غامضا ، لاننى لم أجدها فى الردهة ، وراء المنصة . واندفعت ، كأننى مروع ، إلى غرفة بقطر ابن عمتى ، وفتحتها على الفور ، فوجدتها أمامى ، وهى تعتدل واقفة جنب السرير المهوشِ الفَرش ، وتزرر الزرار العلوى من الروب الخفيف الذى يترك ذراعيها المليئتين عاريتين متفجرتين بالبضاضة ، وهى تسويه على فخذيها السمراواين المتجسدتين وراءه ، فحدست أنها تلبسه على اللحم ، وكان ثدياها بدورانهما المكتنز يهتزان تحت النسيج اللدن ، والجزء الذى يبدو من الفتحة الواسعة يلتمع بالعرق ، وشعرها الخشن مهوش قليلا ومندى على جبينها ، وضحكتْ وأنا اندفع داخلاً ثم أتجمد مرة واحدة ، ضحكة خافتة ، وكان صوتها ناعما وليس فيه أدنى حرج وهى تقول : « يوه .. هو انت ؟ يقطعنى وانت داخل كده زى الساروخ.. طَبْ تعالَ ، تعالَ هنا ياحبيبى». وأدخلت يدها فى جيب الروب وبحثت قليلا ثم قالت : « أهى .. الشيكولاته بتاعتك .. خد .. » ولكننى رفضت تماما ، هذه المرة ، وأطرقت برأسى فى عناد ، ففهمتْ ، ولم تصرّ ، ولم تضحك . قاومتُ البكاء ، بشجاعة ، وهى تجذبنى من يدى ، وتجلسنى جنبها على السرير ، وأطعتها ، وأحسست لحمها الحار من وراء الروب المشقوق من الوسط تماما على صدرها ومنتصف بطنها وبين ساقيها ، ومزرر بأزرار مستديرة كبيرة من الصدف الأبيض الذى يومض . وكان جسمها باذخا ومبذولا ، وأحسست بغموض أنها تراهن به فى لعبة خطرة ، وخفت عليها ، ونشقت رائحتها الخفية ، وكان وجهى يضطرم ، ولم أبكِ بل كنت غاضبا . أما بقطر ابن عمتى فقد كان نصف راقد نصف جالس على السرير ، بالجلابية البوبلين البيضاء الناصعة ياقتها الصلبة الدائرية مفتوحة على صدره العريض ، ونظر إلىَّ بابتسام نظرة هادئة ، كأنها متواطئة وتأخذ الفهم بين الرجال مأخذ المسلم به الطبيعى ، وقال لى بصوته الأجش قليلا . « بوه يابن خالى .. عوّجت لغاية دلوجيتى جُلنا ما

جاييش عاذ . مالك داخل كربان ومزَعْول ؟ أجعد أجعد خُد نفسك لما ألبس » . وقال للسيدة التى معه بلهجة من لا يريد أن يخفى شيئا ، وبصوت فيه بساطة التملك ونهائيته : « ناولينى الكوستيم من الدولاب » ، فأعطته له ودخل الحمام يغير ملابسه ، وجاء وشيش البحر ، فجأة ، فى الصمت الذى حلّ فى الغرفة ، مع أصوات عجلات السيارات تكشط الأسفلت ، وترنم بائع المنجه ، يتغنى : معايا تيمور .. هندى .. ألفونس ، واحتكاك عجلات الترام بالقضبان فى المحطة القريبة .

ما زلت أرى الولد يذهب إلى فراشه غير المألوف فى كابينة المندرة ، مرتبة مفرودة على الأرض ومغطاة بملاءة سرير ، ويغوص تحت الكِبرتاية القطنية البيضاء المشغولة بنقوش أزهار ،وأوراق مطبوعة من نفس القماش ونفس اللون ، بارزة وغائرة فيه ، تعطيه دغدغة مترفة للجسم ، وأعرف معه فرحه المنقضى بيومه على البحر ، وترسبات اليوم فى قلبه ، وخوفه من مفازع الليل وأحلامه المضطربة .

هل كان خاله ناثان أم خاله يونان هو الذى كان قد حكى عن صدق باشا والعمال فى عنابر السكة الحديد ؟ أم هو الذى كان قد قرأ عن الحكاية عندما دخل تحت سرير خاله يونان وزوجة خاله إستر التى كان يحبها ، فى بيتهم فى غيط العنب ، وكان السرير عاليا وفرشه جديد وعليه ملاءة من الساتان الأخضر تتدلى على أطرافه ، وكان هو يحب أن يغوص هناك فى العتمة الخفيفة بنور أخضر فاتح يشم رائحة الورق والتراب وبقية متطايرة من عطر نسائى يعرفه عند امرأة خاله إستر ، ويقلب فى الصحف والمجلات القديمة المرصوصة تحت السرير ، الأهرام والبلاغ ومصر والصرخة والجهاد ، ويقضى ساعات فى عزلة عن صخب البيت وأصواته واحتشاده .

ورأى أنه فى محطة باب الحديد الخالية تماما فى الليل ، والأرصفة القوية

العالية تمتد عريضة وليس عليها أحد وليس عليها قطارات ، والسقف الزجاجى بعيد جدا فوقه وتنعكس عليه ، من تحت ، أنوار الأعمدة الطويلة . ورأى أن القطارات واقفة فى خارج المحطة ، متراصة صفوفا فى ظلام الساحة المغطاة بالقضبان المتعرجة ، متربصة ، صدور القاطرات أقراص سوداء كاملة الاستدارة منبعجة قليلا إلى الأمام وكأنها تهم بأن تنبعث فجأة من جمودها ، بالحياة والبخار والهجوم ، لتدخل المحطة ، فى أية لحظة الآن ، تداهم ، وتسحق كل ما أمامها . ورأى نفسه معهم فى الجانب الآخر من المحطة ، المفتوح على شبكة القضبان الواسعة ، وكانوا كثيرين جدا ، متزاحمين بالأكتاف والرؤوس ، ولمح فى وسط الوجوه المتعاقبة التى تظهر وتختفى فى عتمة الليل الصافية وجوه بقطر ابن عمته ورفله افندى وخاله ناثان وخاله يونان وخاله سوريال وجده ساويرس ، ولم يدهش عندما رأى بينهم أخته عايدة التى تصغره بسنتين تحمل أخته لويزة الصغيرة على ذراعيها فى وسط زحمة سواق القطارات والعطشجية وعمال الصيانة والكمسارية ببدلهم الصفراء الداكنة وفى أيديهم عصى حديدية رفيعة طويلة ، وعدد قَطّع التذاكر المعدنية ومقراض التذاكر البشع الشكل ، وهم يتحركون ببطء ، محتشدين تحت السماء المفتوحة ، ورأى بينهم ، لحظة واحدة ثم اختفت ، رانة صاحبة اللوكاندة ، وخيل إليه فى لمحة واحدة أنها ترتدى المايوه القماش الأزرق المكشكش الأكمام عند أعلى ذراعيها ، ولكنه رآها عارية تماما ، وثدياها قائمان مكوران بكبرياء ونعومة مستديرة مليئة ، وساقاها السمراوان تلمعان بندى عرق خفيف ، وكان يعرف أنها لا يمكنَ أن تكون هناك ، وأنها ماتت ، بغموض وفى قلب شيءٍ ما قابض ولكنه لم يصدق ذلك ، وأحس لها الولد بخجل مكتوم معتصر اكتسحه ثم مضى كأنه لم يوجد ، ثم ضاعت منه وسط زحام حشد الناس وكأنه لم يرها قط ، وكان يعرف أنها ليست هناك . وكان الناس يازحون بأيديهم وأذرعهم ويفتحون أفواههم صارخين من غير صوت وكان معهم ، يحس أن موجهم يحمله ويرتمى به برفق ، يصعد به ويهبط بنعومة من غير صدمة . ووجد أن الأرصفة قد امتلأت بجنود بُلوك النظام بالشورت الكاكى والياى الداكن تلتف شرائطه حول

سيقانهم ، على صدورهم أحزمة جلدية عريضة متقاطعة وعلى طرابيشهم أغطية قماش صفراء لها ياقة متدلية على مؤخرة رؤوسهم ، وفى أيديهم خراطيم الماء القوية ، تتلوى ، حراشيفها الجلدية شريرة ، كثيفة الأضلاع . وتزحف الخراطيم على الأرصفة ، من تلقائها ، ثم تنتصب بفوهاتها الحديدية المسددة اليهم ، وتندفع منها أعمدة الماء المغلى يفور وله وشيش وبخار أبيض يتطاير فى دوائر كثيفة تدور وتصعد من فوق انصباب الماء المرغّى .

وعلى صرخة يقظته المروعة جاءت أمه حافية ، تجرى إليه ، من على السرير العالى فى الجانب الآخر من الكابينة .

نزل أبى الى شغْلِه فى شارع انسطاسى فى مينا البصل ، وقالت لى أمى إننا سنتغدى يومها فى كابينة رفله أفندى .

وعلى العكس من ابن عمتى بقطر كان أخوه رفله افندى مدور الوجه أبيض البشرة وناعما قليلا ، وكانت له عينان جاحظتان شيئا ما ، تتألقان بالمرح ، وسريع النكتة متدفقا بالكلام وله شارب مشذب ينزل من تحت أنفه بين خطين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذى تظهر صوره فى اللطائف المصورة .

وقضى رفله افندى سنوات طويلة مدرسا للجبر والهندسة فى المرقسية الثانوية وكان أعزب وله شقة فى محرم بك . وكان يعزف على العود . وعندما كان يزورنا على العشاء فى بيتنا فى غيط العنب كنت أسهر معهم على المائدة الطويلة الحافلة ، قرصها الرخامى البنى المجزّع مغطى بمفرش أبيض سميك ومكوى ومحمل بالأطايب التى كانت أمى تعدها ، تذبح بطة أو وزة وتصنع الكسكسى الذى نأكله بالمرق ، وتطبخ ملوخية ، وطاجن أرز معمر ، بالحمام ، والرقاق الهش الذى تسقسقه بالسمن البلدى وتحمره فى الفرن ، رقائقه الناعمه المحم[illegible]ة من فوق

واللدنة اللحمية من تحت لها طعم لأنساه، وتكون ليلتها كأنها ليلة عيد، يأكلون ويشربون ويحكون حكايات كثيرة وشائقة جدا ، وأمى تعزم عليه بالطعام ، دون توقف : خد دى من إيدى وحياة خالك ، ما تكسفش إيدى أمّال ،فيرد: تِسْلم إيدك يامرة خالى ، يابوى ، لا يمكن ، وحياة المسيح ، وبعد قليل تخلع نسيرة وافرة من البطة وتعزم من جديد : تُجبرنى ما أنت واخد دى ، هو انت كلت حاجة ؟ فيقول وهو يرد يدها برفق : جَبر ياخد العِدا يامرة خالى والله ما اجْدَر ،

وينتهى بأن يأخذها ، وهكذا طول العشاء ، وكانت لهجته اسكندرانية وفيها نغمة صعيدية خفيفة ومرحة ، وكان رفله افندى يأتى لى كل مرة بعلب التوفى المدورة المرسوم عليها صور أبراج وكبارى ملونة عرفت فيما بعد أنها صورة برج لندن، أو برطمان كراملله نادلر المربع، بزجاجه الشفاف السميك وفوّهته الدائرية الواسعة. وأظل معهم من الفرح بالسهر والحكايات والأكل والكونياك حتى أقع فى النوم وأنا لا أريد الذهاب الى السرير ، ولا أذكر فى اليوم التالى متى ولا كيف نمت .

وكانت كبائن المندرة أيامها تقع على مرتفعات صغيرة متراوحة من الرمل أمام الكورنيش ، متناثرة ومتباعدة من غير نظام وبينها مساحات عذراء فيها نخل ، والكباين على أشكال جميلة وغريبة ومتعددة جدرانها الخشبية تنتهى بأبراج صغيرة جدا وأنيقة من الخشب أيضا على الأركان الاربعة ، ونوافذها الصغيرة لها زجاج ملون ومنمنم من ألواح دقيقة ناعمة أو محببة زرقاء ناصعة وحمراء منقدة وخضراء يانعة وصفراء مُزهرة ، ويصعد المرء إليها على سلالم خشبية أيضا ، وللكباين الكبيرة شرفات مكشوفة تحيط بها أعمدة متتالية رشيقة، وتتأرجح تحت القدمين .

وكانت كابينة رفله أفندى تطل على الكورنيش مباشرة ، من على ربوة رملية صغيرة الارتفاع ، منبسطة . هل كنا قد تغدينا عنده بالفعل ، ونزلت أمى الى

البحر فى آخر العصر بعد أن خلا الشاطىء تماما ، وعادت وذهبت الى الغرفة الداخلية الوحيدة لتسرح شعرها وتلبس ؟ أم كانت ما تزال فى البحر ، بعد أن خرج منه الناس ، وأوشك النور أن يذهب ، تأخذ ، وحدها فى الماء ، حمام الغروب ؟

كان رفله افندى يجلس على كرسى خيرزان ، بالقميص والبنطلون ، وهو منحن بصدره على العود المستندالى الى بطنه المنبعج قليلا ، يده البيضاء المرفهة الأصابع تهتز بالريشة على الأوتار هزات خفيفة موقّعة، وأنا أمامه أجلس على كرسى خشبى مدور من غير ظهر ، وأرى أرضيه الكابينة الخشبية عليها آثار أقدام مبلولة لأنها أكثر دكنة من لون الخشب حولها ، وكان يدندن : الليل لما خلى .. والساهر .. الباكى ... وفى صوته وعزفه شجن ، وعيناه غائبتان .

كان قرص الشمس أحمر ، كبيرا ، أراه ينزل بسرعة ، كأن الشمس الحقيقية البيضاء الملتهبة قد غابت من زمان ، وهذا انعكاسها المتقد ، وهميا ، يغوص فى البحر وسط سحاب متقطع مشتعل الأذيال بنار داكنة ، ومجد الغروب ينطفىء قليلا قليلا ، وتهب علىّ أنفاسُ وحشةٍ باردة ، كأنه آخر مغيب فى آخر يوم ، الشمس تركت العالم ولن تعود ، ونحن ندخل ليلة القيامة الأخيرة .

وفى الكابينة المفتوحة دفء من سخونة خشبها الذى صهدته الشمس طول النهار . عتمة المغيب ، وإيقاعات العود لها رنين شجى ومجوف ومتلاحق الرعشات ، وقد صَمت رفله افندى واستغرق فى العزف ، انحنى برأسه الى جانب يصغى الى شكاة الأوتار المرتعدة بصدمات موسيقى رتيبة ، ملحة ، لها صدى فى حيز الكابينة الخشبى الضيق .

كنت أحس نفسى وحيدا جدا ، وهواء البحر يأتى على وجهى حارا ثم رطبا

على التعاقب ، مرة بعد مرة ، ومحملا برائحة الماء المِلحيّة وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش ، معا مرة واحدة ، بقعا مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذى ما زال فى طرفه احتراق الغروب ، يسود ،بالتدريج، ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهور السيارات اللامعة التي تمرق بصمت وسرعة ، متباعدة وقليلة ، لتختفى فى انعطاف الطريق ، عند الكازينو البعيد .

وأمام الكابينة مباشرة التفتُّ فجأة فرأيت جسمها يدور تحت عجلات السيارة ، أمامى ، ناعما ولدنا بدون مقاومة ، فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة ، والذراعان تهتزان ، والجسم يلتف مع العجلات ، مرة ومرتين .

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامى نفسها .
وسمعت صرخة ثاقبة فى سكون الغروب .

انخلع قلبى برعب خاطف ، هل هذه أمى تحت العجلات ؟ كانت آتية إلينا من البحر واصطدمت بها السيارة ؟ كان الروع فى قلبى ساطعا ، لحظة واحدة . الغياب النهائى . الفقدان الكامل .

خرجت أمى من الغرفة الداخلية ، هادئة ، شعرها القصير مسرح وما زال مبلولا قليلا على وجهها الذى يشع فى عتمة الكابينة ، أبيض .

وأحسست ساق ترتعدان ، خاويتين .

لم اتحرك . ولم أقل كلمة واحدة .
كانت الكابينة صامتة تماما ، والعود وحده على الكرسى الخيرزان .

رأيت السيارة تبطىء ، بعد أن مرت على الفتاة المرمية على الأسفلت ، ساقاها الضامرتان مكشوفتان للهواء ، هامدتان ، ملويتان إلى جانبها فى وضع لا يصدق.ورأيت ، من بعيد شعرها مفروشا على أرض الشارع ، تحت النور ، هب الهواء فارتفعت خصلة منه ، تهتز .

وكان الناس يجرون اليها ، وأدركت أن رفله افندى قد انطلق الى مكان الحادث ووقفت أمى على الباب ، صامتة ، مفتوحة العينين .

لم يتزوج رفلة افندى إلا عندما كبر جدا ، ونقل مفتشاً ثم ناظراً فى سوهاج الثانوية بعد أن أخذت الابتدائية بسنتين ، ولم يخلف ، ومات بعد أن حصلت على البكالوريوس ، وكنت عندئذ فى معتقل الطور ، وحرب ١٩٤٨ قد انتهت بضياع فلسطين ، وكأنما كتمت مشاعر غامضة كثيرة ، فلم أفكر فيه .

فى ذلك الصباح انتظرت خالى ناثان كالمعتاد ، ولكنه عندما وقف بالأوتوبيس ، نظر إلىّ من فوق مقعده نظرةً غريبة ونهض ، على غير عادته ، وجاء إلى الباب قبل أن أصعد وقال لى : بلاش النهارده . خليك .. العب هنا أحسن . وأحسست توجسا وقلقاً مستأثرا فلم أرد عليه ، وفعلت مالا أفعل إلا نادرا ، صعدت بصمت وتصميم ، وجلست على مقعدى الصغير .

وفهم خالى ناثان أننى فى نوبة من نوبات عنادى التى لا يفلح معى فيها شىء ، لا أمر ولا رجاء ولا تهديد ولا محايلة ، وعاد الى مقعده وخيّل إلىّ أن التجاعيد حول عينيه الصغيرتين قد عمقت وازدادت .

وعندما اقتربنا من اللوكاندة قال لى : « طب بلاش تنزل ، أليفّ ، وترجع معاى ، أَخدْك لغاية المنتزه ، ونروح الكازينو بعد الضُهر ، ولم يقف ، لكننى فى

المحطة التالية كنت على الباب بالفعل ، وقفزت إلى الشارع مع الناس ، وجريت راجعا ، وعبرت الكورنيش دون انتظار من بين السيارات المسرعة التى ارتفع نفيرها الموحش وخَفَت فى أذنى ، وأنا أمرق من بينها .

كان يقف على مقربة من الباب جمع صغير من البوابين والمكوجية والبياعين والفضوليين القلائل ، يتهامسون ويتحدثون بصوت خفيض ، وسمعتهم يقولون وأنا أشق طريقى بجانبهم على الرصيف : إمتى ؟ حدّ عرف مين ؟ بيقولو على وش الفجر .. خسارة .. والله ست فنجرية وبنت حلال .. ما هى كانت برضو .. ألله يرحمها بقى .. ما احنا بكره هنعرفوا .. مِسير المستخبى يبان .. ربنا على الظالم ياجدع .. وكان على باب اللوكاندة عسكرى فى بدلته البيضاء غير المكوية وطربوشه ، وفى يده بندقية ومعه مخبر ، بالبالطو الميرى والجلابية والعصا الخيرزان قال لى بخشونة : رايح فين ياولد ؟ فأزحته بيدى ، بقوة لم أكن أعرف أنها عندى ، دون أن أرد ولا أنظر اليه ، فلا شك أن ما رآه فى وجهى جعله يسكت ولا يفعل شيئا .

صعدت السلالم جريا ، وفى الدور الثالث رأيت بابا مفتوحا بالقرب من غرفة ابن عمتى بقطر ، وعرفت أنه باب غرفتها ، واندفعت اليه ، ورأيت ضابطا بنجمة وتاج يقف فى الغرفة مع اثنين مخبرين ، وكانت الغرفة مزدحمة بهم ، وكان ابن عمتى بقطر يقف معه ، مهيب الطول صارم الوجه ، أنيقا فى البالطو الصعيدى الجبردين الخفيف على جلابية سكروته ، ناصعة تنزل حتى حذائه البنى اللامع كالمرآة ، وطربوشه محكم ومضبوط تماما على رأسه ، وأحسست أنه يتفجر ، فى هذه اللحظة بالذات ، بشباب عارم مكتوم .

وعندما اندفعت إلى الداخل من بينهم جميعا ، وقبل أن يمسكنى أحد ، رأيتها على السرير . كانت مغطاة بملاءة بيضاء ، عليها بقع [illegible] ، داكنة ، ترشح

ببطء وتتسع فى مواقع مختلفة عند الصدر والبطن ، ورأسها ملقى الى الوراء من غير مخدة ، سمرة وجهها شاحبة ولكن عينيها الواسعتين ، تحت الجفنين المدورين ، مفتوحتان ، اخضرارهما الآن ثابت لا يتموج ، وكانت تنظر إلىّ .

أخذنى ابن عمتى بقطر ، من يدى ، ببطء ودون تعجل وقال لى : تعالَ معاى دلوجيتى ياوِد خالى . تعالى . ما عادش فيه فايدة من الوجفة دى ياخال . وكانت أول مرة ينادينى كما ينادى أبى ، وكما يتحدث الرجل الى الرجل . واهتز صوته الراسخ العميق قليلا . ولم أبكِ ، يومها ، أيضا .

واستمر بقطر ابن عمتى يأتى الى « لوكاندة رانة » كل مصيف ، لم يغير عادته ، واحتفظ باعتدال قامته الشامخة ، وصرامة وجهه ، وشباب نظرته الثاقبة ، بعد أن تزوج من الصعيد وخلّف . ومات بعد أخيه رفله افندى بقليل ، وكنت قد انتقلت من معتقل الطور الى معتقل أبو قير ، مرة أخرى ، ولم أعرف إلا بعد أن خرجت وحزنت عليه حزنا صامتا طويلا ، وكنت أمر ، أيامها ، بغمرات حب ظننت أنه ميئوس منه ، وكنت يائساً من العالم .

وكنت أذهب ، فى مضض هذا الحب الذى لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهى ، إلىّ كازينو كليوباترا ، وأقضى ساعات بعد الظهر المبكر أنظر الى البحر ، وأحلم أحلاما مضطربة ، أحاول أن اقرأ رواية ، أو انتظر صديقا قبل ميعاده بكثير ، أو أقرر ، خلال ساعات ، هل أذهب إلى سينما ، أى سينما ، أم الى قهوة الفريسكادور أو باستوريدس فى شارع سعد زغلول ، أو سان جيوفانى فى ستانلى ، لمجرد أننى لا أطيق البقاء بين أربعة حيطان وحدى .

كنا فى أواخر سبتمبر ، وشمس بعد الظهر تصنع على صفحة البحر ، تحتى ، ملايين النقط اللامعة التى تبرق وتختفى وتعشى عينىّ ، وزرقة الماء تحتها

عميقة وداكنة وكثيفة الشفافية فى الوقت نفسه ، فأمد بصرى من نافذة الكازينو العالية المفتوحة إلى الأفق الغامض فى اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء ، عندما رأيتها .

كانت تسبح تحت النافذة ، بالمايوه الأزرق الفاتح ، محبوكاً عليها ، لامعاً تحت سيولة الموج الخفيف الذى يترقرق عليه وينحسر فى حركتها الناعمة ، ذراعاها لا تكادان تصنعان رغوة فى انزلاقها المنساب على الماء . وعرفتها .رانة، التى كنت نسيت كل شىء عنها . جسمها فاتح السمرة وغض ولما يكد يكتنز بأنوثته التى تتفتح وتزدهر ، فى أول امتلائها الباكر ، ولكنها أصغر سناً بكثير ، فتاة بعد ، ولها رشاقة سمكة فى الماء .

خفق قلبى ، وتوقف . من هى ؟ هل هى أخت لها ، صغيرة ، لم أرها من قبل ؟ كنت موقنا أنها هى ، هى . أم هى الأخرى التى سوف أعشقها ، وأفقدها . تعلقت عيناى بها ، مسحورا وغائبا ، وعندما انقلبت على ظهرها ، تطفو فوق الماء ، رأيت وجهها المدور الخمرى ، مغمض العينين تحت الشمس ، طافيا إلىّ ، وكان شعرها الخشن الوحف قصيراً حول رأسها ، مبلولًا وداكن السواد ، أعرف حرافة عبقه المسكر ، وخداها الأسيلان يومضان فى استدارة رخيمة كاملة تحت الماء ، وهى تبتعد ، ساقاها ، فى بضاضتهما المخروطة العبلة ، لا تكادان تتحركان ، وذراعاها تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة إيقاعها هادىء ، وهى تبتعد . وعرفت أننى سأحبها ، فى آخر العمر ، حباً كأنه الموت ، وأن قلبى هو ساحة بحرها اللجىّ الجياش أبداً بأمواج لا هدوء لها .

٤

فُلْك طافٍ على طُوفان الجسد

أنزل للمدرسة فى الثامنة إلا عشر دقائق ، على الساعة .

ساعة الحائط معلقة جنب الباب . البندول النحاسى الطويل ينتهى بقرص مدوّر ، ملىء ، صفرته وهّاجة ومُغوية ، يتأرجح ، ذاهباً آتياً بإصرارٍ كأن فيه نَزَقاً وخفّة ، فى بطن الصندوق الخشبى المستطيل ، بجسمه البُنّى الداكن اللامع الدسامة ، على حوافّه الأربعة كورنيش مشغول بتفريعات ناعمة اللَّفْلفَة ، بضّة الخشب ، تدور على بعضها البعض متداخلة ومتنزّية ومتقلبة ، وعلى الحافة العلوية تموّجٌ مقبّب يقف عليه فارس خشبى رقيق النحت ، له خوذة ينزل من تحتها شعره الطويل المنمنم المتجعّدُ الخُصَل ، وله لحية مخروطة ، وعباءته يتطاير بها الهواء المحبوس ، وهو يشبّ على حصانه الصافن الذى يرفع إحدى ساقيه الأُماميتين ، مثنيّة برشاقةٍ ثابتة ، طرف الحافر المنصوب لايكاد يمس الأرض .

فطورى ، دائما ، تَسْقِيّة بالشاى واللبن ، فقط . تفتّ أمى وجه الخبز الناشف الرقيق ، فقد كنت لاأحب بطن الرغيف الخشن المحبّب بالردة ، وتُغرقه

بالشاى واللبن حتى يتشربه ، ويلين ، ولكنه لايتعجّن ، فآكله بالملعقة الفضية الخاصة بى وحدى ، عليها نقش تاج صغير واسم لاأنساه : محمد محمود غالى وأولاده ، بالخط النسخ الدقيق التدوير وقد إسودّ وسط لمعان الفضة الثقيلة ، أرفع بها الخبز المسقىّ بالشاى واللبن فأجده سائغ السخونة ، سهل البلع وأنا لاأرفع عينى عن الساعة ، والعقرب الطويل يقفز من علامةٍ الى علامة ، كل دقيقة ، حتى يصل الى الخط الذى أعرف عنده أننى يجب أن أترك كل شىء ، وأخطف كتبى من على رخامة البُوريه ، وأجرى .

كل يوم أحد ، قبل أن نذهب للكنيسة ، أترجّى أمى أن تتركنى أملأ الساعة . آخذ مفتاحها الذى له تجويف دائرى دقيق فى ساقه ، من مكانه على أرضية الصندوق الداخلية أحسّ الغبار الدقيق عليها بأصابعى ، وأطلع على كرسى خيزران ، وأولج خُرم المفتاح الطويل فيلفّ بإحكامٍ وثيق حول سنٍ كالإبرة تبرز من فجوةٍ دائرية فى منتصف وجه الساعة بمينائه البيضاء الساطعة ، وأدير المفتاح وأنا أمسك برأسه المفلطح ذى الورقتين النحاسيتّين الدقيقتين بين الإبهام والسبابة ، فتصرُّ التروس الداخلية ، بمتعة ، وهى تمتلىء ، وتكتسبُ الدقاتِ المنتظمة الواضحة ، أقوى صوتاً وأكثر تجسّدا . وكانت تدقّ ، كل ساعة ، بصلصلةِ النواقيس .

تركنا البيت الذى فى شارع ١٢ أمام وابور الدقيق ، بالقرب من الكركون ، عندما دخلت مدرسة النيل الابتدائية من أربع سنين ، وانتقلنا الى بيت شارع الكروم أمام الاصطبل ، قريباً من ترعة المحمودية ، مخصوص لأن المدرسة كانت فى الشارع نفسه ، أصل اليها بعد خمس دقائق مشيا ، أو جرياً فى دقيقتين ، أعبر تقاطع شارع سيدى كريّم ، ثم شارع الترامواى ، فأجد المدرسة على قمة الشارع التالى ، على طول .

للمدرسة سورٌ عال ، من الحجر ، على شارع الكروم ، لايفتح إلا على باب خشبى ثقيل يفضى مباشرة الى سلالم ضيقة ، معتمة ونظيفة جدا ، بين حائطين مُصْمَتَين ، لايدخل منه إلا الناظر والمدرّسون ، لم أصعد عليه ، ولم أعرف رهبته ، إلا مع أبى ، وهو يمسك بيدى ، عندما جاء ليقدّم لى فى المدرسة أول مرة ، من زمان ، وعندما ذهبت لآخذ الشهادة من مكتب الناظر فى آخر تلك السنة .

أما نحن فندخل من الباب الواسع الكبير على شارع المعارف ، من الناحية الثانية . يقف عليه عم ميساك البواب العجوز المشقق الوجه ، بشاربه المتهدّل وعمّته القماش الملفوفة على اللبدة الحائلة اللون ، هو الذى يفتحه ويغلقه ، ويقرر مصائرنا فى الدخول والخروج ، والحصص والفُسْحة ، إذ يضرب الجرس النحاسى الصدىء المعلّق جنب الباب ، على ساعته الفضية المكتنزة،المضبوطة بالثانية ، مربوطة ، فى جيب جلابيّته الجانبى العميق ، بكاتينة معقودة بالزرار العلوى فى صديريته التى يبدو قماشها اللامع ، ضيقاً حول صدره النحيل ، منَ فتحة الجلابيّة العلوية .

وللباب ضلفتان حديديتان مسدودتان ، بين قائمين من الحجر العريض ، ويفتح على مدخل مبلّط صغير تصعد منه سلالمُ عريضةٌ رخامية بيضاء لها ، من الجانبين ، درابزين حجرى ، كالبلكونات ، ويؤدى الى ردهة تقع الفصول على جانبيها . وعلى مستوى الدور الثانى يبرز من فوق السلالم ، ويُظللّها ، بناءُ المدرسة المرتفع ، المضلّع ، بالحجر القديم الكبير ، والزخارف الحجرية الطويلة ، وفيه النوافذ العالية الواسعة بضلفها الخشبية الثقيلة .

اندفعت جرياً من جنب عم ميساك إلى الحوش الصغير ، الى يمين السلالم الرخامية ، حيث كان يقف « الكبار » الذين يلبسون البنطلونات الطويلة والبدلة

الكاملة ، والطرابيش والكرافتات .

وقلت صباح الخير لغُرَيِّب عَلِي ، فرد عليّ وهو مستند بجنبه الى السور ، طربوشه مَعْوُوج على زاويةٍ أنيقة من جبهته ، وجاكتته مزررة ، فهى دائماً محبوكة عليه ، لايفتحها أبدا ، ووجهه طويل فيه نظرة حالمة شيئا ما ، مترفعة شيئا ما ، ورد عليّ أيضا حسن المردينى ، بخدّيْه المدورين وعينيه الدسمتين ، وسليمان بطرس ، الصعيدى الوسيم ، لونه بنى محروق .

لعل الكبار كانوا فى السادسة عشرة أو بعدها ، ونحن ، أوائل الفصل ، صغار فى السن عنهم ، فى العاشرة أو نحوها ، وكلنا شَيْطنة ، ولكننا كنّا ، بمعنى ما ، أنداداً لهم ، بميزة التفوق التى تجعلهم يحترموننا ، وتتيح لنا أن ننضم على قدم المساواة الى جماعتهم فى الحوش الصغير ، نتبادل السندوتشات، والتُوفّى، رأساً برأس ، حتى لو كانوا هم ــ كما هو واضح ــ أولاد عز واباؤهم أغنياء ، بينما كنّا على قدّ الحال ، مستورين ، ومازلنا نلبس الشورت والقميص المفتوح الرقبة والشراب القصير المتهدل على رقبة الجزمة . ولكن الطربوش كان إجباريا ، علينا نحن أيضا ، نلبسه فى الفصل وفى الفُسحة ، وفى الشارع .

ومع ذلك فقد كنا نعرف ، بغموض ، أننا لسنا أنداداً لهم ، تماما . كانوا كبارا ، وكانت لهم معرفة بأسرار الجسم التى تحدث للواحد عندما يكون كبيراً ، ولانملكها بعد . ولهذا ، وحده ، كنا نكنّ لهم إعجاباً خفيا ، واحتراماً من نوع خاص ، حتى لو كانوا فى آخر ترتيب الفصل . وكانت لهم مرات ، فى صباح الاثنين خصوصا ، يتحلقون معا ، الكبار وحدهم ، ويتحدثون بهمس منفعل ويتبادلون أسراراً لايسمحون لنا بأن نسمعها .

ضرب الجرس ، واندفعنا نجرى على السلالم الرخام ، ودخلنا حصة العَربى .

كانَ خليفة افندى يتكلم بلهجة فلّاحى قليلا ، ويُعطّش الجيم دائما ، وله شارب كث كشريط مستقيم الحواف تحت أنفه ، وعظم وجهه غائر وجافّ . وكنت فى أول صفّ ، وطلب منى خليفة أفندى أن أسمّع المحفوظات . كانت سورة الليل وسورة الضحى مقررتين علينا فى المحفوظات ، وكنت حسن الحفظ ، فتلوتهما ، واحدةً بعد الأخرى ، مسحوراً بالإيقاع والمعانى ، وحَلَّ فى الفصل كله سكونٌ تام وأنا ألقى الآيات المنغّمة القِصار ، وكان خليفة أفندى ينظر الىّ نظرة ثابتة عميقة ، حتى فرغت ، وفى الصمت سمعت همهمة خافتة غامضة من الفصول الأخرى ، والأنفاس كلّها معلقة ، حتى قال خليفة افندى فجأة : أللّه .. ! هذا إلقاء مثل سلاسل الذهب .. فتح الله عليك يابُنىّ فأحسست وجهى يتضرّج من الزهو والخجل . وسمعت لغطاً وضحكاً مكتوما فى آخر الفصل .

فى الفُسحة ذهبنا ، من يسار السلالم العريضة ، إلى الممر الضيق الذى يدور بمبنى المدرسة ، ويفتح على حوشٍ مسقوف بالخشب ، مبلّط ، فيه دِكَك طويلة وموائد خشبية عارية الخشب ، وكان هذا الحوش معتما قليلا ، ومُفرحا فى الوقت نفسه ، فقد كان مرتعاً للاستغماية والنطّ فوق الدكك وبين الموائد ، وتحت الحائط الذى تقوم أمامه حنفية نحاس نشرب منها بأيدينا ، تحتها بقعة غير منتظمة مبلولة وداكنة اللون دائما ، ولم يكن الكبار يأتون إليه .

كنت منحنياً على الحنفية ، أملأ يدىّ المتجاورتين المكوّرتين بالماء وأشرب بعطش بينما الماء ينسرب بسرعة من بين أصابعى ، عندما جاء جبره من خلفى ، بقامته الطويلة ووجهه الشمعىّ الأبيض ، وابتسامته التى أكرهها ، ومعه كمال المدكوك الجسم فى بنطلونه الطويل الضيق المحشوّ فيما بين ساقيه ، ومعهما رمزى ، قصيرا ، ومدور الجسم ، الشورت الذى يلبسه يكشف بإحكام عن فخذين ناعمتين بيضاوين ، وعيناه جاحظتان قليلا ، وسمعت جبره يقول بصوت يتعمّد أن أسمعه : ياعينى على سلاسل الدَهَب .. ياحلاوة الدَهب .. وضحك رمزى

ضحكة كسولاً ورفيعة ، كالبنات وقال كمال بصوت خشن : إيوه ياسيدى .. !
اعتدلتُ وأنا أرتجف من الغيظ ، وتمنيت لو كنت كبيراً فأحطّم لهم وجوههم بقبضتى كما كان يفعل روكامبول وأرسين لوبين ، ولكن حسن المردينى ، على غير عادته ، كان يقترب متمهّلا ، ومعه غُريّب عَلى ، وأنطون زخارى . سكت جبره وكمال فجأة ، واستدارا ، وابتعدا وهما يمسكان بيدىْ رمزى ، كلٌّ من ناحية .

فى فسحة بعد الظهر كنت فى الحوش الكبير المفتوح الذى يحدّه السور من ناحية ، وحيطان البيوت العالية من ناحية ، بنوافذها المواربة التى لاتفتح أبدا ، وظَهْر مبنى المدرسة من ناحية ثالثة ، وينتهى إليه الحوش المبلّط المسقوف من آخر جوانبه . كانت الشمس تنصبّ عليه فيدفأ جداً فى الشتاء ويتّقد حرارة فى الصيف ، وأرضه قد اسودّ رملها قليلاً بتراب ناعم تثور منه سحابات صغيرة تحت أرجلنا من الجرى واللعب والصياح الذى لايهدأ أثناء الفُسحة الكبيرة ، وكان من لُعَبنا الأثيرة أن يخلع أحدنا حذاءه ويمسك به ، حرصاً عليه مهما كانت الصداقة ، ويقف بالشراب على أكتاف اثنين معا ، ويطلّ برأسه ، بالكاد ، من فوق السور ، ويُنادى على المارة أو البيّاعين القلائل الذين يمرون فى شارع الكروم ، ولايحصل على هذه الميزة إلا من كسب فى لعب البِلْى ، أو صلّح ، أو مانبتكره من ألعاب .

جاء جبره ، وكمال ، ورمزى ، ثلاثتهم ، إلىّ وأنا فى الحوش الكبير ، وطلب منى جبره بصوتٍ كله رجاء ، واعتذار ، ومصالحة ، أن أشرح لهم معانى المحفوظات وإعرابها ، فتصالحنا ، ولكننى كنت دائما أُحس معهم بالقلق ، وكُرْهٍ ملتبس ، وأن مابينهم يدور فى خفاءٍ جسدىّ غير مفهوم ، جذّاب ومنفّر معا .

قال لى جبره إنهم سوف يذهبون بعد المدرسة إلى بيت رمزى فى آخر

شارع ١٢ ، جنب شركة الغزل ، وإن رمزى عندهم مجموعة مجلات كل شىء والدنيا والكواكب ، فى غرفة على سطح بيتهم ، وسوف يقنعه بأن يسلّفها لى لأقرأها فى إجازة نصف السنة . وكان جابر يسمع الكلام ، فجاء إلىّ فى آخر حصة ، وكنا قد حفرنا أسماءنا على خشب الأدراج ، وأخرجنا المحابر الخزفية البيضاء من فوهاتها الغائرة ووضعناها فوق بعضها البعض ، رصّاتٍ رصّات ، على مائدة المدرّسين ، وطيّرنا دبابير من الورق فى سماء الفصل ، وكتبنا بالطباشير الأحمر على زجاج النوافذ « تحيا الاجازة » ، وقال لى جابر بغموض : خلّ بالك لما تروح مع الولاد دول عند رمزى ، خلّ بالك ، وكنت فرحا بالاجازة الطويلة ومتوثباً بالعفرتة والفرح فلم أهتمّ بما قال .

خرجنا مبكّرين فى هذا اليوم الأخير قبل إجازة نصف السنة ، وكان عندى وقت قبل ميعاد العودة التى كانت أمى تحاسبنى عليها ، بالدقيقة ، على الساعة . وذهبت مع جبره وكمال الذى وضع ذراعه على كتفى وهو يقول إن خليفة افندى وسامى افندى ، ضابط المدرسة الشاب ، أصحاب وينامون معا فى بيته بالليل ، خطوتُ الى جنب ، بعنف ، وابتعدتُ عنه ، وقطعنا شارع ١٢ حتى آخره ، وصعدنا السلالم النظيفة المعتمة ، وعبرنا الأبواب المغلقة الصامتة ، حتى السطح . وقال جبره إن رمزى سيأتى حالاً من تحت ، ودخلنا غرفة ، على السطح ، خالية ، لها ثلاثة جدران فقط من الحجر الخشن العارى ، وفيها شباك واحد عالٍ منقور فى الحائط ليس له ضلفة ، وفى وسطها ، أمام لوح الخشب الكبير المفتوح الذى يحل محل الحائط الرابع ، عمودٌ عريض من الاسمنت تخرج من صلبه أطراف حديدٍ متلوية رقيقة وصدئة ، يحمل السقف من المنتصف تماما . كان النور خفيفاً فى غرفة السطح ، وفى المكان كله نوع من السر والتوتر . قال جبره ، بصوته اللزج وفيه غنّه لينة إن رمزى صعد معه الى هنا إلى يوم الأحد الماضى . وحكى كيف أنه ركع على يديه ورجليه واستند الى العمود وقال إنه لم يصرخ بل كان يكزّ على فمه فقط ، ولم أفهم شيئا ولكننى أحسست فجأة أننى

فى كمين ، وأن شيئا ما، خطِرا ومرعبا وغامضا يدور من حولى ، قلت يجب أن أنزل الآن ، بيتنا بعيد ، واندفعت أجرى نازلاً على السلم وأنا أسمع كمال يقول إن رمزى سيجىء بالجلات حالا ، لم أردّ عليه ، كنت أجرى فى شارع ١٢ ، أجرى فى شارع الكروم ، أجرى أعبر شارع الترامواى ، لاأتوقف ولاآخذ نفسى ، حتى وجدت نفسى فى فسحة السلالم داخل بيتنا ، فوقفت وأنا أنهج، واكتشفت أننى أضمّ كتبى الى جنبى بشدة ، وأن الدم يضرب فى عروقى كلها. وكان كل شىء مستغلقا علىّ وغريبا وأريد أن أنساه.

تجنّبت هؤلاء الثلاثة بقية هذه السنة الأخيرة فى مدرسة النيل الابتدائية ، وكنت لاأريد أن أرى الابتسامة الكريهة على وجه جبرو الشمعىّ ، ولكننى ، أحيانا ، كنت لا أملك أن أردّ عينى متأملاً جسم الولد رمزى المدوّر الكسول .

استرددت نَفَسى ، وطلعت السلم ، كل درجتين فى وثبة واحدة ، وعندما خبطت على زجاج ضلفة الباب المغبّشة فتحت لى خالتى سارّة الصغيرة التى لم تكن تكبرنى إلا بسنوات قلائل ، وكانت تحمل ، على يدها الأخرى ، الصينية المِرآة المستطيلة ذات المقبضين وعليها أكواب المُغَات السخن رائحته شهيّة ، داكنَ الصفرة تطفو عليه طبقة السمن بدوائرها الصغيرة المُزبِدة مغروزاً فيها فتات من فصوص البندق واللوز وعين الجمل .

كانت أمى قد ولدت أختى لويزة ، وعملنا لها السُبُوع ، وجاء أبونا سمعان وصلّى على رأس أختى لويزة فصرخت وهى فى قماطها الأبيض الوثيق ، وبَخّرَها ورشّ البيت كله بالماء المصلّى عليه الذى حمله معه فى زجاجة صغيرة أخرجها من جيب جُبّته السوداء الحرير ، وهزّ مجمرة البخور التى كانت أمى قد أوقدت النار فى قطعهِ فحمٍ صغيرة فيها ، حتى احمرّت ، فامتلأ البيت برائحةٍ عبقة وحرّيفة كرائحة الكنيسة من سُحُب البخور المتقطعة ، ومن الشموع الموقدة حول قُلّة

منتفخة البطن ، مصبوغة بالأحمر ، على المائدة فى فَسَحة البيت ، فى صينية نحاسية ، ونيران الشمعات السبْع خافتة فى عز النهار ومدبّبة وصفراء ، وكل شمعة مغروزة فى طَبَق فنجان ، زُرعتْ فيها سبعة حبوب على أرضية من القطن المبلول ، وسُقيتْ برشّ الماء طول الأيام السبعة الماضية ، الترمس والفول والشعير والغلّة والحلبة والذرة والعدس أبو جبّة ، وكانت النباتات الرقيقة الرفيعة جديدة الخضرة تكاد تكون شفّافة من رقتها ، وقد ارتفعت حول جذوع الشمع البيضاء المدوّرة . وكانت أمى ، فى عزّ شبابها ، تقوم من سرير الولادة ثانى يوم ، وتعمل شغل البيت ، وكان أبى يرسل للبيت الفراخ ، بالقَفَص ، طول أيام النِفاس ، تحملها عربة كارّو من مينا البصل لغيط العنب . .

عندما دخلت ، سمعت ثرثرة الستات واللغَط والصيحات الناعمة والضحكات النسائية العالية ، كانت أمى عندها ضيوف ، جئن يهنئن بالسلامة ، ورأيت على كنبة الفَسَحة ملاءاتهن السوداء خلعنها ورمينها من غير نظام ، وعلى البُوريه كومة صغيرة من الأساور والحِلقان والعقود والخواتم الذهبية . كانت الكومة الذهبية متهدلة الخيوط والحلقات فوق بعضها البعض ، تومض وتشعّ بخفوت ، وكنت أعرف أن زائرات أمى عليهن أن يخلعن كل مايلبسن من ذهب قبل أن يدخلن عليها ، طول أربعين يوماً بعد الولادة ، خوفاً من « المشاهرة » . وكانت هذه الكلمة ، وهذا الطقس كلّه ، يسحرنى ويحمل الىّ معانى غامضة عما يحدث للنساء من أشياء غريبة .

نادتنى أمى فخجلت أن أدخل وكل هؤلاء النسوة معها ولم أردّ ، فنادتنى مرة أخرى بصوتٍ عال ، وجذبتنى خالتى سارّة من يدى ، وعندما دخلت الغرفة كانت النافذة مغلقة والمصباح الكهربائى متّقدا فى داخل كُمثراه الزجاجية المورقِة المفتوحة وزجاجها بلون اللبن وفَغَمتنى روائح كثيفة مختلطة من الرضاع والمُغات وفَوْح الأجسام النسائية ، وكانت أمى نصف مضطجعة مستندة بظهرها إلى مخدّة

طويلة على قائم السرير ذى القضبان الحديدية اللامعة المتجاورة ، وإلى جانبها لويزة الملفوفة فى قماطها ، مغمضة العينين حمراء الوجه ، وذهبتُ إلى أمى أخطو بين النساء اللاتى تربعن على الكليم ، تحت السرير ، فى ثيابهن المشجّرة المقوّرة المفتحة عن أثداء مسترخية وفيرة وانكشفت أفخاذهن قليلاً من فوق الركبة ، وهن يشربن المُغات ويثرثرن بعضهن مع بعض ، وسمعت الست وهيبة تقول لامرأةٍ ممصوصة الوجه حادة الشفتين لاأعرفها : لاياختى ، اسم الله عليه ده لسه مااحتلمش برضوه .. وقالت أمى طب بَسّ بَسّ اسم الصليب عليه ده زىّ الملاك اسألينى أنا . ووقفت أمامها صامتاً وقلبى يدقّ فمدت يدها تحت المخدّة وأخرجتْ صرّة صغيرة جداً ملفوفة بقطعة قماش بيضاء معقودة بعُقَد كثيرة وأعطتها لى فأحسستها طريّة كأنّ فيها قطعة لحم حية ، واقشعرّ جسمى ، وقالت لى أمى أنْ أذهب ، فى صَفَار الشمس ، إلى تقاطع شارع الكروم بشارع سيدى كريم ، وأقف أمام بيت روزا الخيّاطة بالضبط فى وسط الأربعة مفارق ، وأرميها بعزم ذراعى ، فوق ، فوق خالص ..

ظللت ممسكاً بالصرّة الصغيرة اللينة الجسم وذهبتُ الى شرفة بيتنا المطلة على اصطبل الخيل وحوش العربيات الحنطور ، وعندما رأيت أن الشمس تميل للغروب على المحمودية نزلت جريا ، وفى يدى الصرّة الصغيرة ، وكنت سمعت أمى تقول وهى لاتعرف أننى أسمعها إنه « خلاص » أختى لويزة ، ولم أعرف مامعنى الخلاص ولكن خيالى النشط صوّر لى أنه شىء ينزل مع البنات فقط عند الولادة ويجب الخلاص منه وأن أختى الوليدة لن يكون لها خَلاص من عذابات النار بعد الموت إلا بذلك . ولكن السؤال الذى كان يحيّرنى هو كيف أن هذه المفارق أربعة ، هل هى أربعة شوارع ، يعنى.؟ لكنهما شارعان فقط ، ولم أستطع أن أحلّ هذا اللغز ، ووقفتُ بالضبط فى نصف تقاطع الشارعين وكان بيت روزا الخياطة من دور واحد ، وعريض ، وله جنينة واسعة أمامها سور من قوائم الخشب القصيرة وله باب خشبى بضلفتين ، وفى الجنينة تعريشة عنب كثّة بالورق

العريض والأغصان المتلوّية ، وأمام الجنينة رصيف مبلّط بالبلاط الأبيض يفتح عليه باب البيت ونوافذه المنخفضة الكبيرة . وكان البيت صامتا تماما ، ومظلماً فى هذا الوقت من النهار ، فقد كانت الخيّاطة العجوز الشاميّة الأصل تعيش وحدها وكنت أعرف أن البنات يأتين للشغل عندها فى النهار ويذهبن لبيوتهن على العصر وكنت أخاف قليلاً من المرأة الشمعيّة الوجه الحادّة الأنف ، بشعرها الأبيض الجاف الملفوف دائما فى منديل ملوّن تربط عقدته خلف رقبتها .

كان الشارع خالياً من الناحيتين ، على طول البصر . كل شىء فى آخر النهار كان هادئاً ومهجوراً وساكتاً تماما ، والنخيل فى جنينة روزا الخيّاطة يهتز سعَفُه بصوتٍ خشخشةٍ خافتة .

رميت بالصرّة الصغيرة التى كنت أمسكها طول الوقت كأننى خائف من قوّتها الكامنة ومقدرتها على الإيذاء ، وطوّحت بها ذراعِى الى أقصى مااستطيع . وارتفعت اللفّة الصغيرة الطريّة فى الهواء ، عاليا باندفاعٍ كأنه آتٍ من داخلها ، ارتفعتْ ، بقوة ، ثم اختفتْ ، تماما . كأنها ذابت ، فى انطلاقها إلى أعلى ، إلى بعيد ، كأن شيئاً ما ، غير مرئى ، قد التقطها فى الفراغ . وراحت .

استدرتُ على وجهى ، وانطلقتُ أجرى إلى البيت بأسرع ماتحملنى قدماى . كأننى أفر .

فى حصة الدين كان الأولاد المسلمون يذهبون الى غرفة المدرّسين حيث يتجمع زملاؤهم من الفصول الأخرى ، ويعطيهم خليفة افندى درس الدين . وأسمعهم ، من الشباك ، يقرأون القرآن معاً بصوت عال منغّم له إيقاع ملىء يحتشد له قلبى بالرهبة ، وأحسدهم.وأريد أن أكون معهم . أما نحن فيدخل إلينا جرجس افندى مدرّس الانجليزى ، وكان صعيدياً وقصيرا ونحيلاً وله وجه قاسٍ

أسمر ، ويحفظنا قانون الايمان والوصايا العشرة ومزامير داود وموعظة الجبل وكتابا صغيراً فيه أسئلة وأجوبة . وفى إحدى الحصص وقف أنطون زخارى فجأة وقال للمدرّس بصوتٍ عال : أفندى الوصية الثالثة مش فاهمها يعنى إيه لاتزنِ ؟ فضحك الكبار ضحكاً مكتوما وقال جرجس افندى بهدوء : طَبْ أجْعُدْ .. هى دى اللى انت مش فاهمها ؟ لما تكبر هتعرف ، مستعجل ليه ؟ وكنت أنا ، حقاً ، لا أعرف ، بأى شكل ، ومع ذلك فان شيئاً مايُخجلنى عن أن أسأل .

بعد أن خرجنا من المدرسة ، وقفتُ مع الأولاد الصغار أمام الفرن ، حتى يمر الترام فى الشارع بصلصلته البطيئة وعرباته الزرقاء اللامعة ، وسألتهم بصوتٍ فيه تحدٍ وشيطنة : حد فيكم بقى يعرف يعنى إيه بيوت الدعارة ؟ كنت قد قرأت خبراً فى « الجهاد » عن تفكير الحكومة فى إغلاق بيوت الدعارة ، ولم أفهم ماهى هذه البيوت ، وقلت لنفسى إنها لابدّ البيوت القديمة التى سوف تسقط على أصحابها . ولم يعرف أحد ماهى ، وسكتوا ، ومع ذلك لم نسأل أحدا .

فى يوم الاثنين من الأسبوع الأخير للمدرسة كان الحوش الصغير دافئاً ومشمسا فى فسحة بعد الظهر ، وكان الكبار متجمعين معا . سمحوا لنا ، لأول مرة ، أن ننضمّ إليهم فى حديثهم الخافت الحارّ عن مغامراتهم فى كُوم بَكير يوم الأحد الذى فات وكأنهم قد اتخذوا قراراً بأننا كبرنا نحن أيضا ونستحق هذه الجائزة ، إجازة الصيف الأخير توشك أن تأتى ، فمن يدرى هل سنلتقى ، ومتى ، بعدها ؛ فمن حقنا الآن أن نعبر العتبة التى كانت محرّمة علينا . وقفنا فى حلقة متضامّة متزاحمة نسمع بلهفة ، وقلوبنا تدقّ ، عن أشياء كانت مبهمة تماماً علىّ ، ولاأستطيع أن أتصوّرها مهما حاولت ، ولكننى أُحسّ لها سحراً لا مقاومة له . وبينا انطلق انطون زخارى يهمس بصوتٍ حاد وسريع ومبحوح قليلاً كان الأولاد يقاطعونه ويهتفون بأصوات فيها انكسار البحة الأولى ويضمّون رؤوسهم إلى بعضهم بعضا ويدورون حوله ويستحثّونه بالسؤال عن التفاصيل . كانوا يعطوننا

نحن الصغار ظهورهم كأنهم وقد تركونا ندخل الحلقة نَفَضوا أيديهم منا ، وكان أنطون رفيعاً جداً وطويلاً ويداه عصبيتان وعيناه ذكيّتان قلقتان تدوران حولنا كأنهما لاترياننا وهو يصوّر بيديه وتقاطيع وجهه المسنونة وأنفه الكبير كيف أن المرأة البيضاء السمينة أعطته ظهرها وانحنت وعلّمته شيئاً ما لم ألتقط ، فى وسط الزحمة ، ماهو ، ولاكيف يكون ، ولم أستطع أن أتصوّر ماذا كان يحدث عندئذ ، وإن كنت أهتز بنوع من الروع ، والمتعة الخفية بخيالاتٍ غير محدَّدة ، أما غريِّب فقال إنه دخل على واحدة خلعت له قميصها الحرير الأبيض وكانت عارية تماماً تحته ، وسألته عن اسمه وأين يسكن ولما عرفت أنه من غيط العنب ومن شارع الكروم تركته يفعل ذلك مرتين إحداهما بعد الأخرى ولم تأخذ منه ولا مليم وقالت له إن اسمها حسنيّة وأنها سكنتْ مرة فى شارع الكروم وإنها تراعى الأصول وعليها دين لناس طيّبين هناك تريد أن تؤديه ، وقال إنها كانت رفيعة وسمراء وملتهبة كالنار وحنوناً أيضا ، وكان صوته المترفّع البارد يرتعد قليلاً على غير عادته وكأنه خجل من ذلك وقال إنها طلعت أو نزلت شرموطة بنت كلب وانه سيرجع اليها ويعطيها فلوسها على الجزمة ويضربها اذا فتحت فمها ، أيضا ، وكنت أستمع للحكاية وقلبى يرتجف ومليء بالغموض ولم أصدّق أنها هى ، أبدا .

وقررنا نحن الصغار يومها ونحن نعود ، نحمل كتبنا ولانريد أن نلعب البِلْى ، أننا عندما نكبر ونروح الثانوى ، سوف نذهب الى كُوم بَكير نحن أيضا ونطرق هذا المكان وبيوته السرية الواعدة بمتعات وملذات جنونية لا نعرف طعمها ولانتصوّرها ، حتى . وكنا نعرف مع ذلك أنه يقع بين السيّالة وشارع توفيق قريباً من كركون اللبان وقال جابر إنه يعرفه بالضبط . وتعاهدنا أن نذهب ، جميعا ، أنا وجابر وفرنسيس واسكندر حتى لو تفرّقت بنا المدارس فى الثانوى ، ولم نفِ بهذا التعهّد أبدا .

كان جابر أكبر جماعة الصغار ، ولكنه من الكبار أيضا ، يضع رِجْلاً هنا

ورِجْلاً هناك . وبعد الامتحانات التى عقدت فى تلك السنة ، لأول مرة فى حياتى ، تحت خيمة عالية نُصبت فى الحوش الكبير ولها فتحات وقماش ملون ومزخرف كقماش شوادر الأفراح والمآتم ، قال لى جابر إن عنده سحّارة ملآنه بالمجلات والكتب والروايات فقلت له إننى أريد أن أقرأها ، كلها ، فى الاجازة ، فقال لى تعالَ ووصف لى أين بيتهم .

كانت بيتهم فى شارع ١٢ من ناحية كرموز ، دخلت من الباب الخشبى من فوق عتبةٍ رخامية ممسوحة ، وفوجئت بالسماء فوق ، وكان فى جانب الحوش الذى جرت فيه الفراخ من امامى ، فُرن موقد جلست أمامه سيدة بملابس سوداء وطَرحة على أطرافها غبار أبيض من الدقيق ، تخبز . سألتها عنه فرحّبت بى وقالت لى هوّ انتَ صاحبه ؟ ياأهلاً ياضناىَ ونادته بصوتٍ عال ، ودخلتُ معه إلى البيت وكان غرفة واحدة فقط ، وكان أبوه راقداً على كَنَبة ومغطى بملاءة مصنوعةٍ من خِرق ملونة قديمة مخِيطة بعضها الى بعض ويسعل بشدة ، وركع جابر أمام الكنبة وفتح لى غطاءً قائما عمودياً يُفتح الى جنب فى بطن الكنبة التى كان يرقد عليها أبوه ، وأحسست بحرَج شديد ونوع من الإثم ولكن الرجل العجوز قال لى اتفضل يابْنى خُد اللى انتَ عايزه دا جابر أخوك وكلّمنى عنك كتير ربنا يخليك يابنى .ويديلك الصحة انت واللى زيك ياربّ ياكريم ، ومدّ جابر يده واستخرج أكواماً من الكواكب وكل شيء والدنيا والمصور واللطائف وروايات جرجى زيدان وروكامبول ، وجلست على الأرض أمام الكنبة أنتقى منها مالم أكن قد قرأته من عند الست وهيبة أو من عند أصهار خالى سوريال ، وتشجعت فمددت يدى أيضا تحت الرَجل الراقدِ بضعفٍ واستسلام ، مغمَض العينين شاربه الكبير مُصفَرّ تماماً ووجهه متهضم جاف وملىء بالتجاعيد الخشنة ، وخرجَتْ يدى برصّةٍ ملفوفة بدوبارة من أربعة كتب ذات جلدة ورقية خشِنة صفراء ، والكتاب الأول عليه رسمٌ ساذج الخطّ ومُغْوٍ لامرأةٍ جالسة على ركبتيها ، تضع فخذيها تحتها ، قدمها ، فقط ، بأصابعها المتجاورة ، ظاهرةٌ تحت ثوبها ، وإلى جانبها خُفّها العربىّ مدبب

الطرف ، وهى ترفع ذراعها المحملة بأساور غليظة وتشير بيدها الى شيخ له لحية طويلة ، مربّعة ، مفروشة على صدره ، متربّع ، ظهره إلى وسادة ويُسند رأسه الى يده ، أما المرأة فثدياها أحدهما قائم ومكوّر والآخر متهدل ومستدير والحَلَمتان قائمتان بارزتان منهما ، وامرأة أخرى تجلس على البساط وتنظر اليهما بنظرة رعب .

وقرأتُ أعلى الرسم « ألف ليلة وليلة » بالخط الرقعة ، وعندما فككتُ الدوبارة رأيت الصفحة الأولى تقول إنها ذات الحوادث العجيبة والقصص المطربة الغريبة لياليها غرام فى غرام وتفاصيل حب وعشق وهيام بالصور المدهشة البديعة من أبدع ماكان ومناظر أعجوبة من عجائب الزمان ، وخفق قلبى بشدة.سمعت عنها من الكبار . وتردد جابر فى أن يعيرنى الكتاب ولكنى أغريته بمجوعتى من « عشرين قصة » ورواية سافو ، فوافق على أن يعطينى الجزء الأول فقط ، وعندما أعيده يعطينى الثانى ، وهكذا ، وعدتُ إلى البيت أجرى جرياً من شارع الى شارع ، فى نشوةٍ يطير بها جسمى ، حافياً تخففتُ من الشبشب أمسكه فى يدى ، مع الكتاب ومجلات الكواكب ، ودخلت البيت بعد أن نفضت رجلى من التراب ولبست الشبشب وأخفيت الكتاب تحت جلابيتى الخفيفة وضممت ذراعى ، وفيها المجلات ، عليه .

وفى الغرفة الطويلة ذات الشرفة الخشبية المقفلة المسقوفة التى تطل على اصطبل عربات الحنطور ، رقدتُ على الكنبة الاسطمبولى ، جنب مائدتى الرخامية البيضاوية المفروشة بالجرائد ، التى كنت أذاكر عليها دروسى ، والجرامفون ذى البوق ورسم الكلب ، انزلقت قدماى إلى أرضِ ألف ليلة وليلة ، ودخلتُها ، ولم أخرج منها حتى الآن .

ذهبتُ فجأة الى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، ودخلتُ قصر

شهريار ملك ساسان وأخيه شاه زمان ملك سمرقند والعجم ، ورأيت امرأته تواقع العبد مسعود مع جواريها العشرين اللاتى يواقعن العبيد العشرين وماصاحب ذلك من بوس وتقبيل وماتلاه من تنكيل وتقتيل ، والأميرة شهر زاد تنزل من أتومبيل باكار مقدمته مربعة الشكل ولامعة ، أمام سينما محمد على فى شارع فؤاد ، وينحسر الفستان الحريرى عن فخذيها السمراوين تنفرجان عندما تهبط فأرى العتمة الغامضة بينهما ، أفزعتنى المَرَدة الهائلة تخرج من القماقم ، وركبتُ الخيل الحديد تطير على عنان السحاب ، وهبطت إلى مدن الأبنوس والنحاس الخاوية من البشر ، وانحدرتُ على السلالم الأربعين الى الأقبية الخفية والسراديب فوجدت القردة والدببة الشبِقة تُعاطى النساء من اللذة مالم يعرفه بشر ، وارتقيتُ ظهور الجن العمالقة وركبت البساط السحرىّ إلى جزائر الهند والصين ، ودرَّ صدرى بالشفقة والخوف على أولاد المساتير المسخوطين كلاباً تنبح وتتغطى منهم الحريم حياء ، والمسحورين حميراً وبغالاً تعتِل الأثقال وتدور بأحجار الطواحين الثقيلة فى سيرجة معتمة نازلة تحت الأرض والرجال الذين لاينامون أبدا يضربونها بفروع من خشب الجميز ، والزيت يتقطر ويرشح ببطء فى طسوت واسعة جدرانها الصفيح سوداء ولزجة ، وعرفت جَبَّ الخِصِىّ بالسكاكين واستلال المحاشم بعقدها بالحبال وجدع الأنوف وسَمْل العيون والخوزقة والتنصيص والتشبيح وصبّ الزيت المغلى على الجسم الحىّ المتنزّى وطيران الرؤوس على حدود السيوف والموت صبراً فى الغِيران والآبار والزنازين والحبوس ، والعبيد يكدّون وتتقصم ظهورهم فى الوديان والمحاجر والأهوار ، والجوارى الرافهات اللاعبات بالدفّ والعود ، وقَتْلى الحب ، وصَرْعَى المكائد ، والأبرياء يُؤخذون بجرائر الماكرين ، والصعايدة يحملون شوالات الدقيق البيضاء الدسمة الانبعاجات على ظهورهم القوية القضيفة التى لايكسوها إلا خيش شوال مقطوع الجانبين تبرز منهما أذرع عارية سوداء معقّدة العضلات ، والبنات الحيّات ، والبنات الغِزلان ، والشُطّار والعُيّار ، والعماليق والبطاريق ، والقسوس والنصارى بقلانسهم وزنانيرهم وصلبانهم ، والسَحَرة والمجانين ، والدراويش والهائمين ، والمَجوس عَبَدة النار ، والسود عَبَدة الأصنام ، والقراصنة

والربابنة ، والقهرمانات والطواشى ، والرهبان والمُجاهدين والصُنّاع والصيّاع والجواهرجية والصيّاغ والمزيّنين والحمّالين والخلفاء والوزراء وشهْبَنادر التجار ، والبنات الصغيرات صدورهن ضيّقة ومخسوفة وشعورهن الخشنة ملفوفة بالمدورة البيضاء غير النظيفة ينحنين طول النهار بالإبرة والخيط وجوههنّ الشاحبة تلتصق بالقماش الأسود فى مشغلِ روزا الشامية يفقدن عيونهن فى عتمة الغرفة الطويلة المنخفضة السقف ، وتَلَوّثُ الرُقَي والتعازيم وحللتُ الطلاسم وحملت الأحجبة ومَلَّستُ على العِمدان وأشعلتُ المجامر ولبستُ الخواتم السحرية ووجدتُ حجَر الفلاسفة ونشقتُ البِنج والنشوق وسففتُ العقاقير والزرنيخ والجير ولعبت بالدرر واللآلىء والزبرجد والياقوت ، وتنزهتُ فى البساتين ذات الأشجار الباسقة الفارعة والعريضة والعقيمة والمُثمرة والمتشابكة والجرداء النخل والجميز والتين الهندى والسنط والكافور والنبق وأُمّ الشعور ، واغتسلتُ فى الحمّامات ، وانسربتُ فى الدهاليز والرواقات ونمتُ فى الخانات على المصاطب والسُرُر المفروشة بالحرير ، ورميتُ بالسهام والرماح من الأبراج والحصون ، وامتطيتُ صهوات الخيل فى الاصطبلات بينما الرجال يحكّون روث الخيل الداكن اللون طبقاتٍ مكومة فوق طبقات ، والروث الجديد فوقها مدوّر مُصْفَرّ اللون يصعد منه البخار ، وأبحرتُ على سفنٍ كالجبال تمخر البحار الى الهند والسند وجزرِ واق الواق ، وكنت هناك والترامواى يدهم الصبيان وتطير أشلاؤهم الدامية ، سيقاناً عارية مقطوعة ورؤوسهم تتدحرج على حَجَر البازلت الأسود النظيف ، انسللتُ أمام زرائب الجاموس المظلمة أرضها الترابية عليها أكداس من التِبْن الأسود المنعجن بالروث ولها رائحة نفاذة حارقة للأنف يعمل فيها رجالٌ سود ليس عليهم إلا سراويل كالحة من العَبَك متصلبة بالنفايات الجافّة عليها وصديريات ذات صفّ عمودى من أزرار صغيرة مدورة كثيرة ، كثيفة القماش من الوسَخ يكسحون الروث بأيديهم يملأون به جرادل ضخمة مدورة ويلقونه فى أكوام لزجة جنب الباب ويضربون مابقى منه بالتبن المكدّس على الأرض ، ونساؤهم ، بعيونهن الجائعة وملابسهن السوداء الملوثة بالبلل ، يحلبن الضروع الثرة باللبن الذى يسقط له خرير فى الأسطال المعدنية

اللامعة ، ثم يركعن أمام أكوام الروث ويصنعن أقراص الجلّة يفرشنها فى الشمس على أرض الشارع .

وعندما عدت تجولتُ فى شوارع بغداد متنكراً مع هارون الرشيد ، وسمعتُ شجْوَ الأغانى مع الموصلىّ وبراعةَ القريض ، وروّعتنى فاجعة البرامكة ، وأحسستُ عنقى فى يد مسرور السياف وذراعىّ ورجلىّ مقيدة بالكلاليب والجنازير ، وصارعتُ الاحناش والتنانين وفتحتُ الكنز المرصود عن ذهب وماس ولؤلؤ منثور ، وأكلتُ من أصناف الطعوم المطبوخات والمشويات والحلويات والنُقل من لوز وجوز وبندق وزبيب وحسوتُ القهوة والشربات والنارنج والنبيذ الأصهب كالزعفران ، وشممتُ الآس والياسمين والنرجس والقرنفل ، وعجبتُ من أفعال الرجال فى ثياب النساء والنساء فى زىّ الرجال المحاربين ، وعاشرتُ العفاريت الكَفَرة والجنّ المؤمنين والغلمان كالبدور والقِيان كالشموس وعرائس البحار ، والبنات الطيور اللاتى يخلعن ريشهن فإذا لهن حُسْن يدوّخ العقول ، كأنهن الحور العين ، ونعمتُ بلمس القمصان البندقية ، الذهبية منها والمشمشية والمطرزة بأسلاك الفضة ، على نساءٍ لهن شعور كالحرير ووجنات كرحيق الأرجوان وأنوف كحدّ السيوف وشفاه كالعقيق أو حَبّ الرمان ، وأعناق تلعاء كالعاج وصدور كبلاط الحمّام عليها نهود كقحول الرمّان أو حِقاق المِسك والريحان ، وخصور مُخَنْصرة كأنها من وهم الخيال وبطون كأنها العجين الخمران مكسوة بشقائق النعمان وأكثر بياضاً من المرمر كل عكنة من أعكانها تسع أوقية من دهن اللِبان وفككتُ تِكك السراويل المعقودة على فصوص الزمرد والمنقوشة بأشعار الهوى والتدلّه والتحريم ، فإذا سيقان من رخام دافىء مسنون فوقها كثبان من البلور ناعمة ومربربة واعدة بالنعيم ، وأفخاذ كالعِمدان ألين من الزبد وأنعم من الحرير ، وجُلتُ بيدى فى جميع الجهات حتى وصلت الى قباب كثيرة الحركات والبركات عرفتُ من أسمائها خان أبى منصور وحبق الجسور والسمسم المقشور ، وفهمتُ أسرار البَوْس والمصّ والعضّ والغُنْج والشهقات واشتعل جسمى بالشوق فتيقّظتُ واشتددتُ وتوتر

البرعم النابض المنتصب وجلجلتْ نواقيس الساعة وسطع العالم للمرة الاولى بلهبِ المعرفة وانهمر الطوفان ووجدتُ نفسي فُلْكاً طافياً على الغَمْر وليس بين أمواج اليمّ العاتية من طريق ، ومازلت أطفو وأغوص .



٥

غِرْبان سُود فى النور

الطفل يحس جسمه يتيقظ فجأة فى الليل ، فى غرفة النوم الدافئة المغلقة الباب . ويجد أنه على سرير عال ثقيل بالأغطية ، ليس سريره . وأمه جنبه ، مرتفعة الجسم ، تملأ السرير والغرفة . ويعرف أن أباه ليس هنا ، ولايعرف أين ذهب ، ولماذا هو غائب لاينام هنا . ويتحرك الطفل على يديه وقدميه ، يلف من تحت ساق أمه النائمة التى تتنفس بهدوء ، بصوت مسموع . وينزل من على هذا السرير الى صندوق كبير لايكاد يراه فى ظلمة الليل ، مغطى بالأَلحفة والملاءات المطوية الناعمة التى تتلقى سقطته عليها من غير صدمة .

لماذا كان يريد أن يذهب الى سريره ، مُسَوًّى نظيفا ، لم ينم عليه الليلة ، عريضا وموحشا ؟

عندما صعد من على الصندوق الى سريره الحالى ، وقف غير ثابت القدمين على المرتبة الطرية ، ومشى ، يهتز ، حتى جاء الى النافذة المواربة ، ونظر منها الى الشارع ، تحت . كانت النافذة عالية جدا .

عمود النور فى الشارع الخاوى يتقد بالغاز الأبيض الساطع شعلته لاتكاد تهتز فى داخل فانوس الزجاج المربع النظيف ، فَتْحَتُه من تحت ، والنور يسقط من العمود على شجرة كثة الورق ، خضرتها ، فى الليل ، تلمع بضوء الغاز ، وتحت العمود ، بعيداً جداً تحت ، يقف العسكرى ، بحلته السوداء أزرارها الصفراء تومض وتنطفىء ، والبندقية الطويلة ، ترتفع من وراء ظهره مصوبة الى أعلى ، إليه مباشرة ، والأبواب كلها مغلقة أمامه ، والشارع واسع أسود الأرضية وطويل جدا . صدر الطفل يمتلىء بدقات قلبه العالية ، وهو يرى على الشجرة ، وبين الورق المتراكب فى الظل والنور ، سرباً من الطيور السوداء ، طويلة الجسم ، كثيرة ، كثيرة بلا عدد ، واقفة ، صامتة ، ظهورها مقوسة قليلا ومناقيرها مطبقة وممدودة الى الامام .

يسقط الى الخلف ، يرى خطوط النور البيضاء ، متجاورة ، مستقيمة ، تقع على ظلمة سريره من خلال خصاص النافذة .

يحس أمه تثب إليه من السرير الآخر ، تحيطه بذراعيها العاريتين ، نعومتهما على ظهره ، ليس فيهما أمان ، بعد ، وتقول بصوت خفيض مُلِح : اسم الصليب اسم الصليب ، وتحتضنه إليها فيغمض عينيه ويدفن رأسه فى صدرها الغنى لايكاد يحتمل دق الدم فى صدره .

يقول لأمه بلهفة : فين بابا ؟ فين بابا ؟ فتهدهد خوفه : ياختى ، يايسوع . مالك مَسْرُوع كده ، إيه اللى قوّمك بس ؟ طب تعال ، تعال نام واتخمد كده . سَرَعْتِنى . فيسأل ثانية : فين بابا ؟ فين بابا ؟ ويحس عينيه تغمضان .

وبعد أن ضربته الحياة كثيرا ، وأحبطته ، ولانت له أيضا ، وأمتعته بعمق ،

مثل كل الناس ، ظل يرى المشهد نقيا ، كأنه حدث بالأمس ، كأنه يحدث الآن .

فى قاع المياه المضطربة حصاة بيضاء ، مدوّرة ، ناعمة . لم تترسب عليها شائبة من عكارة السنوات وطينتها .

ظل يحتفظ به طول عمره ، يتأمله ويسترجعه ، يهدهده فى خِفْية . ويعتقد أنه أول مايذكر ، أول مابقى ، واضحا ، وحاضرا ، وفعّالا . ويظن أنه كان عندئذ فى الثالثة من عمره ، بالكثير . بل يحب أن يتصور انه كان فى الثانية من عمره ، حتى. ولكنه يقول : الثانية ؟ غير معقول . لاأظن . هذا مبكر جدا ، أليس كذلك ؟ فى الوقت الذى يظل فيه أميل الى هذه الفكرة لايتخلى عنها ، ويقول : ولم لا ؟ صحيح . نعم . كنت فى الثانية ، أو نحو ذلك على أى حال ، صحيح ... ولايستطيع طبعا أن يحسم الأمر . بل ينظر الى الطفل الذى كانه ، ويبتسم قليلا ، وكأنه آخَر ، وإن كان غير غريب . ومازال يشعر بخوف ذلك الطفل ، ومضضه ، وبحثه الملتبس .

قال لنفسه : مَنْ هذا الطفل ؟ أين هو ؟

وقال : ومَنْ الصبى الذى كان بعد عشر سنين ، وبعد أن طفا فُلكاً متطوحاً على طوفان جسده ، وحده ، تتخبط به أمواجٌ ملتطمة وساطعة وملتبسة ؟

انتقل أبواه ، مرة أخرى ، وأخرى ، من بيت الى بيت ، بحثاً عن شقة إيجارها أرخص ، وأقرب الى العباسية الثانوية ، وهرباً من الحجز على عفش البيت وفاء للأجرة المتأخرة المكسورة شهراً على شهر ، حتى استقروا فى بيت عبده فى محرم بك .

وانقطعت صداقاته بزملاء النيل الابتدائية فى غيط العنب وكان يحس نفسه وحيدا وغريبا بين جمهرة تلاميذ العباسية الثانوية ، كثيرين جدا ، ملابسهم أغلى وأحسن ، كلامهم وطريقة سلوكهم تختلف ، والمسلمون فيهم أكبر عدداً بكثير . وتعلم أن يأكل ، حسب الأصول ، فى مطعم المدرسة الفواح برائحة الأكل الشهى والمدوم بلغط الأكل البهيج ، الطبيخ والأرز واللحم أو الفراخ والحلو كل يوم ، وقبل الأعياد هناك الأكل الصيامى اللذيذ للأقباط ، مخصوص ، أما فى رمضان فيصرف لهم سندويتشات ، موضوعة فى علب ورق بيضاء . وفى الفُسَح الطويلة بعد الغداء دخل فى زمالات وصراعات ، ولعب الكرة الشراب وتسلق أشجار الجنينة الممنوعة فى بيت الناظر ، وضرب وانضرب ، وعرف المكتبة الغنية وغرق فى كنوزها ، وطُرد من المدرسة لأنه لم يدفع قسط المصاريف وعاد بعد أن دبر أبوه الجنيهين و ٣٠٠ مليما وأخذ بها إيصالاً رقيق الورق أحمر اللون .

كانت أمه قد أطلت من البلكونة على البائع الذى كان ينادى من تحت « بيكيا . بوتيليا .. » وقالت له : تعال . وكان صعيديا يلف على رأسه عمامة من قماش أسود وحول رقبته الطويلة كوفية سوداء ، وساومته طويلا وقال لها صلّى على النبى ، طَبْ مجّدى سيّدك ، ماهى جاية حَقّ المَشال . حتى رضيت بأن يأخذ البوريه ، بمرآته البلجيكى الثقيلة ، على جانبيها دواليب صغيرة أبوابها الخشبية مشغولة ولها زجاج محبب أصفر وأحمر داكن ، ورخامته المحمرة مجزعة بتشريجات بيضاء متشعبة ، وأدراجه التى كان يرسم على خشبها الداخلى الأبيض ، وهو طفل ، رسوم رجالٍ لهم وجوه دائرية مقطوعة فيها عينان وشَرطة فم وأيد وأرجل كالعصى ، وكتب عليها اسمه من غير حروف المد كلها ، بحروف منفصلة م خ ء ل ؛ وذهب الرجل وعاد ومعه شيال صعيدى ثقيل الجسم فَكّ أجزاء البوريه وحملها على ظهره ونزل بها السلالم

كان جابر هو الصديق الوحيد الذى ظل يأتى من غيط العنب ، كان قد

قضى العام كله فى المدرسة الزراعية فى شبين الكوم ، حيث عاد أبوه ، مازال يعانى من المرض ، والكحة ، ولكن عنيد ، وصلب العود ، ليعمل مزارعا فى عزبة البيه القريبة من البلد ، وقال له بأنه سقط فى امتحان آخر السنة ، وانهم عادوا الى بيتهم فى غيط العنب ، وأنه اشتغل ظهورات فى البلدية ويكسب الآن عشرين قرشا فى الأسبوع ، كل يوم سبت ، نعمة من عند ربنا ، وكان يأتى إليه بأعداد رَجوع من مجلة أبوللو ، وروايات الجيب ، وأهداه صورة قطعها من مجلة أبوللو ، على ورقٍ حِسُّه ناعم ، بألوان مضطربة ، وفى أسفل الورقة علامات خروم الدبابيس التى كانت تثبته بالمجلة ، وعنوان : نفرتيتى والمثال .

نفرتيتى تجلس على منصة عالية بدرجتين عن الأرض ، وبجانبها أصص زرع بنفسجى وحشى مهتدل تحت ستارة ثقيلة زرقاء عليها رسم أعواد اللوتس القائمة الطويلة تنتهى بازدهار مقوس تخطيطىّ الزخرفة . تاجها الأزرق المقطوع السطح معقود بشريط مذهَّبِ التطريز ، وكأنها تنظر الى ماوراء الصورة ، وجهها صارم ودقيق وفيه شبهة ابتسامة ، وصدرها عارٍ تماما لايغطيه الا عقد عريض متعدد الحلقات بالأزرق والأصفر وثدياها صغيران وقائمان فى دورانهما ليونة متماسكة مخروطة ، وينسدل على فخذيها ثوبها الحريرى الأبيض اللدن الطيات . أمامها ، من بعيد وإلى تحت ، المثّال . يضع اللمسات الأخيرة فى تمثالها ، جالسا على كرسى بغير ظهر وإحدى ركبتيه مثنية ، نصف جسمه العلوى عار خشن الأضلاع وشعره جَعْد مربوط بعصابة رفيعة من القماش الأبيض ، ويلف على حقوية إزارا معقودا بحزام قماش أحمر ، لايصل الى ركبتيه العاريتين . وهو يرفع اليها عينين عابدتين . وبجانبه قِصاع الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين ، والقادوم والإزميل والمساطر والإبر الطويلة وسائر عدة مهنته .

زرقة الحلم الداكنة هى لون العالم .

وعلى ظهر الورقة البيضاء الأملس مكتوب بخط كبير : إهداء من جابر بسيونى الى ميخائيل قلدس ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ ، فى داخل إطار مستطيل له ثلاثة خطوط بالمسطرة والقلم الرصاص الذى بهت الآن .

كان أمام بيت عبده ، فى محرم بك ، فيللا قديمة من الحجر ، مربعة ، مسطحة الجدران ، ووراءها حديقة لايرى منها ، خلف البناء المتين ، إلا أعالى النخل وشجر المنجة والتوت الداكنة . ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنياء ، مترفعون ، لايختلطون بالجيران بل لايكلمونهم ، وأنهم أم عجوز لم يرها قط ، وولد فى مثل سِنه كان يخرج الى البلكونة ، فى مقابل بلكونة بيتهم ، كثيراً ، وكان يذهب للمدرسة فى سيارة فورد سوداء عالية ومربعة ، وأخته الاكبر منه بعدة سنوات ، جميلة جدا . ولم يعرف أسماءهم ولايجرؤ أن يسأل ، وكان يعرف أنهم من أصل تركى .

كان يقف فى البلكونة المطلة على الفيللا ، أعلى منها قليلا ، ساعات . لايفعل شيئا ، ينتظر فقط أن تخرج الى الشرفة المقابلة .

وكانت لاتخرج إلا لحظة واحدة ، ثم تدخل على الفور .

كانت بيضاوية الوجه ، ناصعة ، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة ، ودائما تخرج فى روب دى شامبر حريرى ، أزرق سماوى عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير ، ملفوف على جسمها اللدن ، سابغ يؤكد انسياب ساقيها الطويلتين ، وكان لحذائها الصغير ذى الكعب العالى قليلاً وقع على بلاط شرفتها ، يسمعه فى الشارع الساكت .

يحبها جدا ، ويحلم بها أحلاما مبهمة غير متحددة ، ولم يفكر قط فى أن

يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أى نوع . فقط ينتظرها ، وينظر اليها ، وترفع اليه عينيها أحيانا ، ويحبها جدا .

الحلم لم ينطق . اسودت شفتاه .

نعمتى بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سوادها ، وكان الصراع بين جسدينا لاينتهى ، ومعركة الحنان بيننا لاشفاء لها . جسمها كالعجين الأبيض المتماسك ، والسواد الشفاف يبرق نسيجه المُهفْهَف كالموج ، بالليل ، على رمالها الدمثة ، وهى تنفتح عن ربوة فينوس المتحدرة ، شِقها الطرى ملتئم بنعومة وشوق ، وشفتاى منطبقتان على ثمرة البلح الصغيرة الداكنة ، أستطعم سُلافتها المسكِرة ، وأنين المتعة كأنين الموت ، لم أجد فى الجسم الاجابة التى أنشدها ولوعتى اليها لاعجة ، أبدا. الطائر الأبيض الرؤوم يطبق علىَّ بجناحيه الأسودين الوثيرين ، يرفرفان ، حنانه قاتل ولاغنى لى عنه ، واختناقى فى الريش اللين كأننى أريده وآوى اليه . الغراب الحدأة الانثى الخصيبة المعطاء ، بَذَلتْ لى جسم عمرها ، وعرفت فى صدرها الطّيب قوة الحب والمقدرة على البقاء . فأين مهبّ الهواء الفسيح فى الأفق الواسع المفتوح ؟ وأين عصف الرعد بموسيقى الحرية والفرح ، ومياه المطر الهامرة ، مدراراً مُبْرِئة ؟ عدت الى حضن طائرى بعد أن أحرقنى عقيق برق العِشق ، بعد أن اشتعلتُ فِى نار العليقة القائمة أبداً لايبقى منها إلا جذع أسود الجمال ، متفحم وصلب ومستضىء ، لايسقط ولاينكسر .

كان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشيخ المراغى تاجر البيض والبصل والمسلى فى شارع انسطاسى بسبب قضيةٍ ماظلت غامضة عليه حتى الآن ، وكان بالكاد يعمل حسابات التجار الآخرين باليومية ، أو بالمقاولة ، يشتغل يوما أو يومين ، أو أسبوعا أو أسبوعين ثم لايجد شغلا بالأسابيع ، ولكنه ينزل كل يوم على الصبح ، فى ميعاده ، بعد أن يشرب قهوته التى يصنعها بنفسه على السبرتاية ،

ولايعود إلا على المساء . جفّ وجهه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة ، ولم يعد يشرب خمسينية الكونياك على العشاء إلا فى النادر ، ولكنه ظل أنيق الملبس ، أمى تنظف له البالطو بالفرشة صباح كل يوم ، والجلابية المفتوحة الحرير السكروته مكوية دائما ، تهفهف ، شقها مطوى على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق ، والطربوش حاد الدوران ، جاف الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار .

وقرأ فى اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عيّن وزيرا مفوضا لمصر بألمانيا بعد أن كان يشغل هذا النصب فى بلجيكا خلفا لسعادة سيزوستريس سيداروس باشا وترك أثرا جليلا فى التمثيل الخارجى ، وتأمل قليلا فى صورته ، بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعة والشارب المشذب ، والياقة البمباغ ، والمعطف الاسموكنج ، ممتلئا باعتدال وكبرياء .

عاد أبوه مرهقا ، هالكاً من البحث والفشل ، وسمع أمه وهى قاعدة على الأرض فى الفَسحَة تقول باللهجة الصعيدية التى تعلمتها منه رغما عنها : ياحِزْنى ياحِزْنى ... ياميلة بختك ياسوسن .. ودخل أبوه غرفة النوم وأغلق بابها على نفسه وسمعه يصلى وارتفع صوته من وراء الباب بنشيج مكتوم ودعاءٍ لله ، محروقِ القلب ، فثارت نفسه عندئذ على أبيه وأمه معا ، واعتمل قلبه بالسخط الغامض عليهما معا ، والغضب ، وهرب الى الغرفة التى فيها مائدته الرخامية أمام الكنبة ، فتح كتاباً لم يقرأ فيه ، وعندما نادته أمه على العشاء مع أخواته قال لها إن نفسه مسدودة فقالت إنها ستترك عشاءه على ترابيزة الوسط فى الفسحة وقال له أبوه ربنا يرضى عليك ياوَلَدى وينجّحك ويفرّح قلبى بيك .

قال : وقامت الحرب بعد ذلك ، وانصلحت الأمور قليلاً وانتظمت ، ودخلتُ الجامعة لأدرس الهندسة لأن أبى كان يريد أن يرانى مهندسا وبنّاء عظيما

ولكنه مات فى ثانى سنة لى فى الجامعة ولم يفرح قلبه بى .

وقال : مثل ناس كثيرين ، جدا . وليس مِثل أحد .

تيقظ من النوم متأخرا ، فوجد أن أخته التى كانت تنام على نفس سريره قد قامت قبله ، ووجد أن صباح الجمعة يمتد حائرا وخاويا أمامه . نزع ملاءة السرير المغضنة من عليه ولمّ جلابيته حوله ، وعندما فتح الشباك دخل الذباب الى الغرفة ، وكان كثيرا وعنيدا وراح يدور ويئز . فذهب الى المطبخ الكبير الخالى ، وكان معتما ونظيفا ، وإبريق الشاى يغلى على الوابور ، وإفطاره جاهز ، تسقيّة الخبز الناشف مكسر ومكوم فى صحن غويط ، وكوز اللبن المغلى بجانبه . وسمع أخته عايدة واخته الصغيرة هناء تلعبان فى البلكونه وتثرثران بذلك الذى تثرثر به البنات فى سنهن ، أيا كان ، لايسمع إلا أصواتا طفلية مستغرقة فى اهتمامها بنفسها ، تماما . وصب لنفسه اللبن على التسقيّة ، وجلس يأكل بمعلقته الفضية الخاصة به منذ كان صغيراً جدا ، وكان يصنع فى ذهنه شعرا حزينا ويردد لنفسه : « حالت من الروض وُرودُه ، وماء الحسن قد جف عودُه .. وذوى النبت ياطول ما ماست قدوده » ثم قام ليغسل وجهه

قال لأمه : عايز مصروفى النهاردة . نص فرنك . كفاية بقى . أنا ماخدتش حاجة بقى لى أسبوع بحاله .

فنظرت إليه بصمت ، وقالت : حاضر .

قال ملحا : دلوقتى : أنا نازل بعد الضهر .

فقالت مرة أخرى : حاضر ، ورآها تذهب الى دولاب الملابس ، واشتغلت بما فيه مدة طويلة ترفع الأشياء التى فيه وتقلبها وتحطها ، وعادت إليه تحمل شيئا ملفوفا فى ورقة جرنال . أعطته له فأحسه لينا وطرى الطيات فى يده من وراء الورق

الخشن الذى له حفيف .

قالت له أن يذهب الى محل الرهوناتى الذى فى آخر شارع محرم بك ، على اليمين ، بعد شارع عِرْفان ، سيجد يافطة باسمه ، اسمه يواقيم اسكندر . قال لها : آخذ كام ؟ قالت : إللّى يديهولك . وحولت عنه وجهها .

نزل السلالم بالجلابية ، لم يغيرها ، يحمل اللفة المطوية ، بعناية ، ورفع رأسه الى البلكونة المقابلة ودق قلبه لأنها كانت خالية ، وخرج من الشارع الترابى العريض الى شارع محرم بك وهو يسير بسرعة ، والترام يهتز فى صباح الجمعة الموحش ، وعربات الحنطور تجرى بجانبه تحت الأشجار . ومر من على المقاهى ، خجلا ومضطربا يتخيل أن كل الناس تعرف ، وعبر أمام محل عينو فى تقاطع الاسكندرانى ومحرم بك ، وسار تحت الأسوار الحديدية للبيوت القديمة كأنها سرايات ، بأبراجها الحجرية وحدائقها الكثيفة الشجر ، حتى وجد الدكان ، عليه اليافطة ، وبابه من الصاج المضلع ، مرتفعا فى اسطوانة كبيرة ملفوفة الى أعلى . وكان واسعا ومعتما ، والبلاط الرمادى رطب تحت حذائه القماش . وكانت المنصة الرخامية سوداء وعالية ، يقوم فى منتصفها ، حاجز من النحاس من الحائط للحائط ، له قضبان رفيعة لامعة صفراء ، متجاورة ، فى وسطها فتحة مدورة صغيرة ، ومد الرجل يده ، من الفتحة ، بصمت .

رأى وجهه الغليظ تحت طربوش قصير داكن الحافة ضيق على جبهته الناتئة ، وأنفه حاد ، أقنى ، عيناه صغيرتان قال لنفسه إن فيهما نوعا من الفهم والحزن وقال لنفسه لا ليس فيهما شىء .

انفكت ورقة الجرنال وسقطت ، وأحس فى يديه النسيج الصوف القديم بلونه البنفسجى الفاتح عاريا وسخنا من طول إمساكه به ، فتَل الصوف

واضحة ، متقاطعة ، كثيفة ، وشم نفثةً خفيفة من رائحة العرق وهَبْوةً لاتكاد تُحس من العطر الذى يعرفه . تناول الرجل الفستان من يديه ، وفرده وراء الحاجز النحاسى وهزه أمامه ، ورأى الكمّين الطويلين الضيقين ، يهتزان بين اليدين الغريبتين ، وانسدال النسيج من تحت الحزام العريض وفتحة الرقبة المشغولة بكلفة من القماش نفسه خالية ، وقال الرجل بصوت طرى ، من غير اهتمام ، وحاسم : ثمانية صاغ . وأحس صوته يخرج مخنوقا قليلا وهو يقول : طيب . وكتب الرجل على ورقة مشرشرة من منتصفها ، ثم مزقها من عند الشرشرة بصوت سمعه مفاجئا ، قاطعا ، فى عتمة الدكان الفسيحة ، ورشق نصف الورقة بدبوس فى رقبة الفستان ، وأعطاه النصف الآخر وقال له : شهر ، فَكّ الرهنّية بعد شهر ٣٠ يوم . من النهاردة .

أعطاه الفلوس ، قطعة بخمسة ، وقطعة نصف فرنك مدورة صغيرة ، وقرشين تعريفة مخرومين .

وخرج من الدكان . أعشى عينيه نور الشمس الحارقة ، فلم ير فى الشارع شيئا .

تغدّوا يومها متأخرين جدا ، نزلت أمه بالملاءة السوداء ، وعادت ومعها لفة طرية الشكل فى قطعة قماش سوداء مربوطة ، عندما فكتها على رخامة المطبخ اصطدمت بها ، بصوت مبلل ، أرجل الفراخ بأصابعها المفرودة وجلدها الخشن المجعد على العظام المحزوزة بالسكين ، أطرافها داكنة اللون ، ورؤوسها المفتوحة العيون ، ملتصقة بالرقاب ، مقطوعة ، فوق بعضها البعض ، على الرخامة البيضاء المنقورة بحبيبات دقيقة . أكلوا فتة عيش بالخل والثوم ، وشوربة فراخ .

وبعد الغداء أعطته أمه القطعة الفضية المدورة الصغيرة التى كان قد جاء

بها من دكان الرهوناتى .

جاء جابر بعد الظهر ، وخرج يتمشى معه حتى شارع المحمودية المظلل بالشجر الكثيف ، والمراكب البطيئة تنزلق على الماء الضيق الرصاصى ، وحكى له جابر عن شبين الكوم ، وعن ابن اخته فلفل وعن جارته امرأة البقال التى لم تخلف له ، وكيف نام معها فى ظهر يوم حار ونعم بذلك كثيرا ، وندم على ذلك كثيرا ، وصام كفارة سبعة أيام لايأكل إلا بعد صلاة المغرب ، فتذكر صلاته هو المُحرقة ، لإلٰهه ، وندمَه ودموعَه ، هو ، على لذاته السرية ، كل مرة ، وغرقه ، بلهفةٍ ومتعةٍ مجلجلة الضجيج وصامتة جدا وساطعة ، كل مرة ، فى موجة جسده الملتطمة . ولم يحكِ لصديقة شيئا .

وذهب مع جابر الى « كازينو غيط العنب » أمام الكوبرى . وطلب جابر اثنين شاى ، ولذعَ السائل السخن المسكّر الثقيل اللون والطعم لسانه وكاد يشرق به وأحس الدم يكاد يتفجر من عينيه . وكانت القهوة محاطة بحيطان من الزجاج والحديد ، ومشتعلة بالنور من المصابيح الكهربية القوية ، وغاصّة بالعربجية وعمال الزرائب والصعايدة يقرقرون فى النراجيل التى يغرغر الماء فى بطونها المدورة ، ويشفطون الشاى بصوتٍ استمتاعٍ عالٍ ، ويثرثرون بلهجتهم التى يحبها لانها لهجة أبيه ، وأصر على أن يدفع ثمن الطلبات ، جاء الجرسون بجلابيته التى فى مقدمتها جيب كبير مبلول ، فأعطاه كل مامعه ، القطعة بقرشين ، وكان قد حرص على أن يتلمسها وهى صغيرة ، روّاغة ، فى جيبه طول القعدة ، ليتأكد أنها هناك ، وأمام إصراره لم يمانع جابر كثيرا ، ولكنه عندما رد للجرسون القرش تعريفه الباقى ، على سبيل البقشيش ، قال جابر ، هَمّاً ، إن هذا كثير ، اثنين ثلاثة مليم كان كفاية .

ويقول لنفسه : أين أنت الآن ياجابر ؟ هل تعيش فى اسكندرية ،

مازلت ، ولك أولاد — كبار ، وأحفاد ، ربما ؟ هل مت ، وانقضيت ؟ وماأغرب هذا كله ، وكيف لم يرك هذا الصبى ، بعد ، طوال خمسين عاما أو تقل قليلا ؟ وأين ذهب كل هؤلاء الصغار والكبار ؟

ويقول : مامعنى هذا التوجّع الصعب ، وضعف النفس ، ولذع الحنين القديم ؟ وماقيمته ؟ أليس هذا كله معروفاً ومأثوراً ، قرب نهاية الأمر ؟ فما عكوفك ، المثير للسخرية قليلا ، على ماباد واندثر ؟ حذار .. خلّ بالك .

فى آخر ذلك الصيف رُصَّتْ الكراسى الخيرزان صفوفاً فى الحوش الضيق المترب ، بين حيطان البيوت المطبقة عليه . وتُرِكت مساحة ، تحت الحائط ، فيها كراسى فارغة ، مواجهة . كانت الكلوبات تئز بنور حجرى أبيض ، والمصابيح الكهربية كرات صغيرة لامعة بالضوء الأصفر معلقة يهتز بها الهواء فى حبال عرضية ، مرتخية ، بين حائطين .

الصبى يجلس ، بجلابيته البيضاء النظيفة وحذاء باتا القماش الذى اغبّر من التراب ، على كرسى غير مريح فى أول صف ، على الآخر ، جنب نافذةٍ مغلقة الشيش يتخايل من ورائها نور الحجرة ، وإلى يمينه سيدة بدينة فاض جسمها من على الكرسى والتصق به ، فى فستانها الساتان الأخضر تحت ملاءتها التى سقطت على ظهر الكرسى وراءها ، وعلى حِجرها طفل نائم بعمق فى ضجيج النداءات والهتافات وصراخ أطفالٍ يجرون بين الكراسى يثيرون التراب أو يتشبثون بفساتين أمهاتهم ، كان أعضاء التخت يجربون موسيقاهم ، أصوات العود التى ترن فى جوف الخشب والكمنجة التى تئن فجأة بنغمات خادشة رفيعة ، والعجوز الذى يلبس طربوشا ينز العرق على حافته يحضن عوده ويتمطق بشىءٍ بين فكيه المطبقين ، وبجانبه الطبّال الجسيم وجهه مدور وأسمر ومنقور بحفر جدرى قديم ، فى جلبابه الأبيض ذى الياقة الجافة المفتوحة على لغد مترجرج ، ينظر الى الناس

بعينين نصف مغلقتين من الدهن حولهما ، بجانبه الرقّاق الطويل النحيل فى بالطو وجلابية ، يداه عصبيتان وأصابعه طويلة جدا لها أظافر مدببة ولامعة ، يمسك بالرق ذى الصاجات التى تصلصل قليلا فى يده ، أما الكمنجاتى ، فى بدلته السوداء التى تبدو رمادية تحت نور الكلوب وباقته البمباغ التى تدور حول رقبته بصلابة تتدلى منها عقدة بابيون سوداء ضافية القماش على صدر قميص أبيض منشى ، فقد أسند رأسه الى يده ، وترك الكمنجة على حجره ، وبدا كأنه نائم .

ثم حدث لغط وحركة ، وانفتح الباب الخشبى المطل على الحوش ، وخرج منه أولاً صبى العالمة ، قصيرا ورفيعا فى جلابية حريرية بيضاء تشف عن فانلة رفيعة الحمالات ، تظهر من ورائها ساقاه النحيلتان ، وكان انفه أقنى ومدببا ، وحاجباه مقوسان بعناية ، وهو يقول بصوت مشروخ وسَّعْ ياجدع وسّعى ياأمى خلّ بالك ياولد ، ووراءه الراقصة تكاد تحتك بالحائط فى الممر الضيق بين البيت وبين الكراسى المصفوفة المتزاحمة الغاصة بالناس ، حتى جاءت الى أول صف ، ومرت من أمامه قريبة جدا اليه ، شم منها رائحة عطر الياسمين النفّاذ والبودرة ونفح الجسم النسائى الخاص . وكانت عارية إلا من بدلة الرقص اللامعة الصفراء تلف على الثديين المحبوكين والبطن المدور بترتر فضىّ صغير سريع الاهتزاز ، فى حركتها ، ولحم الثديين مكور مضغوط نصفه ظاهر ومسكوب من النسيج المزدحم بحشوه اللين ؛ نوع من موسيقى الرشاقة المنسابة ، كانسلال القطط الممتلئة ، فى حركة ساقيها القصيرتين نوعا ما ، والبطن المقبب المحبوس فى القماش تحت السرة التى وقع النور على غورها المدور القريب وعلى الردفين الممسوكين بقَمطة سوداء عريضة ذات شراشيب ، يهبط منها ، حتى الأرض ، قماش أسود شفاف بخروم دقيقة مفتوح نصفين ، علق التراب بأطرافه السفلية ، وفيه مزقة طويلة مرتوقة بخيط أسود ضيق الغُرَز ، شعرها خشن وقصير صلب الشكل ، وعلى وجهها الأبيض المربع العظام المفروش بالبودرة ، لا مبالاة ، وتحدى البذاءة ، وفى عينيها المكحولتين بثقل والجاحظتين قليلا ، نظرةُ بلادةٍ ووخامة أرضية ، ورأى على ذقنها المنحدر للوراء

نقطة وشم زرقاء باهتة . وعلى الفور انتبه التخت ونشط ، وناح العود نواحا ضعيفا والكمنجة تصاحبه بينما دقات الطبل تحت اليد المكتنزة.الأصابع تتتابع وتتسارع .وقف الرقاق بجسمه الضاوى المشدود يهز الصاجات وراء الراقصة، فانخرطت مباشرة فى هز جسمها ببطء وكسل يمينا ويسارا ، ورفعت ذراعيها المدملجتين ، عليهما أساور فضية ثقيلة ، عن الإبطين بطياتهما الصغيرة داكنة اللون قليلاً مكان الشعر المنزوع ، وأخذت تتحرك على إيقاع التخت فى المساحة المتربة الضيقة أمام الكراسى ، حذاؤها الذهبى الناصل اللون يضغط بسيوره الرفيعة على لحم قدمها وأصابعها الغليظة . اقتربت منه جدا ، ثدياها يترجرحان فى ضيق البدلة ، وبطنها العارى يهتز ، فوقه السرة الدقيقة المعجونة بليونة ، وتحته القبة الصغيرة كاملة التدوير فيها شق واضح غائر بين الخدين الصغيرين تحت النسيج الأصفر الملتصق ، محدَّداً بأقراص الترتر السريعة التموج ، ورأى أن أطراف النسيج ناصلة ومفكوكة الخيوط ومُشَعَّثة قليلا . ابتعدت فجأة ، واستدارت إليه بظهرها وردفاها يتراوحان فى كتلة واحدة كبيرة ، وأحس بين ساقيه بالتوتر الصلب يفضحه نتوء الجلابية ، وتضرّج وجهه بالدم ، كانت البودرة قد ساحت قليلا على ظهرها ، وشقَّ العرق فيها خطوطاً رفيعة لامعة ، والطبلة تدق بعنف متلاحقة الضربات ، والصبى قد تسمرت عيناه بالجسم الجميل العارى الذى يلف ويدور وينحنى ويقوم يرتعد وينفجر ويهدأ ويميل ويتحرك ، بلدونة وآلية معا ، على ضبط التخت وأنينه ، كأنه مشدود الى الموسيقى الخشنة بخيوط غير مرئيّة ، وكأنه فى الوقت نفسه شيء منفصل ، يقوم بعمل مرسوم ، مخطط ، لاصلة له به . حتى انقطع التخت فجأة ، وصمت .

عاد اللغط ، والنداءات ، وصراخ النساء على أولادهن ، وعادت الراقصة الى البيت من الباب الخشبى المفتوح على الحوش . ثم انفتحت النافذة المجاورة له تماما ، فتحة صغيرة مواربة ، ورأى ، من الشق الطولى ، صبى العالمة النحيل

القصير ، خصل شعره الأسود لينة على وجهه الأسمر الطويل ، وهو ينحنى يفتح حقيبة من الخشب . تناول من بين الأشياء الكثيرة فيها علبة مدورة كبيرة عليها رسمُ ورد ملون ، وحَفن منها حفنة بودرة ، وراح يمسح على ظهر الراقصة ، وبطنها وفخذيها ، وذراعيها ، وأعلى صدرها ، بنظام وترتيب ، يجفف العرق بالبودرة ، بيدين مدربتين حاذقتين ، فى حركة بطيئة فيها ملاطفة ناعمة نسائية الإيحاء ، ورأى أنه هو أيضا متوتر وهناك نتوء مرئىّ تحت جلابيته الحريرية الشفافة المنسدلة عليه تهتز وهو يعمل ، وسمع الراقصة تضحك فجأة بخفوت وكأنما بمتعة وملل فى الوقت نفسه وهى تقول : خلصينى بقى ياأختى ، وَرَانا شغل تانى . وفوجىء بهذا النداء . وقام بسرعة قبل أن تعود الراقصة للحوش ، ولف من وراء البيت . وقف فى الشارع ، فى هواء الليل ، أصوات الفرح المختلطة غامضة الآن ، تحت سماء داكنة الزرقة حريرية الملمس ، مثقوبة بنقط فضية لامعة ، حتى جف وجهه الغارق فى العرق قبل أن يصعد السلالم الى بيتهم ، ووجد صحن الفول على ترابيزة الوسط فى الفسحة ، وأكله بشهية وجوع وغضب .

فى الليل ، فى ضوء المصباح الكهربى القوى ، كان وحده ، على الكنبة الاسطمبولى ، وحده ، يقرأ رواية السهم الأسود على مائدته الرخامية البيضاوية المفروشة بكتبه وقواميسه ، والى جانبه دولاب الملابس العالى ، خشبه البُنىّ لامع ومصقول ، وعلى كلٍ من ضلفتيه مرآة بلجيكى سميكة بللورية النقاء . ساقان بيضاوان يومضان باللحم الناعم وينضمان على المثلث المقبب المَمْسود ، والنسيج الأسود الساتان يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهى تحت تكور الردفين بنمنمة الدانتيللا ، يتراوح سوادها المشغول بين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنزى المتقلب الذى يحتضن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعة المحبوسة ، حتى تنبجس ، من جديد ، سورة مياه الطوفان ، ويتقوض الجسم .

جاء من محرم بك ، مشياً ، الى محطة الرمل ، ترك وراءه أحزان صباح ثقيل

السحاب فى سماء الاسكندرية الفضية ، المقفلة على نفسها فوق البحر ، وعَبَر السلسلة ، ووقف عند الشاطبى . ترك الكورنيش ، ونزل على سلالم متعرجة منحوتة فى الصخر المتآكل الزلِق تحت قدميه ، وكانت السلالم تغوص فى مياه بحرية هادئة ويهتز موجها فى دوائر تتسع حتى تصل الى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة ، رغوتها متقلبة الزبَد . وتحت قدميه العاريتين ، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر ، طحلب مخضر كث الوبرة ، مُخْضلّ بالبلولة اللزجة ؛ اذا انحسرت عنه موجه الماء الشفافة ، الهفهافة القوام ، جف الطحلب بسرعة ، واصفر لونه قليلاً ونشف الماء تماما . يبيضّ جسد الطحلب شيئا فشيئا فاذا هو غضّ وناعم وأملس يلتف بلدونة ملتصقا بحافة الصخر الدائرية ، حتى يرتفع الماء فجأة ، ويلطمه برفق ، فيبتل من جديد ، ويعود أخضر غضِرا كثيف اللحم .

النور يأتى من فتحةٍ علوية واسعة منقورة فى السقف الحجرى مضطربة الحواف ، فيغمر هذا الاتساع الداخلى المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قليلا متلوية الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد . وينفتح ، إلى جانبه ، فى الجدار المحبب ، نفق متحدر نصفه العلوى القريب منه جاف ، مدور ، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كثيرة ، ثم يهوى النفق الى الماء وتلتطم الأمواج فيه ويرتفع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيز الفراغ فوق الموج حتى يغوص النفق تماما فى الماء الذى يملؤه ، بلونه الأزرق الداكن ، حتى العمق المدفون الذاهب الى تحت فى ظلمة القاع .

يعرف أن فتحة النفق التى تدعوه مُغوية ، ومُفضية الى التهلكة ، وينزل بثقة على سلالم يعرف أنها ستهبط به فى الماء ، إلى كهوف أخرى ، واحداً بعد واحد ، منقورة كلها فى قلب صخر البحر الداخلى ، تحت الأمواج ، عالية وفسيحة يهب فيها نسيم رقيق ملحى الطعم ، منيرة بضوء خاص من غير شمس ولامصابيح ولاشموع ، فيها فتحات على الرمل الأبيض الذى تغمر سطحه ، بالكاد ، مياه

قليلة ، مترجرجة .

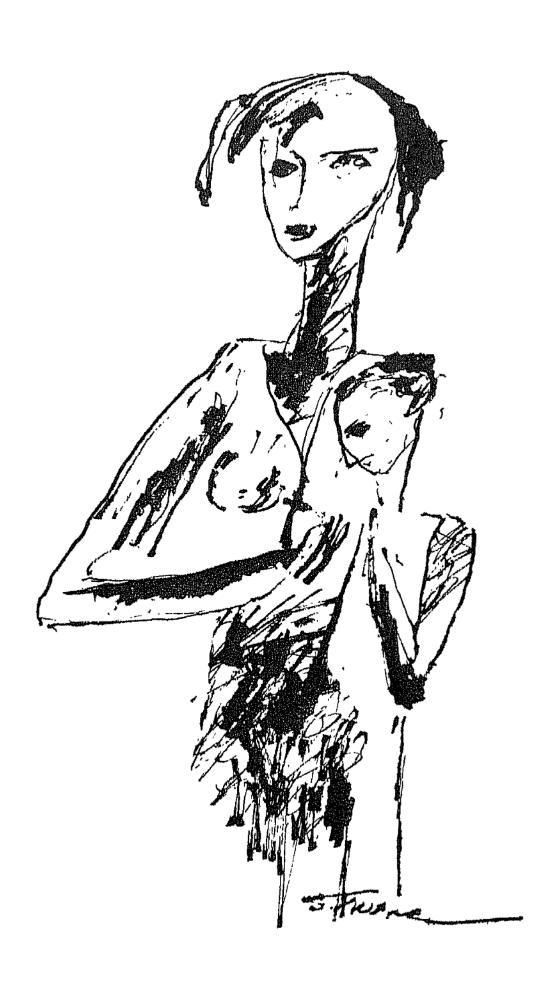
حتى وصل بعد رحلةٍ لاجهد فيها ماشياً كأنه يسبح فى الهواء ، الى أرض رملية فسيحة غارقة فى شمس السماء تحيط بها أسوار النحاس المُصمتة العالية ، سميكة وساخنة ، إنْ دَقَقتَ عليها جاءك صدى أجوف عميق ، لاباب فيها ؛ دائرية تماما ولكن شاسعة لايكاد البصر أن يحيط بدائريّتها المرمية على أقصى سعة الافق ، بإحكام لامنفذ منه ، ولارغبة له فى الخروج منها .

وإلى هذه الساحة الرملية الخاوية سوف يخرج ، بعد أن يغتسل ويتطهر فى البحر الملح .

يخرج اليها والماء يقطر منه ، يضع رأسه على فخذيها اللدنتين العاريتين ، وهى جالسة على الرمل ، تبتسم ، وشعرها الفاتح ينسدل على كتفيها الرشيقتين ، ويغمض عينيه بالقرب من بطنها المدور المحبوك ، ويرى ، من خلال جفنيه المطبقين ، دوائر مشعة ملونة بالأحمر الداكن ، تتسع وتتسع وتضيع ، ويأتى بعدها نور حريرى ناعم لا ألوان فيه .

وأعرف أن الظلال السوداء عندئذ ، سوف ترفرف علىّ ، وتسقط ، من السماء الخاوية .

لماذا أنثر حبات قلبى على الرمال ، تحت أقدام العابرين ، مَنْ سوف يلتقطها ؟ وماذا سيفعل بها ؟



٦

النوارس بيضاء الجناح

سمع الطفل رفرفة أجنحة الملاك .

غرفة نومه كأنها واحدة ، متكررة فى بيوت متعاقبة ، دافئة وليلية ومزدحمة بالسرير العالى ذى الأعمدة الأربعة ، داير السرير التُلّ الأبيض المخرَّم ، عليه نقوش مشغولة ، لسلالٍ مخصوفة متهدلة بالورد المفتوح ، يحاصره من فوق ، ثابتٌ وساقط فى النور . لمبة الجاز نمرة خمسة معلقة على الحائط ، كأنها قريبة إليه جدا ، شُعلتها البيضاء مدببة ، لسانها رفيع صاعد يذوب فى سنٍ من النار ترتعش وتتجدد من وراء زجاجها الرقيق .

والألم فى أذنه كان ثاقبا ، ودائما ، لايخفّ ولكن ينبض ، يهزُّه بإيقاعٍ متكرر ، مستمر . والطفل كان قد قبل هذا الألم الذى لم يكن الرجل يقبله ، أبدا . ورقبته كانت ضخمة ، متورمة تملأ عليه إحساسه ، ملفوفة بربطة بيضاء عليها قماش ملوى بعضه على بعض ، طرى بشىءٍ لزج وداكن اللون . والنار كانت فى وجهه ، ورأسه ، كأنها قد أصبحت مادة جسمِه نفسها . كان قد سكت الآن يُغفى قليلا كأنه يحس أنه نائم ، ويستيقظ ، فى الليل ، وكأنه نائم ،

ودقات الوجع الممزّق فى جانب وجهه ، منتظمة بإصرار لاينتهى ، وهو يرى شعلة النار الدقيقة باردة ، وكبيرة .

كانت أمه راكعة تحت سريره ، لايرى فى عكس النور إلا ظُلمة رأسها المحنىّ المسنود على حافة السرير ، وشعرها القصير المضطرب كتلة واحدة من غير تفاصيل . وكان يسمع من خلال خبطات الألم المسدودة ، صوتها الخافت الحار المِلِحّ ، تصلىّ .

قالت له : كان عندك سنتين ، يمكن ، تلاتة . وكنت هتروح منى .

وقالت إنها سَبَحت على بحر الليل بطوله ، وإنها نذرته للملاك إنْ وصل للبر .

كان راقداً لايتحرك الآن ، جسمه يتقد بهدوء ، ساكناً بسطوع الألم واللهب المستديم ، ولم يكن للخوف معنى ، بعد ، ولا للحركة . وعندما بهتت شعلة لمبة الجاز واصفرّت ، آخر الليل ، وبطنها الشفاف أصبح داكنَ الزجاج قليلا ، ودخل فى الغرفة مايشبه نورَ الاشياء عندما لاتعود مظلمة ، كانت أمه قد تركت رأسها على حرف السرير ، وهى مازالت راكعة ، ولكنها كانت هادئة تماما ، منتظمة الانفاس ، نائمة . كان الليل ، فى آخره ، صامتا ، فسيحا جداً وصامتا .

عندئذ سمع رفرفة الأجنحة ، واهتز داير السرير فوقه ، وتموّج ، وهبَّت فى الغرفة المقفلة الكثيفة أنفاسُ ريح باردة منعشة ، وكأنها نفحةٌ من بخورٍ خفيف ، عَبِق بعذوبةٍ لم يعرفها أبداً من بعد .

ولايذكر شيئا آخر .

كُنّا فى بيت بسيونى ، فى شارع الأنهار الذى ينتهى ببيت أم توتو .

وله شرفة واسعة تطلّ ، عبر الشارع الترابى النظيف ، على جنينة فيها شجر ونخل ، وكانت أمى تقوم فى آخر الليل وتعجن فطير الملاك فى قصعة فخار واسعة ، فى هذه الشرفة ، وأستيقِظُ على طبطبة العجين فأجرى حافياً وأقف أراقبها ، وفى أول الصبح تأتى أقراص الفطير سخنة من الفرن ، هشة ، مكورة ومنداحة قليلا ، وجهها محموش محروق الصفرة لامع من زيت السيرج وعليه النقوش باللغة القبطية والصليب المُورق الأطراف . وكانت أمى ، كل سنة ، تضع الأقراص فى « كرسى عباس » زجاجىّ كأنه زهرة بلورية ضخمة مفتوحة التويج ، ساقها الرشيقة قائمة تومض فى الضوء ، تحمل السَعَة الشفافة الرقراقة المُضلّعة ، وترسل منها فى أطباق واسعة مسطحة من الصينى الأبيض المنقوش بزهور صغيرة زرقاء الى الجيران والحبايب ، أم محمود ، وأم حسن ، وأم توتو ، وخالى حنا ، وخالتى لبيبة ، وكان جيرانها وحبايبها من المسلمين يرسلون إليها أطباق العاشوراء فى موسمها ، وأباريق الخُشاف فى رمضان ، ونتبادل أطباق الكعك والبسكوت والغُرَيِّبة والقراقيش باللبن ، فى أعياد القيامة والأضحى والميلاد والفطر ، مكسوةً بفُوَط ناصعة البياض ، مكوية ، أو ملونة بمربعات ذات شراشيب ، وتظل أمى تقارن بين فضائل كعك كل جارة وعيوبه ، لدونة العجميّة فيه أو صلابة قوامه ، ونعومة الغُرَيِّبة أو حُبَيبيِّتها ، وتُخمّن ، بالتذوق والاستطعام ، نوع السمن ، بقرى أو جاموسى ، صعيدى أو فلاحى ، المصنوع منه البسكوت .

ومن هذا البيت أخذتنى خالتى سارة ، من يدى ، أول مرة ، وذهبت معى الى روضة الكرمة القبطية الأرثوذكسية فى شارع نزيب . وكانت خالتى سارة صغيرة لاتكاد تكبرنى إلا بسنوات ولكنها كانت « الألْفة » فى دروس مدارس الأحد التى تقام فى الروضة بعد خروج الكنيسة ، تنظّف الغرفة الكبيرة وتعدّها وتمسح السبورة وترصّ أصابع الطباشير الملونة بالأحمر والأصفر والأخضر ، وترتّب الصور الدينية التى تُوزّع على الصغار مجانا ، وتجمع كتب الترانيم بعد الدرس .

ويومها كانت الدنيا قد أمطرت طول الليل ، وكان الشارع موحلا ، وكان حذائى الأسود الجديد يغوص فى الطين ، وهى تمسك بيدى ، وشرابى الأبيض الناصع انتثرت عليه نقط الماء الطينى الأسود وحزنت عليه جدا ، ودخلت معها غرفة الناظر ، وجلست على كرسىّ عالٍ علىَّ جدا ، وكان على حيطان الغرفة المدهونة بطلاء أصفر لامع صور معلقة للأسد والجمل والزرافة ، وخريطة لمصر ملونة بالأخضر والأزرق والبنى المُحْمَرّ ، وفى أسفل الصور الورق المبطنة بالقماش المسدلة بين قضيبين خشبيين عرضيّين ، بلونٍ داكن ، كتابةٌ عرفت بعد ذلك بكثير أنها بالعربى والانجليزى وتعلمت أن أقرأ أسماءها .

دخل منصور أفندى الناظر ، طويلاً ، قائم العود ، صارما وحنون النظرة ، وجهه أسمر وفيه نُقَر الجدرى القديمة الدقيقة الغائرة ، وأحببته على الفور لأنه سلمَّ علىّ باليد ، وكلمّنى كما يكلم الرجال ، ومعه مس كاترين ، نحيلة وبيضاء الوجه كالأطفال وشعرها البنى الفاتح ينهمر ناعماً ومصقولاً على كتفيها ، وقبّلتنى على خدى ، وكانت هى التى علمتنى الأبجدية بالانجليزى وأن أقول الأرقام واستهجّى كاتْ .. ماتْ .. مانْ .. رانْ .. تحت صور القطة والحصيرة والرجل والولد الذى يجرى بلا توقف .

وعندما رجعت من الروضة ، مليئاً بالأخبار والحكايات ، كانت أمى قد ذهبت ، بالملاءة السوداء ، إلى حلْقة السمك فى الأنفوشى ، ورجعت بالترام الى غيط العنب ، ومعها شروة سمك ، بلطى وقراميط وثعابين ، وجنبرى . وقبل أن يغلبنى النوم دخلت المطبخ ، أشرب . وكان مظلماً تماما فى أوّل الليل ، وبمجرد أن عبرت باب المطبخ انخطف بصرى ، وتوقفت ، مسحورا .

كان الجنبرى الكبير شفافاً ومنيراً فى الظلمة ، طافيا وممدداً فى الطشت

النحاس الكبير المملوء بالماء ، على الأرض . كل واحدة على حدة ، إحداها فوق الأخرى ، وجنب إحداها الأخرى ، تلمع بنورها ، مرسومةً بخطوطٍ فسفورية مضيئة فى عتمة الماء ، من الرأس حتى الذيل ، والخيوط الرفيعة السوداء تُحدّد هيكل العظام الدقيقة ، واللحم الأبيض متوهج تحت القشرة الهشة ، يَضُوء باشعاع ساطع ، وذيولها تتحرك أهون حركة ، ترسل فى الماء الذى يغمرها بالكاد رعشاتٍ صغيرة .

وأحسست بموسيقى الموت البطىء .

هذه الموسيقى كنت أحسها ، خفيةً وتسحرنى ، كأنما تترقرق فى زجاج الصورة التى يحيط بها إطار خشبى عريض بلون الجوز ، وفيه الرجل برأسه الأصلع المدوَّر ولحيته الشهباء ، متّقد العينين ، ينحنى على الطفل يسوع الذى تشع هالة من نورٍ فضىّ اللون حول رأسه الصغير ، والرجل قد ألقى على إحدى كتفيه حرملة حمراء فوق القميص الأزرق اليانع الواسع التقويرة على صدره العظْمىّ ، والطفل يرفع إليه عينين واسعتين مدهوشتين . وعندما كبرت كنت أحب أن أنظر الى هذا الشيخ ، كثيراً ، وأحس حنانه . قلت لأبى : صورة مَنْ ؟ قال أبى : كان رجلا باراً تقيا . أوحَى إليه الملاك أنه لايرى الموت قبل أن يرى الرب . سمعان . سمعان الشيخ . وقال لى أبى : أنا تعبت ياولدى . جاهدت الجهاد الحسن . فقط تتخرج أنت ، وتأخذ شهادتك . حتى أستطيع أن أقول وقلبى مرتاح : « أكملت السعى ، وحفظت الإيمان . الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عينىّ قد أبصرتا خلاصك » .

وفى ليلةٍ باردةٍ جداً من ديسمبر كنت فى غرفتى أُذاكر ، وأرسم تصميماً لانهاية له ، بالمسطرة والمثلث والبركار ، وكانت الواحدة صباحا . سمعت الشهقة فقط ، فى صمت الليل ، شهقة واحدة ، حادة ، انقطعت مرة واحدة . جاءت أمى تجرى إلىّ : أبوك .. أبوك .. إلحق هات دكتور .

لما رجعت من ظلمة الليل فى اسكندرية كان الهواء حاد البرد ، وكان قد مات . بسلام .

لم أكن قد أكملت سعيى ، ولم أكمله . ولم أعرف — حتى الآن — مناالخلاص .

فى حارة الجُلّنار فى راغب باشا ، كان البرد فى بيتنا لاذعاً للعظْم ، ولكنه لم يكن أبدا جافاً ولا قاسيا ، بل مبلولاً بشكلٍ ما ، ورطب الهواء . وكنت أنزل أشترى الفحم من عم عبده البقال ، ونضع قطع الفحم الهشة ، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصبوبة عليها ، على التراب فى الموقدة الفخار ، وعلى أصابعنا آثار سواده الناعم ، يدخّن الفحم قليلاً برائحةٍ نفاذة ، ثم تتطاير ألسنة النار الصغيرة ونحن ننفخ عليها ، حتى تتقد حبات الفحم وتسطع ويتحول جسمها الهشّ الى جمراتٍ متوهجةٍ الحمرة فيها خطوط رقيقة أكثر اتقّاداً وحمرتها أكثر التماعا ، وتتكون عليها طبقةٌ من رماد أبيض كالدقيق ، وتظل محتفظة مع ذلك بشكلِها ، وتَكَسُّرِ حناياها الحادة وطبقاتِها المتراوحة الحمرة ، ولاتنهار إلا اذا حرّكنا الموقدة ، وجدّدنا الفحم ، ووضعنا عليه حبات « أبو فروة » بقشرها البنىّ الجاف المتجعد ، نتخاطفها سخنة ومحمرة البطن ولها عبَق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير فى الفرن .

وكان أبى يجلس على الشلتة ، على الأرض ، وأمامه الطبليّة المنخفضة ، وعليها خمسينيّة الكونياك ، وشقائق البيض المسلوق المقشر وقد عُصِر عليه الليمون ، ووِرْك الفرخة المحمَّر ، وشرائح الجِبْنة التركى الصفراء يابسةً ومشققة وندية فى الوقت نفسه بزيتها الناضح من لحمها الداخلى ، وأرغفة الخبز الصغيرة المقبَّبة وجهها المحموش الرقيق مغروسٌ بحبّة البَرَكة المنقّطة والسمسم السريع التفتّت . وكان يحكى لنا حكايات ، ويضحك قليلاًجدا عندما أُغالط أخواتى فى عدد أبوفروة وأستولى لنفسى على واحدةٍ أكثر ، ولايأخذ منه شيئا .

المطر يقرقع على زجاج الشبابيك بإيقاع مضطرد سريع ، والدفء داخل الغرفة يصنع غشاءً كالضباب ، رقيقاً على لوحة الزجاج الخارجية ، وأرى أنوار الحَارَة من خلال نداوة الماء المُغَبَّشة على الزجاج كأنها نجوم صغيرة كثيرة متشععة ، وعندما يَنْعَقُّ البرقُ فى خطفاتٍ ساطعة تثب فيها البيوت وسطوحها وسحب السماء فى ضوءٍ فضىّ باهر ثم تختفى ، تتلوها بعد ثوان قرقعة الرعد المليئة الصدر ، يُجلجل متلاحقَ الارتطام ، كالطبل الضخم ، كان قلبى يبتهج جدا ، وتصرخ عايدة أختى صرخة صغيرة وتجرى هناء إلى حضن أمى ، فتضحك أمى ويُهدىء أبى من رُوعها ، وأحس مع ذلك لمسةً من الخوف تحبك البهجة أكثرَ إثارة وأكثر توهُّجا ، وإحساساً بالأمن والكِنّ فى الغرفة التى دفئت ، وطابت ، والفحم قد صفا ، نارُه رائقة ، وبعد اصطفاق صنوج الرعد الهائلة الفسيحة المدى يكون للفحم حسيسٌ خافت ، ووشيش مكتوم فى اشتعاله الفرِح الهادىء .

وفى الحرب غلا الفحم ، وشحّ ، وكنت فى الثقافة العامة ، أتدفّأ بوابور الجاز ، أضعه يفح ويئز أزيزا متصلا ملهوفا ، فوقه كوز ملىء بالماء ، جنب رِجلى ، وأنا أذاكر دروسى على مائدتى الرخام المثقلة الآن بالكتب ، أو أفتح « كتاب التنين للشعر » طبعة أكسفورد ١٩٣٦ ، بجلدته الصلبة الزرقاء الداكنة ، وأقرأ شيلى ، بالانجليزية ، يتغنى بأوزيماندياس ملك الملوك الذى تحت ساقية الهائلتين المكسورتين تمتد الرمال موحشةً ومُصوِّحة ومُسوَّاة الى بعيد ، بينما الغرفة تمتلى برائحة الجاز المحروق الممتزج ببخار الماء ووشيش الوابور المستمر ، وكان اسم أوزيماندياس يسحرنى ، وأمجاد الهوى المشبوب الذى نَحَتَه شيلى فى وجهه المقوَّض المُلقى على الرمال السخنة تزلزل قلبى ، بينما يسقط المطر يدقُّ خشب البلكونة المقفل دقاتٍ متلاحقة ، لاتنقطع ، تجعل جسمى المُتوتِّر مشدودَ الجوارح ، لاينطفىء . وكانت شهوات الصبا ومعاشِقُه حادةً ناتئة الشظايا .

وكأنما كان أبى يسير معى ، ممسكاً بيدى ، وأنا أسير فى شارع الفراهدة

فى أول المساء ، وأعمدة النور معلقة بها الكرات المدورة الزرقاء تُريق ضوءها الشاحب ، وكنت أفتقده جدا ، ومخازن الخشب العريضة مقفلة الأبواب . ظهرت من آخر الشارع جماعة من العساكر الانجليز ، يجرون وراء بعضهم بعضا ويصرخون بأصوات ثاقبة ، صبياناً فى مثل سنى ، سكرانين من يقينِ الموت القريب ، محترقين بلذعات الأجسام المقضىِّ عليها من الآن ، وأهل البلد القلائل يسيرون بسرعة ، على جنب ، فى حالهم ، ويتبع العساكر ولد سَفْرُوت أكرت الشعر ، على ساقيه السوداوين الممصوصين شُورت كاكى واسعٌ ومقطوع ، وعلى كتفيه جاكتة بحّارى زرقاء باهتة فى نور الليل ، حافى القدمين ، أراه يقتفيهم بحذر وتربُّص حتى يهدأ ضجيجهم قليلا ، فيقترب بجرأة ويدخل معهم على الفور فى مفاوضات سريعة منخفضة الصوت وملحّة ، بإنجليزية شوارع اسكندرية فى الحرب ويقودهم بثقة وهم ينحرفون معا فى حارة جانبية مظلمة . وأنا أمر أمام البارات الصغيرة ، متعاقبة فى الشارع ، تتدلى فوق أبوابها فوانيس محمرّة داكنة على اللافتات المكتوبة بالانجليزية : القط الأسود ، كنج جورج ، نجمة لندن ، الحصان الأبيض ، والباب ينفتح فجأة عن نورٍ صاخب مدخّن يقطع أسفلت الشارع وموسيقى حادة ولغط الشرب ودندنة السكارى وطنين الحديث تقطعه ضحكة نسوية فاقعة ثم يصمت فجأة بارتداد الباب ، ويعود الظلام .

بعد سنة أو أكثر من موت أبى كنت أشتغل مساعد مخزنجى فى مخزن ٦ للبحرية البريطانية ، فى كَفْر عَشْرى ، وأواصل دراستى الهندسة . أستيقظ من النوم فى الخامسة صباحا لكى أفتح المخزن فى السادسة ، وأعمل حتى الثالثة بعد الظهر . وكنت أنقل المحاضرات من صديقٍ نوبىّ دمِث الوجه ومنخفض الصوت دائما، ذهبتْ به أمواج الأيام عن كل شواطِئي، ولم ألتقِ به أبداً بعد أن تخرجت ومازال صوته الهادىء يطوف بى حتى الآن . وكنت أستأذن أحيانا من مسترلى ، رئيس المخزن ، لكى أخرج أحضر العملى أو أقدّم المشروع ، فكان يأذن لى ،

غالبا ، بل يأمر سائقه اليونانى المجنّد فيوصّلنى لغاية الكلية فى محرم بك ، بسيارة جيب مفتوحة من سيارات البحرية البريطانية ، وأعود بالترام ، وأشتغل ساعتين أو ثلاثا فى دورية بعد الظهر فيحسبها لى أوفر تايم أولا يحسبها ، حسب المزاج ، أو أخبار الحرب . وعند وصول البواخر بشحنات جديدة أطبّق ورديتين فأصل بيتنا فى راغب باشا قبيل منتصف الليل ، ميّتاً من التعب ، واذا وجدت أن عباس قد ترك لى الكشكول أسهر فى نَقْل المحاضرة ، ومع ذلك أقرأ فى السياسة أو فى الشعر من مجلات كانت تصل إلىّ بالبريد من فرنسا وانجلترا ، قبل أن أنام لى ساعتين ، وتوقظنى أمى فى الخامسة ، وأخطف منها خمس دقائق نوم زيادة ، ثم ألحق بأول ترام فى شارع راغب باشا وأغيرّ إلى ترام القبارى ، وأفتح المخزن فى السادسة .

كنا فى ١٩٤٤ ، وكنت فى الثامنة عشرة ، ومزعزع الإيمان وشديد الوَرَع ، غارقاً فى جسمى وطُهْرانياً لم أذهب إلى امرأة قط ، وأعتبر نفسى « حر الفكر » وسوادوىّ المزاج ، على الطريقة الرومانتيكية .

وكنت فى مخزن ٦ مسئولا عن العمال المصريين ، أشغّلهم وأترجم لهم وعنهم وأحسب أجورهم . وفى الأوّل كنت غريباً بينهم ، قليلا ، ولكننى عندما أكلت معهم العيش والملح والبطاطس المقلى والجبنة التركى ، وتعلمت أن أشخر لهم بالاسكندرانى وأن أشتمهم بالأب والأم والمِلّة ، حتى الآخِر ، وأطلب لهم مكافآت خاصة فى الوقت نفسه وأزوّر لهم قليلاً فى الأجر الاضافى ، ووصلنا الى اتفاق عام مُضمَر بالتغاضى عن السرقات الهايفة فأقيّدها فى الأذون والدفاتر « خسائر » أو « مفقود عند التفريغ » وأن أبلغ فقط ، مع الريس نونو ، عن السرقات الكبيرة المحترمة ؛ عندئذٍ قبلونى واحداً منهم ، وكنا نعزّ بعضنا البعض جدا . ومازالت أحنّ — بسذاجة — إلى صحبتهم .

ليلتها ، بعد أن انصرفتْ الوردية الثانية ، فى العاشرة تماما ، قال لى مسترلى

أن أنتظر ، ودخل مكتبه الزجاجى وتكلم بالتليفون ، ونادانى وقال لى إن عندنا وردية ثالثة طوارىء ، وإن باخرة وصلت الآن فجأة بشحنة كبيرة ، وإن سيارات النقل العسكرية ستصل من الميناء فى أى وقتٍ الآن . وقال إنه متأسف جدا لأن سائقه اليونانى قد أخذ السيارة ليعيد التذاكر التى كان قد حجزها لحفلة الساعة التاسعة فى سينما روياِل ، وإنه سيصرف لى بدل انتقال لأن علىَّ أن أذهب الى بيت الريّس نونو أكلفه أن يتولى جمْع العمّال ، بما فيهم عمّ على الوِنْشمان ، والأسطى مُرسِى النجار ، من منازلهم ومقاهيهم ، وإننا سنشتغل ، كلنا ، ومعنا مستر ويلز ومستر رينشو حتى نفرّغ الحمولة ونرصّها فى المخزن . وأعطانى عنوان الريس نونو : ٣١ حارة القاضى الفاضل المتفرع من شارع الفراهدة ، وقال إن الساعة الآن العاشرة وسبع دقائق ، وإنه ينتظر الريّس نونو والعمّال فى تمام الساعة الثانية عشرة وقال : « الثانية عشرة ، على دَقّة الساعة ، من غير معلهش » فقلت له ، بحدّة : « الثانية عشرة ، على دَقّة الساعة ، وليس هناك معلهش ، ومن فضلك لاداعى للأفكار الجاهزة ولا للانحيازات ، لأن أولاد البلد — هؤلاء النِيتفز أو الوُجْز كما تقولون — يعرفون معنى الواجب والشرف فى العمل » . فابتسم لى بعينيه فقط من وراء زجاج نظّارته السميكة قَعْر الكوب ، وقال « رايْت أُو » . فقط .

ركبت ترام السبع بنات ، ونزلت فى محطة كركون اللبان ، وخرّمت على الفراهدة مباشرة . لماذا افتقدتُ أبى ، فجأة ، وأنا أسير فى الشارع ، بأنواره الزرقاء ، وباراته ، وبيوته الغامضة ؟ .

انطلقتْ قريباً جداً مِنّى عربة حنطور مثقلة بالعساكر الأستراليين ، مكوّمين فيها فيها ومتدلّين من جانبيها ومعلّقين بمؤخرتها ، بقبّعاتهم المدوّرة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة ، عملاقٌ منهم أخذ مكان العربجى الذى انحشر جنبه فارغ اليدين مُسلما أمره لله ، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان فراح يعدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة الى جانبها بخطورة ، والأسترالْ يصفّرون

صفيرا ثاقباً يائساً ويصرخون باستماتة : هَا .. شي .. شي ، بأعلى أصواتهم ، فى صمت الشارع الخالى .

وجدتُ حارة القاضى الفاضل مباشرةً بعد أنقاض البيت الذى سقط عليه طوربيد طليانى ، السنة التى فاتت ، وتكومت أحجاره القديمة وترابه وخشبه ونَبَتتْ فيها عناقيدُ مُلْتفَّة من النباتاتِ والحشائش شَكْلُها بالليل مهدِّد ، وكانت رائحة البحر دافئة .

عندما دخلتُ الحارة الطويلة أحسست بأمانٍ أكثر ، كانت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة، ومظلمة كأنها لاتغلق أبدا ، ورأيت جماعات صغيرة من العساكر الأفريكان السود الضخام ، والانجليز الشُقر الناحلى القامات ، وعدداً قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطى الخفيفة أو البنطلونات ، معظمهم كبارٌ فى السن جدا ، يخرجون ويدخلون البيوت بصمتٍ وسِرِّية . ومررت ، وأنا أحاول أن أقرأ أرقام البيوت ، على بار واحد ضيّق الباب وعليه كلمة واحدة بالانجليزية « بار » تومض وتنطفىء لمبة كرويةٌ حمراء فوقها ، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكِبْدَة والطحال ، عليها صينية مدوّرة فوق وابور جاز يفحّ بصوتٍ واضح أبحّ فى سكوت الليل ، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تَفغَمنى وتفتح نفسى للأكل .

وصلت البيت رقم ٣١ ، وخرج إلىّ من الظلمة وراء الباب ، فجأة ، رجل طوال ومخروط الوجه وشمعىّ اللون ، يعرج قليلا خفيف الساقين سدّ علىّ الباب وهو يسأل بخشونة : رايح فين يافندى ؟ بلهجةٍ ممطوطة ومُنذرة . ترددت لحظة ولكنى أجبت طائعا : عايز الريس نونو . مش دانمرة ٣١ برضو ؟ فنظر الىّ نظرةً ثاقبة كأنه يزن صدق ، ومعدنى ، وأفسح الطريق بخطوةٍ جانبية مفاجئة وقال : اتفضل . الكاتْ التالت فوق . اتفضل أمّال يافندى .

هبّت عليّ من بير السلم رائحةُ رطوبةٍ قديمة ، وكانت الأنوار تتخايل على السلالم ، فوق .

كانت أبواب الشقق كلها مفتوحة وساطعة . وكانت درجات السلالم الحجرية البيضاءُ ناعمةَ الحواف ، انبرتْ من الرِجْل طالعة نازلة .

فى أول دور ، على الباب الذى يتّقد فى الفسحة وراءه مباشرة كلوب غاز متوهج ، وقفتْ بنت ، فى الثانية عشرة ؟ أصغر ؟ عارية تقريبا ، صدرها لم يكد ينهد ، صغيراً وقليل الصلابة . كانت تستند الى قائمة الباب من الداخل ، والنور يسقط على شعرها الجعد القصير الخشن اللَفْلَفة ، تلبس قميصا بحمّالات ، موجزاً جدا ، أسود ولامعاً وواسعاً قليلا يكشف كلّ كتفيها النحيلتين وظهرها وينزل الى أعلى وركيها الرفيعتين المدوّرتين ، ترفع يدها المطليّة الأظافر بالمانيكير الأحمر ، بسيجارة مشتعلة لاتدخّنها ، الى شفتيها الداكنتين بحمرة قانية ، وفى يدها الأخرى المدلاة إلى فخذها العارية عِلْبة بلايرز انجليزى زرقاء فاتحة ، وتخشخش حلقتان من الأساور الكهرمانية الصفراء على ذراعها السمراء الضاوية ، وعيناها ثقيلتان بالأسود الذى يحددهما ، وعظام وجهها تومض ، وهى تنظر إلىّ .

لمحت فى الشقة بنتين أو ثلاثاً من سنّها أو أكبر قليلا ، كأنهن أسماك ملونة داخل أكواريوم زجاجىّ منير ، فى درجات متراوحة من العُرى ، جالساتٍ بصمت وانكسار على كَنَبة اسطمبولى طويلة ، ناحلات ، مسوخٌ صغيرة مُزوَّقة ببذاءة . وسمعت فجأة صوتاً مبحوحا أجشّ من الحشيش ، لم أرَ مَنْ صاحبته ، أو صاحبه ، من داخل الفَسَحة : اتفضل يافندى ، عندنا حاجة على ذوقك والنبى . وبرُبْع جِنى بسّ . اتفضل ياخويا . على عينك ياتاجر . واللى مايشترى يتفرج . وتمتمتُ بشىءٍ كأنه متشكّر أو مايشبهها ، وكدت أتعثّر بالسلالم ، والصوت يُلاحقنى بضحكةٍ مبحوحة محمَّلة بايماءٍ لم أفهمه : يُوه .. هوانته من

بتوع فوق ياجَدَع ... ! ياختى بَلَا وكْسة .. !

فى الدور الثانى كانت دكة خشبية موضوعة أمام الباب المفتوح ، تكاد تسده ، شوَّرَ لى الرجل الذى يجلس عليها ، بيديه . كان باهظ البدانة ، عليه جلابية ممزقة غليظة النسيج وجاكتة كاكى فوقها من غير أكام . خرجتْ من فمه المتدلى أصواتٌ مليئة مُلحّة وأدركت أنه أخرس ، كانت فى حشرجته دعوة خشنة مباشرة وفيها يأْس لايأتى إلا فى أصوات الخُرْس التى تجاهد ، بشقّ النفْس ، للطلوع . ومدّ إلىَّ يدين متضخمتين حيّتينْ ، أظافرهما طويلة انحشرت تحتها خطوطُ سوادٍ قديم ، وأوشك أن يجذبنى إليه بقوةٍ خارقة وهو مازال يزوم ويحزق ويغصّ بالحمحمة والمجاهدة ، رأيت وراء الدكة شلتة عريضة نام عليها ولدٌ صغير السن ، طويل الجسم ، يلبس جلبابا أبيض شفّافاً يكشف عن قميص بناتى فُسدق اللون بحمّالات ، وقد رفع أمامه ساقيه العاريتين الملساوين بحيث أخفى عُرى مابينهما ، وكان ينظر الى السقف ، وفمه مصبوغ بما يشبه الدم السائل وعيناه مكحولتان بدقة وحاجباه قوسان رفيعان مدوّران ، ويبدو كأنه لاينتظر شيئا ولايريد ولايرفض شيئا .

وفكرت أننا ربما مازلنا فى أول الليل وأن الزبائن لم يصلوا بعد .

كان دمى قد نشف عندما خبطت على باب الريّس نونو ، وخرج الىّ ، منتفخَ العينين قليلا ، بالصديرى واللباس الاسكندرانى المنفوخ المتراكب الطيّات ، ورحَّبَ بى جدا . وكنت أعرف أنه قد طلّق امرأته وأنها تعيش مع أولاده فى السيّالة وأنه وحده فى هذا البيت الغريب ، ولكنه عَزَمَ علىَّ بشاى ثقيل عمله بنفسه وقال لى : ولايِهِمَّكْ يافندى ، طَبْ وحياة اللى خَلَقك ، وسيدى المُرسى أبو العباس ، دول كلّهم غلابَة ، وأهُو كلّه أكْل عيش بَرْضُو .. وضحكنا ، ونزل معى حتى باب الشارع . ولم نتكلم .

وكان البيت ، ونحن ننزل ، مظلما وهادئا ، والسلالم صامتة تماما ، والأبواب مغلقة .

وفى الثانية عشرة إلا دقائق كان الريّس نونو ، وعمّاله الصعايدة والبحاروة وأولاد البلد وعمّ على بعمامته البيضاء وجاكتته ومعرفته السحرية بأسرار الونْش والأسطى مُرسى وعامل البوفيه أيضاً كلهم ، بربطةِ المعلّم ، من « أبو شنب » العجوز الخشن الصوت الذى يتحرك بصعوبة إلى « حميدو شُورْتي » الولد السَفْروت الذى فى جسمه قوة رَجُلينْ ، كلّهم ، على باب المخزن . وكانت السيارات الضخمة ، تقف صفاً فى الظلام ، عاليةً وسوداء ومغطاه بالتاربولين المطّاط الداكن المشمّع اللمْعة ، تكاد تسدّ الحارة أمام المخزن ، ودخل العمال من الباب الحديدى الكبير وهم يسلّمون على عسكرى الحراسة اليونانى الذى يعرفهم واحداً واحدا . وبدأ الشُغْل فورا ، على الأنوار القوية ، وهم يغنّون ، والريس نونو يحثّهم ويمدّ يديه فى الشغل ويقود الغناء وأنا أهتف بهم وأشتم ضاحكاً وأناديهم بالاسم ، وهم يعتلون الصناديق الكبيرة والبالات الهائلة ، وأزيز الونْش يصعد بها إلى النافذة المفتوحة الكبيرة فى الدور الثانى ، وينزل ، سلاسِلُه الحديدية تصلصِل وتصطفق ، حتى الفجر . وفرشوا حصيرة نظيفة فى الحوش ، وصلّوا الفجر ، وتكوّموا جنب الحائط العالى المُصمَت فى الحوش ، يشربون الشاى بشفْط مسموع ، ويتكلمون بأصواتٍ خافتة ، مهدودة .

وقفت بجانب الونش ، على حافة النافذة الكبيرة المفتوحة بعرض الحائط كله ، من غير حاجز ، خطِرة ومُغويةِ ، وكنت أنظر إليهم ، فى نور الفجر الغامض الشاحب . وارتعدت من نسمة البحر التى هبّت باردة ، مفاجئة ، وكنت غائر القلب ، وغاضبا .

قبل ذلك بسنتين تقريبا كنت قد أحدث التوجيهية ، علْمى ، بتفوق .

وكنت أبحث عن عملٍ فى أول الاجازة الصيفية . كان أبى يقطع من لحمه الحىّ ليعطينىّ مصروفى اليومى المتراوح من نصف الفرنك الى الشلن ، أو البريزة فى أيام الشَبْرقة الخاصة جدا . وكنت قد تعلمت البِرواح للسينما ، ريو أو بلازا ، بل ورويال — أحياناً قليلة فقد كانت تذكرتها بستة صاغ ونصف — وكان صاحبى جورج يدفع تذكرته ويستلف منى القرش التعريفة ليشترى ثلاثة سجاير فَرْط ، ماركة الفيل ، وكنت لا أُدخّن ولا أستردّ السلف . واشتريت أيامها ، بأربعة قروش صاغ أوّل كتاب انجليزى وكان اسمه آرييل ، كتبه أندريه موروا عن شيلى ، وكانت طبعة البنجوين خفيفة الورق وغلافها داكن الزرقة . جاء إلى بيتنا فى راغب باشا صاحبى جورج الذى كان أبوه ناظر محطة ترام سيدى جابر ، خط الرمل ، وعنده دكان بقالة صغير فى شارع دارا فى سيدى جابر أمام بيتهم مباشرة ، وقال لى إن له قريباً يشتغل فى شركة فرنسية اسمها باتينيُّول تبنى مشروع الميناء فى الدخيلة ، وإنهم يريدون مُلاحظ عمال ، باليومية ، وإنه أخذ لى ميعادا هناك فى الثامنة صباحا يوم الاثنين بعد غد .

صحوت مبكراً جدا ، من القلق والتشوف ، كأننا فى شم النسيم . ونزلت من راغب باشا فى السادسة صباحا وجريت وراء ترام المَكْس ولحقته ، وركبت مع العمال وصغار الموظفين الطالعين على رزقهم فى أول الصبح الصيفى المنعش البرد ، ذاهبين الى الميناء والفبارك ومخازن القطن والسكة الحديد فى القبارى والورديان وكوبرى التاريخ ورصيف الفحم ، والمدابغ التى هجمت علىّ رائحتها النفاذة وأنا فى الترام المتأرجح بعد أن خلا قليلاً من رُكّابه ، وقرأت على واجهة المبنى العريض ذى البوابة الحجرية الواسعة كلمة آباتوار الفرنسية بحروفٍ بارزة من طراز القرن التاسع عشر . وفى المكس عبرت الكوبرى الخشبى الرقيق المهتز ، بفِلَقِه الخشبية المنفرجة قليلا أرى منها الماء فى لسان البحر الضيق ، وركبت الأوتوبيس الى الدخيلة وخرّمت ناحية البحر ، على الرمل ، حتى وصلت الى الكشك الخشبى الذى أقامته الشركة ، تحت لافتةٍ ضخمة باسمها وعنوانها فى

فرنسا ، فى موقع العمل على حافة الصخور ، والخلجان الصغيرة بينها يضرب فيها الموج ويُزبِد قليلاً على الحصى والرمل الخشن ، برغوته البيضاء المُستَنفَدة .

لم أكن ألبس ساعة فى تلك الأيام ، وسألت سواق الأوتوبيس الذى ذكّرنى بخالى ناثان ، على نحوٍ ما ، فقال الثامنة إلا ربع ، وارتاح قلبى .

كان الكُشك مغلقا ، ومن نافذته الصغيرة المسدودة بشبكةٍ خضراء دقيقة الخروم ، ضد الذباب والناموس ، رأيت وجهاً مدوّرا متهدّل الخدّيْن ، وصدر الرَّجُلِ السمين المرتخى فى قميص مفتوح حتى بطنه الذى يضغط على مائدةٍ خشبية محمّلة بالمساطر والمثلّثات ولفّات ورق الرسم والأدوات الهندسية ، وعندما طرقت الباب الخشبى سمعته يقول بالفرنسية « ادخل » وفهمت أنه المهندس الفرنسى وليس قريب صاحبى ، وصبّحت عليه بالفرنسية فردّ باقتضابٍ وشيءٍ من الدهشة وقلت له بفرنسيةٍ جاهدتُ أن تكون صحيحة كنت قد تدرّبت عليها وحدى الليلة الفائتة إننى جئت من أجل الوظيفة ، وأكملنا الحديث كلّه بالفرنسية ، واضحةً ومحددة وبطيئة النطق وسليمة النحو . قال اقفل الباب من فضلك ، بلهجةٍ ممطوطة فأدركت أننى أخطأت وأقفلت الباب بيدين مضطربتين ، وعاد ضوء المصباح الكهربى العارى المائتى شمعة يتّقد بصمت فى عتمة الكشك الداخلية كأنها قَمَرة مضيئة تغوص فى عُمق البحر ، وتأمّلنى الرجل قليلا بعينين كعيون السمك ولكنها زرقاء فاتحة جدا وقال لى ، بأدب ، إنه آسف حقا ولكن المركز قد شُغِل بالفعل ، اكتب لى اسمك وعنوانك على هذه الورقة وسنتصل بك عندما نحتاج الى خدماتك . ومدّ إلىَّ ورقةَ رَسْمٍ عليها تصميمات وخطوط رأسية وأفقية ومساقط ومقاطع وكتابة بحروف مُفردة كبيرة ، فانحنيت وأنا واقف وأحسست عينىّ مبللتين بالعرق، وكتبت بقلم الأبنوس الذى تدفق حِبْره فجأة بعد لحظةٍ جفافٍ وجيزة ، ولم أكن ألبس نظارة ولم أعرف أننى كنت أرى العالم كلّه غائماً ومتميّع الحوافّ إلا بعد ذلك الصيف عند مادخلت الكلية وفى

كشْف النظر دُهش الدكتور وقال لى كيف كنت تقرا وتكتب ؟ وكتب لى على نظّارة . قال لى المهندس الفرنسىّ بصوته الدُهنى قليلاً ورأسه الأصلع يلمع فى النور ، وجسمه العريان المتراكب الطوايا ينضح بعرَقٍ خفيف : نهار طيب إذن ، وقلت له نهار طيب . ولم يتصل بى أبدا . خرجتُ إلى بهرة شمسٍ أخذت تحمى قليلاً ولكنى أحسست رعدةً مفاجئة تنفض جسمى وكان الهواء بارداً على وجهى ، وكان العمّال جالسين تحت سور حجرى منخفض على الشاطىء ، أمام الكشك ، فى حلقات صغيرة غير مستبينة ، يتكلمون بأصوات منخفضة ويشربون الشاى ، ولاح من بعيد فندق « سى جَلْ » حيطانه بيضاء حائلة اللون ناحية البحر ، وشبابيكه مُغْلقة بالخَشَب الأخضر الباهت ، وكان صاحبى جورج قد حكى لى كيف أنه يأخذ المرأة الإيطالية التى كان يرافقها إلى هذا الفندق ، يؤجران غرفة باليوم ويقضيان النهار هناك ، وقال إنه مكان هادىء جدا لايسأل فيه أحدٌ عن شيء ويمكن أن يُقتل دون أن يحس أحد . وقال إن هذه المرأة كان زوجها قد اعتقله الانجليز عندما دخلت إيطاليا الحرب ، وإنها عَلّمته من فنون صُنع الحب أشياء وأشياء ، ولم أسأله ، على شوقى الى السؤال ، وكان حصيفاً فلم يدخل فى التفاصيل .

ودخلت الكلية بنصف مجانية ومات أبى فأخذت مجانية كاملة واشتغلت فى المخزن ولم يدخل صاحبى جورج الجامعة ، وتطوّع مُجنّدا فى الطيران الانجليزى وبدأ يتعلم الطيران ، ورأيناه فِعلاً فى حلّة عسكرية بريطانية كاكى أنيقة وعلى كتفه شريطان بالأخضر، ثم رأيناه بعد ذلك من غير اللِبْس العسكرىّ ولم يشرح لنا أبداً لماذا لم يستمر فى الجيش البريطانى . ولكن دكان البقالة الصغير فى شارع دارا كان محطاً وموئلاً لجماعاتٍ متعاقبة من العساكر الأفريكان والاستراليين والانجليز ، وكان جورج يجيد الحديث معهم ، كُلاً على مقتضى الحال ، باللهجات الكوكنى والاسترالى والأفريكان ، كأنه من أبناء كلّ بلدٍ على حدة ، وكنت عندما أمر عليه أجدهم يقفون فى الدكان يأخذون كأساً أو كأسين من برميل الكونياك الصغير

ذى الصنبور الخشبى الدقيق ، خِفية وبسرعة ، فلم يكن عنده تصريح بتقديم الخمر ، وكانت عربات الجيش الانجليزى المحملة تقف امام الدكان فى ساعات محسوبة بدقة ، بين وَرْديات البيكيت الحربىّ ، وتُفرغ جانباً محسوبا بدقة من حمولة البلوبيف أو البلاطى العسكرية وَبَر الجمل التى كانت مطلوبة جداً فى السوق ، أو علب اللبن المركّز المسكّر ، أو البطاطين ، تختفى فى المَنْور خلف الدكّان ، على الفور . وكانت له أيضا شبكة علاقات واسعة مع النسوة اليونانيات والايطاليات والشاميّات فى الابراهيمية وكامب شيزار ومع العساكر والضباط ، فى الوقت نفسه ، وكانت ساحة الباتيناج فى سبورتنج هى مكان التواعد والتعرف وإنهاء الصفقات . وبعد الحرب اشترى جورج عربيتين لورى واشتغل بالنقل وفَتَح الله عليه . وكانت عنده غرفة على البحر ، فى فندق سيرانادا فى ستانلى ، صيفا وشتاء . وكانت الغرفة زجاجيةً كلّها من ثلاث نواح ، وداخلةً فى قلب الخليج الواسع .

تخرّجت واشتغلت فى المتحف اليونانى الرومانى بعد فترةِ تعطّلٍ طويلة وانخرطت فى الحركة الثورية التى كانت تتمخّض بها البلد وتمور ، وطلعت فى المظاهرات واشتركت فى تنظيم الإضرابات وكوّنت خلايا سرية ، وكتبت بياناتٍ وتحليلات ومنشورات ، ودخلت المعتقلات ، وخرجت منها ، ويئست من العمل السياسى ، ومن الحب ، ومن الحياة ، ولم يكن جورج يفهم ماذا أفعل ولماذا ، طول الوقت ، ولم يكن يبالى ، ولكنه كان على الاقل لايسخر منى وينصحنى فقط بأن أكون عاقلا ويتمنّى أن يتوب ربّنا عَلىّ . وكنا قريبين جداً أحدنا من الآخر ، ثم تباعدنا ، ولاأعرف ، منذ سنين طويلة ، ماذا حدث له .

وفى ١١ فبراير ١٩٥١ كنت أتوجس من حَمْلة البوليس التقليدية علينا فى ليلة عيد ميلاد المَلِك ، وطلبت من جورج أن أبيت فى غرفته فى ستانلى فأعطانى المفتاح بصمت وقال لى عَدِّ علىَّ بُكره الصبح فى المحل ، فقط . وكان موظف

الاستقبال فى فندق سيرانادا يعرفنى من زمان فحيّانى بهزةٍ من رأسه ، وكان الممر المفضى إلى الغرفة خاويا ومعتما ووقع أقدامى على البلاط الأسود المغسول له رنين . ودخلت ، وأدرْت زر النور ، فوُجِدتْ الغرفة ، حيّة ، وأحاطت بى .

•

كانت الغرفة ضيقة ودافئة ، السرير الصغير ولكنه ناعم ليّن رقدت عليه فوراً من التعب والقلق ، وغاص بى ، وعلى الأرض سجاد عميق الوَبَرة طوبىّ اللون ، وعلى الحائط صُور زيتية لنساء عاريات ، راقدات وراكعات ، ولحمهن محُمَرّ النسيج وأملود الحَنْيات ، كأنهن سمكات أنثوية ، فارغة العيون تماما .

كان البحر مصطخبا أسمع عجيجه من وراء الزجاج المغبّش بالندى ، والأنوار على الكُورنيش الطويل أراها من ورائه بُقَعاً صغيرة لها أسنّة مُشعّعة مهتزّة ، ممتدةً واحدة بعد الأخرى بعيدا . ولم أستطع أن أقرأ فأطفأت نور الحجرة الكبير ونور الأباجورة الحمراء جنب السرير ، ودخلت تحت البطانية الصوف الكثيفة الناعمة وأحسست جفاف الملاءة النظيفة البيضاء تحتى ، وكان ضجيج الأمواج يلتطم تحت الغرفة ، يضرب أحجار المبنى وأعمدته ، وأسمع رشّاته المليئة تَخْبِط وتنحسر ثم تعاود ارتطامها بصخور البحر وحيطان الفندق المتينة ، وكنت أحس نفسى وحيداً جدا ، ومغلقاً علىَّ تماما ، فى قلب هذا الهدير الرتيب الذى ماعدت أسمعه ، فى دَوِيّه المتصل ، وحيداً وغريقاً أتنفس هواء غَرَقِى الدفِيء المُريح ، ونمت أخيراً وأنا أفكر فى غموض الليل الذى يُدَوِّم بهديد الموج المُلِحّ المتراوح لايكف عن الارتفاع والهبوط من جديد ، ولا أفكر فى شيء آخر .

•

وفى الفجر فتحت عينىّ فجأة ، وقمت ، وفتحت النافذة فى الواجهة الزجاجية . نشقت الهواءَ الملح الرطب المنعش ، مِلْءَ صدرى ، وفكّرت : هل عدّتْ الليلة على خير ؟ وكان البحر هادئاً تماما ، وقد انجابت العاصفة ، وسطحه ساجٍ ممتدّ ، زيتى السكون فى النور الوليد الذى يُضفى على العالم صمتاً مائياً

كأنه تَرَقُّب ، وانتظارٌ للفرَح .

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللون صخرةٌ ناتئة عريضة رأيتها مكسوةً بأكملها بالنوارس ، كأنما حطّتْ عليها سحابةٌ كثيفة مبطّنة بالريش الأبيض ، ساكنةً عليها ، متشبثة بها . النوارس متجاورةٌ متزاحمة ، الجسمُ المطْوىُّ يلتصق بالجسمِ المطوىّ ، وقد أحنت رؤوسَها وأدخلت مناقيرها الطويلة فى صدورها ، محدّبة الظهور ، أجنحتها مطبقة إلى جانبها ، وكانت كلّها تبدو جافّة ، مكسورة .

وألوان البحر قد أخذت تتخطط ، أمام عينى ، بنفسجيّة وزرقاء وبيضاء فضية مشعّة تحت سحابٍ أبيض تختفى الشمس وراءه ، وتضيئه باحمرارٍ سائلٍ مشاع ، وهدوء البحر عميق ، صفحته مبسوطة لاتكاد تترجرج ، ووشوشة الموج الذى يترقرق ، على مهل ، ناعمة ، أسمع صوت الصمت المُطبِق تُطرِّزهُ وتُنمنمهُ ، فجأة ، زقزقةُ العصافير التى تتواثب على الرمل الطرىّ ، وتنقر العشبَ اللزج والوَدَع والصدَفَ الحىَّ بمناقيرها الصغيرة السريعة . ومن بعيد صدى نداء يتردد على الكورنيش : سيّد .. حسّونة .. لايكاد يُسمَع ، وعلى آخر المدى أرى عاشقيْن غامضين على الرمال العذراء . فى هذا الفجر ؟ أى هُيام لايُقاوَم ؟ أيه رغبة مبهمة وخرساء ، مُطْلَقة ، تدفعهما يمشيان على هذا الشط الموحش المبلول ؟

عند التقاء الرمل بالموج خطُّ الطحلبْ الأخضر الذى يَبْيَضُّ حينما ينحسر عنه الماء ، غضٌّ ويابس على التوالى ، بلا توقّف . قلت لنفسى : أبدىّ ، دائم ، أمام فنائنا وانتهائنا .

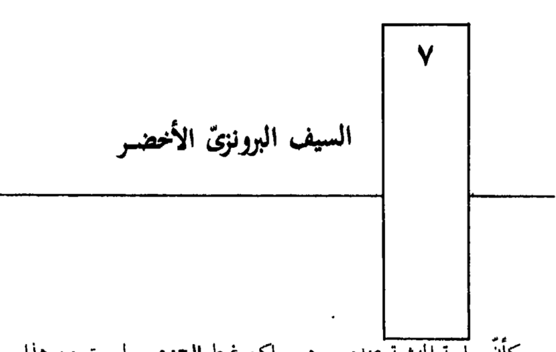
وقلت : أوقوفٌ ، بلا رحمة ولادموع ، على ماباد من طَلل ، واندثر ؟ فماذا يُجدِى ؟ وبم يُقَام ؟

وقلت : وهل من مُعَوَّلٍ ـــ بالعكس ـــ إلا على الرُسومِ الدَوارسِ ؟

الشاطىء طويل هش مشدود ، مُلقىً بين الفراغ والملء ، خصرٌ هضيم ضامر مسحوب ، قابل للانكسار فى أية لحظة ، فى أية بقعة، لابؤرة له يتكثّف وراءها ويحميها بنطاقٍ وراء نطاقٍ من الحواجز الواقية ، خطٌ متموّج يقع على حرفِ هوّة لاقرار لها ، متلاطمة ، وخادعة عندما تهدأ لأنها دائماً مُهددّة بالعصف وضاربةٌ بحبال الماء ، سِحرُها جذاب لايُقاوم ، وجمالها لايمكن أبدا الإحاطة به ولا الانتهاء من تملّى مفاتنه ، قوية الأذرع ممدودة إلىَّ تدعونى دعاءً لاأعرف كيف أصده ، دعاء فى الاستجابة له وقوعُ القضاء الذى لامردّ منه . على هذه الحافة الهشة القلِقة ، بين الحياة والعدم ، وطنى الذى لاأعرف كيف أستقر إليه .

أنظرُ إلى البحر وأُفقِه الغامض ، أعرفُ أنه لاشىء وراءه ، أبدا ، هذا امتدادٌ لانهايةَ له للعبابِ المجهول ، إلى مالانهايةَ له . وكأننى أرى شاطىء الموت نفسه ، سوف أعبره ، بلا عودةٍ ولا وصول .

مياهٌ كثيرة لاتُغرِق عشقى ، والسيول لاتغمره . صخرةٌ ناعمةُ الحنايا أنتِ فى قلب الطُوفان ، سفوحها ناعمة غضّة بالزروع اليانعة ، بالسوسن والبيلسان ، ترابها زعفران ، خِصبٌ وحىّ ، ترفُّ عليها حمامةٌ سوداء جناحاها مبسوطان حتى النهاية ، لاتكفّ رفرفتُها فى قلبى .



٧
السيف البرونزىّ الأخضر

كأنّ ساحة المنشية عنده ــ هو ساكن غيط العنب ــ ليست من هذا العالم .

لأن العالم كان غيط العنب .

الفراغ الشاسع فى ميدان المنشية ، ومبانيه الشاهقة بأعمدتها المدورة الرخاميةِ الشكل ، ونخيله السلطانى العالى بجذوعه البيضاء الرشيقة الناعمة ، تميس صفوفاً على طرفى الحدائق الطويلة ، اليانعة دائما بعشب غضّ وطرىّ ، والترام يتخطر ويدور حولها ، أصفر ونظيفا ويومض ، وعربات الحنطور خيولها الصهباء سنابكها تدق موسيقى مُوقّعة على الأرض السوداء تلمع بالبلل، وهذا الهدوء ، والجمال ، والسعة الفسيحة ، هذا أسطورىّ مخيف قليلا ، ومُغوٍ جدا .

أما هو فيعيش بين البيوت الصغيرة ، من دورين أو ثلاثة بالكثير ، مبنية غالبا من الطوب الأحمر القاتم ، العارى من غير ملاط ، والشوارع بينها ترابية ، وأشجارها وجناينها كثّة وريفية الشكل .

قال : لم أكن أعرف أن البكاء على الأطلال موجِع بهذا الشكل .

أطلال الطفولة والصبا والشباب التى تقوّضت ، ومازالت رسومها ماثلة ، غير دارسةٍ بعد ، وأنقاض القلب الذى دمرّته أمجادُ معاشيقه ولكن أعمدته قائمة لاتريد أن تنقضّ ولاتريد أن تنقضى .

فى يوم أحد الشعانين ذهبوا الى الكنيسة وحضَروا القُدّاس وعادوا بالسَعَف اللّبنىّ الخُضرة ، أبيض تقريبا وغضّ الجِلْد ، مخصوفاً على شكل صلبان صغيرة وكبيرة وأكاليل مُشبَّكة ومدوّرة متداخلة مازال طلّ الماء المقدس يبللها . وفى العصر زارهم فارس افندى ، وكان صديقا لأبيه ، وزوجته الست أم أليس من حبايب أمه . وكان موظفا بالسكة الحديد وقصيراً بديناً مكوَّر الجسم ويلبس نظارة سميكة الزجاج وطربوشا ضيقا على جبهته المنحدرة إلى الوراء . كان يسمعهم أحيانا يقولون أن أليس لميخائيل ، وكانت البنت البيضاء المدورة تُنفِّره جدا بضحكتها البلهاء ونظرتها الزيتيّة . وجلس فارس افندى مع أبيه على كراسى الصالون الجديد ، كان كرشه المتضخم المحزوق فى بنطلونه المرفوع قليلاً يستقر على فخذيه القصيرتين المدملجتين ، براحة ، وكان فى كلامه خُنّة خفيفة . دخل الولد يسلّم عليه ، ألحّت أمه عليه أدخلْ بقى سلّم على الراجل أدخلْ ياالله ، فسمع أباه يحكى للضيف حكاية مضطربة متقلبة الأدوار عن النحّاس باشا عندما كان مسافراً مع الزعماء إلى مؤتمر فى بنى سويف ، فحاصر الجنود المحطة بأسلحتهم وأوقفت الحكومة سفر القطار كله فلم يدخل المحطة أصلاً ، وقضى النحّاس باشا ليلته على رصيف المحطة فى بنى سويف ، ونام على مقعد خشبى طويل من مقاعد الانتظار وعندما اقتحم الناس المحطة فى الصباح ، فى صفوفٍ متراصة وسط الرصاص ، ضرب العساكر النحاس باشا بالعصىّ الغليظة وافتداه سينوت حنّا بك بذراعه فانكسرت ، بينما كان الناس يحطمون ، بالبُلط والفؤوس ، سلاسل الحديد الممدودة على باب المحطة ، وقُتل وجُرح خلق كثير ، وكان فارس افندى غاضباً وقال إن النحاس باشا زعيم الرعاع ، ولم يكن الولد يعرف هذه الكلمة ولكنه فهم فوراً أنها شتيمة وأن الناس رعاع ، ورد أبوه بحمية على صديقه وقال إن النحاس

خليفة سعد وزعيم الأمة وعدوّ الاحتلال الانجليزى وإنه يحمى البلد من جشع هذا الملك الذى ينبح بصوتِ كلب عندما يتكلم . وكان الولد ساكتاً ولم ير أباه يتكلم أبداً من قبل بهذا العنف وهذه الحدة .

وفى يوم اثنين البَصْخَة ، بعد الظُهر ، نزل مع أمه ليشتروا حاجات العيد الكبير. ذهبا بعربة حنطور الى شارع انسطاسى ، ووقفت أمه بعيداء قليلا ، عن باب المحل وذهب هو يجرى الى أبيه فخرج معه من الشغل قبل ميعاده ، وقطعوا شارع السبع بنات مشيا حتى المنشية ، ولفّوا على المحلات بين كنيسة سانت كاترين والكنيسة اليونانية فى المنشية الصغيرة ودخلوا هانو وشركة بيع المصنوعات المصرية . واشترت أمه خمسة أمتار من قماش حريرى منقوش ستفصّلها فساتين لأخواته البنات ومترين بوبلين أزرق فاتح مقلّم لتصنع له جلابية جديدة على العيد ، وبكرات الخيط الأبيض والملون وفانلات وألبسه وشرابات وحذاءً جديدا له من الجلد الأبيض السميك له نعل كثيف ، وأحذية ملونة بنسيور وزراير لأخواته ، واشترت لنفسها قميص نوم فضى اللون ساتان لامعا بحمالات له وَبَرة خفيفة ناعمة ومُوشّى بالدانتللا من تحت ومن فوق ، ولم يشتر أبوه لنفسه شيئا وقال إنه الآن عنده كل شيء مادامو قد اشتروا هم لوازمهم وعادوا يحملون اللفف والرُبَط وعلب الجزم الملفوفة بالدوبارة ، وعلى مقدم المساء ركبوا ترام غيط العنب من أول محطة فى ميدان المنشية .

كانت بهجته بملابس العيد الجديد ، وتشوّقه الى فرحة شم النسيم يوم الاثنين القادم ، تمتزج بحسه المُمِضّ الغريب بأن أسبوع الآلام قد بدأ وأن المسيح سيُرفَع على الصليب ، فى العراء ، يوم الجمعة الحزينة وعلى رأسه تاج الشوك ، ويطلب ماءً فيعُطَى شراباً من النبيذ والخل ، وأنه سيموت من أجلنا وإن كان رئيس الملائكة ميخائيل سيدحرج الحجر عن فم القبر المقدّس ليلة سبت النور ، وسيقوم المسيح ، مجيدا ، من بين الأموات .

كان الترام خاليا ، تقريبا ، والمصابيح الكهربية القوية الشكل تصب نورها الثابت الأبيض على المقاعد الخشبية ، مقوسة ومتينة ، من أضلاع خشبية مصقولة فى لون الكهرمان الفاتح ، متلاصقة ببعضها بعضا ، وأرضيّة الترام من ألواح خشب عريضة متجاورة ، بينها شقوق طويلة رفيعة جدا ، وتربطها سيور حديدية عريضة لامعة فيها مسامير ممسوحة الرؤوس ، وكان الولد يحس ، فى جسمه ، وثاقة الترام ، وطاقته المنطلقة بقوةٍ كامنة ، وهو يدور حول الميدان الفسيح .

الحصان يقوم فى وسط الميدان ، عاليا وساكنا . رقيق الخصر ، صافن ، يرفع ساقه الأمامية مثنية كأنه يهمّ بالانطلاق ولايتحرك أبدا ، والفارس فوقه شامخ ومتمكن ، داكنُ الخضرة ، عمامته كبيرة ومتعددة الطبقات ، يطير الهواء بثيابه وعباءته الفضفاضة ، والسيف البرونزىّ الأخضر مدلّى إلى جانبه ، كامنٌ شرُّه وتهديدُه ، مخبوء ، ولكنّه ماثل .

وحول قاعدة التمثال الرخامية الناصعة حديقة صغيرة مدوّرة لها سياج حديدىّ من حلقات واسعة متداخلة ، دائرىّ ، تعلو فوقها مصابيحُ النور ، عناقيد خُماسيّة من حبّات كبيرة بيضاء لدنة النور ، تصبّ ضوءَها اللّبَنيّ على الخُضرة اليانعة القصيرةِ العشب .

كان هواء الليل يدخل إليه من نافذة الترام المفتوحة ، يهبّ على وجهه الذى يحسه مندى بعرق بارد ، قلقلة الترام تهزّ معدته تختطفو ، وتَمُوع ، فى داخله ، ويتجلّد ، يتعلّم كيف يصبر على نفسه ، كيف يقاوم اضطراب أحشائه ، بينما العجلات تصرخ وتئزّ فى احتكاكها بالقضبان التى تدور .

أحس بأرضيّة الترام ترتفع إليه ، كالموج ، ومعدته يقبض عليها تشنّج لايُقاوم ، وتتكون فيها على الفور عُقدة قوية طارِدة ، ولم يستطع ، أخيرا ، أن

يحبس نفسه ، دفع برأسه من النافذة الزجاجية المفتوحة ، وسَفعه الهواء البارد ، بينما أحشاؤه تنقذف دفعةً واحدة الى الخارج ، صوت التقلُّص خشن وغريب ، وهو ينحنى على نفسِه ويتهوّع نفسَه ، مرة ، ومرتين . ويتطاير الرذاذ الأبيض بعيداً عنه . تلتصق بجدار الترام الخارجي ، المندفع ، قشرةٌ طرية بيضاء تتسع مع حركته الى الأمام . أحس بيد أبيه تمسك به من ظَهره ، تُثبّته وتسنده ، وأخرجت أمه منديلاً أبيض ، فيه نفث عطرِها الخفيف ، جافا ومطرزا بِدنتيللا صغيرة جدا سَمْتِنّة اللون ودقيقة الخروم ، فمسحت به أركانَ فمه ، وذقنه ، وهو يسقط الى المقعد ، فى راحة ، مفرغًا ، خاوى الجوف ، قلبه يدق .

وانطلق الترام فى الشارع الضيق الهادىء ، أبواب المحلات الكبيرة مغلقة ولكن واجهاتها الزجاجية العريضة منيرة على الملابس والأحذية والأقمشة المفرودة ، وله جلجلة بهيجة ذات صدى .

أغفى الولد قليلا من الحركةِ المهتزة المتأرجحة ، وتعبِ النهار ، والهواءِ الطلق ، وحسِّه بالفراغ والاطمئنان فى معدته ، ورأى فى غبشة النوم والصحو كأنّ النحاس باشا واقف بالليل على رصيف محطة مصر ، تحت سماء معتمة فسيحة ، وكأنّ صدره عارٍ ونحيل وعلى رأسه مايشبه الطربوش ولكنه حاد الحافة مُسنّن بأسنان سِلْكٍ شائك ، وكأن عسكرياً رومانيا بخوذة ودرع ، يندفع إليه فى فراغ المحطة الخاوية ، وعلى حقويه شرائط معدنية تلتف حول ساقيه المتينتين ويضربه بالحَرْبة الطويلة فى جنبه ، وكأنّ الحربة تغوص فى ذراع رجلٍ أسمر عريض بشارب قوىّ فى كامل ملابسه الرسمية ، وكأنّ صوتاً قال له : سينوت حنّابك ، ولكن الدم ينزّ ببطء من يدى النحاس باشا المبسوطتين المدقوقتين بآثار ندبة غائرة سوداء ، وكأن جماهير غفيرة من الناس تهجم وهى تزأر بهتاف يدوّى كالهدير ، ويصطفق ، كأنه رعد ، فانتفض ، وأحس أباه يهزه برفق ويقول : إصح ياسيدى .. يابن ستى .. وصلْنا خلاص ، ورأى الترام يصل الى نهاية الخط ،

أمام الكركون ، بالقرب من بيتهم .

وعندما نزلوا من الترام كان يحس ساقيه مفرغتين وليس لهما قوام ، فأمسك بيد أبيه بقوة ، وهو يصعد سلالم بيتهم المظلمة دائما ، الغامضة بحياة محتشدة وخفية دائما . وفتحت لهم خالته وديدة ، وكانت بيضاء الوجه ومنتفخة العينين قليلا وفيهما حَوَل خفيف ، وشعرها الجعد بنّى داكن وخشن الملمس ، ورشيقة الجسم هضيمة ، أطول من كل أخواتها . وقالت له : ياخْتِى .. ! مالك يابْنى ياضنايا داوِشُّك زى اللبن الحليب .. تعالَ معايا . وأخذته إليها ، ناحية غرفتها ، وأخرجت من صدرها ، خِفية ، قطعة تُوفِّى ، أحسبها فى فمه دافئة ولدنة .

كانت هذه الغرفة الكبيرة ، فى آخر البيت ، فيها سريران متجاوران بينهما ممر ضيق . وكانت جدته أماليا تنام أحيانا مع بنتيها ، وأحيانا فى سرير جده ، يكتشف ذلك عندما يتيقظ مبكرا جدا ويجرى فى البيت النائم ويدخل عليهم فى هذه الغرفة الخفية بأسرارها ، وكان ذلك كله يحيّره جدا ولايستطيع أن يسأل عنه . وتُحيِّرَه أيضا قطع الملابس النسائية المتناثرة على سرير خالتيه وديدة وسارة . قمصان النوم وملابس الخروج والملابس الداخلية الملونة الرقيقة ، وكانت تسحره السوتيانات الصغيرة الكؤوس بقماشها الدقيق الخروم أو الشفاف وشرائحها الطويلة الرفيعة التى لايعرف كيف تتصل وفيم تنعقد وكيف تنفكّ ، يفكر فى ذلك قليلاثم ينسى ويَذكره من جديد عندما يراها مغسولةً ومعلقة على الحبل فى سطح البيت ، تتقطّر بالماء الخفيف والشمس تنفذ من نسيجها الناعم الملون .

وكانت خالته وديدة متحذلقة وذربة اللسان ، والوحيدة بينهم جميعاً التى تستطيعُ أن تقول « تشيكو سلوفاكيا » أو « طلعت أدبّ نزلت أدبّ لقيت الدبّ يقزقز لبّ » بسرعةٍ خاطفة ، دون أن تخطىء . وكانت تحكى لهم حكايات فى

ليالى الصيف على السطح ، يتحلقون حولها : هو وأختاه عايدة وهناء ، واسكندره الجميلة بنت خالةِ أمه ، ووطواط الفاتح السمرة ابن خالته حنونة وأخته مارية اللامعة السواد ، وقد أتى كل واحد بمخدة أو شلتة وجلسوا على الحصيرة فى الهواء المنعش . وكانت تسحره تقلبات مصير الشاطر حسن وحِيله لصعود القصر العالى لكى يرى ست الحسن والجمال ولكى يهرب من أمنّا الغولة ، ومصير الأميرة بنت الملوك والسلاطين عندما تسخطها العجوز السحّارة الى بقرة حلوب خصيبة تُذبَح وتُجمع عظامُها فى حفرةٍ حتى يأتى الأمير ابن ملك البلاد التى فى آخر الأرض عند جبل القمر ، فيضمّ العظام التى تئن وتتوجع فى حضنه ، يُدْفئها بحبّه ويغمرها بدمعه ، فيعيدها عروساً باهرة الحسن والجمال ، وتمضى الحكايات وتتجسد له شخوصها ، فى الليل الهادىء الصامت ، وجسده مغمور بالقمر ، ويقترب أكثر من خالته وديدة حتى يحس أمنها ، ودفئها ، بجانبه ، ويستيقظ فيجد نفسه فى سريره ، فى غرفته ، فى أوّل الصبح ، بجنب أختيه النائمتين ، لايعرف كيف وصل الى هناك . .

ويتيقظ بالليل ، فجأة على سريره العالى المزدحم باللحاف الثقيل ، أعمدته الأربعة السوداء تحاصره ، والكُرات النحاسية داكنة الصفرة ، عيون جاحظة ومقفلة تنظر اليه مع ذلك ، تعرفه .. واللمبة نمرة خمسة مضيئة على الحائط ، بنور مُحْمَرّ شرير متراوح الظلال .

البيت الغاص بالناس كأنه مهجور ، وقد ناموا جميعا ، وتركوه وحده .

أحس فى دفء الغرفة ، وصمتها الليلىّ ، أنفاساً غريبة ، هواؤها ثقيل . ورأى على الحائط ظلَّ شيءٍ ما ، يتحرك ويتموج فوق الدولاب ، ويهتز على خشب النافذة المغلقة .

لكنه لم يرَ ماهو ، أحس فقط حضوره المهدِّد ، يراوده ، يتربصّ به ، ويقصده .

أحس به يقترب ، مازال لايراه ، ليس له جسم ، ولكنه هناك .
لفْحُ أنفاسه بارد ، وظلُّه يتكاثف ، ويتجسم من غير أن يُرى ، ويقترب . يقترب .
كل الرعب الذى فى قلبه لم يعد يُطاق .
صرخ صرخةً تمزّق لها الليل ، والصمت .
صرخةً لم يعد فى العالم إلا طَلّب النجدة النهائية فيها ، طَلَباً ثاقبا ، يجأر ، ينادى ، ملأ كل فراغ ، وخرجَ من كل حصار .

والأقدام تجرى إليه ، وأخته الصغيرة تبكى فى نومها مُفزَّعة ، وهو يضع رأسه فى حضن أمه ، ويغمض عينيه فى صدرها ، ولم يكن يبكى بل جسمه كله ينتفض . وفى اللحظة التى غاص فيها فى حضن أمه رأى أباه واقفا على الباب ، فى عكس نور مصباح الفَسحَة الخارجية ، لم يرَ وجهه بل قامة طويلة مظلمة ولكن شامخة وحنون فى الوقت نفسه .

سمع أمهَ : أنا عارفة السَرْعَة دى بتجيلك ليه ياضنايا ..
صرخته نفسها التى مازال يجأر بها على حافةِ نومِ شيخوخته ، مهما حاذر منها ودار حول تهديدها .
وحْشةُ النور الخافت بعد جلجلة الصرخة ، خاوية وصامتة . وهو يدخّن سيجارته ، مستنداً إلى ظَهر سريره ، مستَنْفَدا ، وحوله من يحبهم ، قد آبوا الى نومهم . حُنوُّه لهم ، وعرفانه ، شريانٌ يتموّج فى جسم الليل .

القلوبُ ومَثواها ، والذى هدهدها وأشجاها ، منفيّةٌ أبدا فى أحلامها ومُناها .

نزل من الترام فى تقاطع شارع النبى دانيال وشارع فؤاد ، ومشى بقية المشوار إلى البطرخانة ، كانت بدلته الصوف الجديدة خشنة الوَبَر قليلا ، وحذاؤه الأسود ثقيلا ولامعاً تحت الشراب الأبيض الممسوك بأستِك عريض على منتصف ساقه . واشترى من بائع الجرائد ، على رصيف الشارع ، مجلة اللطائف المصورة ، ورأى على غلافها صورةً مرسومة تخيلها الرسام ولكنها شديدة الواقعية لقطار تطايرت عرباتهُ وتناثرت ، والعساكر الانجليز ممدودى الأذرع والسيقان فى الهواء ، طوّح الانفجار بخوذاتهم وبنادقهم ، وتحتها أن الثوار الفلسطينين الشجعان قد نسفوا قطاراً حربيا محملا بالمؤن والذخيرة والعتاد العسكرى . وكانت جماعات الناس الفرِحة تدخل الى ساحة البطريركية من الباب الحديدىّ الضيق العالى .

كان القُدّاس طويلا ، يعلو ويهبط ، والكنيسة مزدحمة بالناس الذين يحملون الأطفال الصغار فى لففهم البيضاء . هل كان هذا أحد التناصير ؟ جوّ العيد ، وتراتيل الشمامسة ، وصراخ الأطفال ، وصلصلة المثلّث النحاسىّ ، والقسيس يهز المجمرة يتصاعد منها البخور ، والسيدات والبنات فى الجانب الأيمن وفى الشرفة الحجرية التى تدور بصحن الكنيسة رؤوسهن مغطاة ، وملابسهن ملونة ، وهو يقف ثم يجلس ثم يقف مع المصلّين ، وقد شبع من النظر الى الأيقونات الأربعة والعشرين العالية المتلاصقة : التلاميذ الاثنى عشر مكررين مرتين ، ألوان الأيقونات فى إطاراتها الذهبية زيتية داكنة الخضرة والحروف القبطية صغيرة رأسية على جانب كل أيقونة ، ورفع أبونا يديه فوق الرؤوس ورشّ بأصابعه الماء المُصلّى عليه فتناثرت قطراته على المصلين مع ارتفاع التراتيل ، وأحس طلّ الماء المبارك على وجهه ثم تسلّل من أمام المقاعد الخشبية المزدحمة وخرج الى الردهة الرخامية النظيفة بين الأعمدة المدورة ، ونزل الدرجات العريضة ، وكانت ساحة الكنيسة مليئة بالناس ، وباعة الصور المقدسة الصغيرة ، والأولاد يجرون وراء بعضهم بعضا ويصيحون ويتنادون والناس يدخلون ويخرجون ويتحركون مسرعين ، متلهّفين . وفجأة تزاحم الناس كتلةً واحدة تحت البيت البطريركى فى الممر الرملى الذى

يفصله عن جدار الكنيسة العالى المصمَت ، واشتد الزحام حوله ، والرؤوس كلّها مرفوعة الى أعلى ، والأجسام تتكاثف حوله ، والناس تقول لبعضها بعضا فى فرح : سيِّدنا.. سيِّدنا.. وفجأة ارتفعت صيحة تهليل واحدة من الناس جميعا، الرجال والنساء والأولاد ، يهتفون : بارِكنْا ياسيّدنا .. بارِكنْا .. بارِكنْا . حتى ظَهَر الوجه الضاوى النحيل ، شفافاً فى سمرته الرائقة وكأنه مضىء ، بلحيته البيضاء السابغة ، وعمامته السوداء المدوّرة ، فى النافذةِ العلوية الضيقة . اشتد الصياح والهتاف ، بلوعة وفرَح ، وامتدت اليد الرقيقة على الرؤوس فنثرت أشياء معدنية براقة صغيرة سقطت على الناس ، قِطَعاً من العملة الفضية الصغيرة والبرونزية اللامعة تنهمر من بين الأصابع الرفيعة الطويلة التى تهتز . كان الوجه مريضا ومقدّدا ولكنه منير ، وجه رجل عجوز ، وجهه الأخير . ظهر لمحة خاطفة ، وهو يُتمتم يبارك الناس بشىءٍ لم يعد بعد مسموعا ، فى نشوة الصراخ والنداء والتوسل من الساحه التى تلاصق فيها الناس . ثم انحنى الجميع على الأرض ، يلتقطون من الرمل النظيف ومن على الأذرع والأكتاف قِطَع نصف الفرنك والملاليم ، كلّها جديدة ومُشعّة ، أو يحاولون الإمساك بها فى الهواء وهى تهبط كالمطر المتفرّق على الرؤوس .

من بين الأرجل المتدافعة والأجسام المتحركة التقطْتُ نصف فرنك «فضيّاً» مدوراً وصغيرا يومض وعليه حبّات رمل خفيفة .

احتفظت به ، بَرَكة ، سنواتٍ عَديدة . لكنى لم أعد أجده . أين ذهب ؟

كانت عنده قاعدة محبرة خشبية جاءته هدية من ابن عمته بقطر ، عندما عاد من القدس ومن يومها كانوا يقولون له المقدِّس بقطر .

كانت منحوته على شكل جَمَل صغير ، رقيق التفاصيل ، من خشب ناعم صُفرته داكنة ولامعة .

والجمل عنقه أتلع ممدود للأمام ، ورأسه غريب ، حيّ ، كامل التدوير ، وعيناه مفتوحتان حالمتان ، وله سنَم محدّب تنفتح فيه فجوةٌ مستديرة ، وسيقانه الطويلة كأنها تسير وحدها ، على أخفافها اللينة المضغوطة ، بخَببٍ هادىء لايتوقف . كان الجمل قادرا . لم يضع فيه محبرة أبدا ، وظلت النُقْرة المدورة الخام فاغرة ، محبّبة النسيج . وكانت قاعدته خشنة الخشب أيضا ، ومكتوبٌ على جانبها الأيسر بالحروف القبطية وعلى جانبها الأيمن بالعربية « أورشليم ١٩٣٢ » .

كان يضع الجمل ، بعناية ، فى درج خاص من البوريه ، آخر درج من تحت . فيه الأشياء التى تحرص أمه عليها ، أمشاط الشعر التى على شكل أقواس مطعّمة بالعاج وحبوبِ الصدف المتقلبة الضوء ، وثلاث زجاجات عطرٍ مركّز ، مغلقة بسدادات زجاجية محكمة ولكن عبقها نفاذ ، من الصندل السودانى ، والياسمين البلدى ، والعنبر اليَمَنى ، وحارق ، ومكحلتها الفضية الصغيرة التى على شكل طاووس ناشر جناحيه وبجانبها المِرْود اللامع فى حافته المستدقة الرأس أثرٌ باهت من الكحل ، وشرائط رفيعة من القماش الحريرى اللدن الملتف على بعضه البعض مُنساب كأنه حيٌّ يتلوى ، والدانتللا الملوّنة الدقيقة الخروم ، وعلبة معدنية رقيقة الجدران فيها دبابيس وإبر الخياطة وبجانبها المقص الضخم بشفرتيه المضموتين شريرا ومنذرا فى رقدته ، يتحدى أن يمسكه ، والجمَل بين هذه الأشياء ، كأنه مَلِك . يعتز به ، يمسكه ، يحيطه بيديه ، ويُخرجه من بين هذه الغابة من الأشياء المحملة بشحنات غامضة فيهدأ جَيَشان قلبه عندما يراه فى النور والهواء شامخا ومتكبّرا ووديع النظرة معا .

ضاع منى بعد ذلك بسنين ولم أجده مهما حاولت ومهما بحثت بإلحاح

وأحسست جرحا مكتوما غائرا لايندمل ، ولعله لم يندمل حتى الآن .

كانت أمى ، وخالتى وديدة وستى أماليا يقلن عن عم مقار — زوج خالتى حنونة — بصوتٍ فيه سخرية خفيفة أحيانا ، وغيظ : العبد التَنْتُون

كان هائل الجسم ، وجهه أسمر لامع وطيب ، ويعمل فى السكة الحديد .

تزوجته خالتى حنونة — وهى صغيرة جدا — عن طريق الكنيسة ، فلم يكن له أهل يعرفهم ، الكنيسة ربّته ، وعلّمته ، وشغّلته . ووافق جدّى ساويرس ، أما ستى أماليا فكانت خائفة على عَذَل البنتيْن وديدة وسارة ، ولم يرضَ قلبها على عم مقار إلا بعد ذلك بسنين طويلة ، عندما شاخت جدا ، وكانت عندهم فى البيت ، وكان هو الذى يؤكّلها بيده ، وكان جسمها قد ضمر ، وصغر ، ولم تعد تستطيع أن تمشى ، فكانت تزحف على الأرض ، وكان عم مقار هو الذى ينظّفها كل يوم عندما توسّخ نفسها ، ويُحمّيها بالماء السخن فى الشتاء ، والماء البارد فى الصيف ، بيده ، وكانت تدعو له ولأولاده بالصحة وطول العمر وأن يحفظهم المسيحُ ويطرح فيهم البركة .

وكان عندهم بيت مِلْك على قمة شارع سيدى كريّم وشارع العيون فى آخر غيط العنب ، بالقرب من جامع سيدى كريم ، وكان عندهم مجلات مصر والمقتطف ومجلة السكة الحديد اللامعة الورق نصفها بالعربية ونصفها بالانجليزية وفيها صور قاطرات تاريخية ورسوم هندسية للصمامات والغلايات والمَكَنات وشوابك العجلات ، أتملّاها بشغف . وكنت ألعب مع ابن خالتى وطواط وكان وجهه مدورا وباسما وفى لون الكاكاو باللبن وكله شقاوة وعَفرتة ، وأحبه جدا . كنا معا فى ثانى سنة من مدرسة الكرمة الأولية القبطية الارثوذكسية ، وكنا نهرب ، أحيانا ، من المدرسة ، فى الفُسْحة الكبيرة ، ونجرى الى بيتهم ونتسلق عمود النور ونقفز منه الى سطح البيت ونقع بين الفراخ التى تنق والديك المُتْلع العنق الذى يُهاجمنا بعُرفه الأحمر ومنقاره المشرّع ، بشراسة ، بينما تثغو الماعز المربوطة بحبل إلى

مسمار فى الحائط ، ثُغاءُ شاكيا ، وننزل معا وثباً على السلالم المفتوحة المبنية بالطوب الأحمر فتفزع خالتى حنونة وهى تخبز أمام الفرن فى الحوش الصغير جالسة على الأرض وتشتمنا ثم تضحك معنا .

كنا نسكن أيامها فى شارع البان ، أمام وابور الطحين ومدرسة البنات ، وللبيت شرفة كبيرة أرضها من الأسمنت الرمادى المعجون بالحصى اللامع المُنَعَّم المصقول ، ولها حاجز حديدى مشغول ، وتطلّ على دوران الترام ، بعد مسافة ، أمام الكركون .

وكان وطواط ابن خالتى يأتى ونلعب الاستغماية على السطح وندخل أقفاص الفراخ ونغلق أبوابها المصنوعة من السلك علينا ونختبىء جنب حائط غرفة الغسيل ووراء الملايات والملابس المنشورة ونجرى على البلاط الأبيض النظيف بين صغار البط بمناقيرها الصفراء المبططة والكتاكيت التى تجرى مفزّعة ورقيقة جدا بين أرجلنا ، ونصنع بيوتا من علبْ السجاير البيضاء وعليها رسم مُذهَّب بخطوط رمادية لرمسيس الثانى وعجلة عربته الدائرية وحصانه المنطلق أبداً الى الأمام ، ثابت الجرى ، أبدا ، لايصل الى غايته ، وقبل الأعياد نعاكس الخروف المربوط فيهجم علينا بقرنيه المتشابكين الغليظين ويقف عندما يشتد الحبل حول رقبته الغليظة ويتوتر ويكاد ينقطع ، وهو يزفر ، مُحنيا رأسه ، ونحن نثب أمامه ونصرخ من الرعب والفرح .

وفى عصر يوم غائم وثقيل السماء كنت أقف بالشرفة مع خالتى وديدة وخالتى سارة ، ورأينا الترام يأخذ الدوران الواسع قبل محطته الأخيرة ، بعيداً أمام الكركون ، وعجلاته تصرخ فى احتكاك حاد ، ثم يبطىء فى اندفاعه ، ويقف قبل المحطة . وسمعنا نداء الناس وصيحاتهم ، ورأيت جسم الولد الصغير يتدحرج تحت العجلات ، غيرَ واضح ، وأشياءُ مقطوعة تبدو لاصلة لها بالجسم الذى

غاب تحت أرضية الترام العالية . وأخرج الناس مابقى من الولد وحملوه الى الرصيف والدم يسقط منه فى خيط متصل مهتز ، ووضعوه على الرصيف أمام سور الحديقة الكبيرة ، القاتم اللون ، تحت أغصان الشجر الكثيفة الملتفة الساقطة على السور . وسمعت جلجلةَ جرس عربة الاسعاف ورأيت الجسم الصغير المكوَّم يُحمل على النقالة ويغيب فى بطن العربة الحمراء البيضاء . وكانت صدمة الحادث قد هزت قلوبنا ، وكنا نسأل ياترى من الذى سقط وقالت خالتى وديدة : ياضنايا ياحبيبى .. ! ربنا يصبّر قلب أمه عليه .. !

لم نعرف إلا فى آخر الليل أن ابن خالتى وطواط هو الذى سقط تحت عجلات الترام ، ومات قبل أن تصل به عربة الاسعاف الى المستشفى الأميرى .

هل كان هذا أول فقدان ؟ وهل كانت الضربة من القوة حتى كدت أنساها ، وأنسى أول وأقرب صديقٍ لى فى الطفولة ، وآخرهم أيضا ، الذى أحببته ولعبت معه بحريةٍ صافيةٍ فى اللعب لم أعرفها مع أحد بعد ذلك ، إلا فى صُنع الحب مع مَنْ عشقت فى آخر العمر ؟ كنت أطوف معه ، ومع العيال ، القبَط والمسلمين سواء ، على البيوت فى ليالى رمضان ، ومعنا ، كلنا ، فوانيس رمضان ، ونأخذ النُقل والمكسّرات من على أبواب البيوت ونحن نهز الفوانيس الملونة المشتعلة بنار شمعِها البيضاء ، ونغنى حاللّو حاللّو رمضان كريم ياحاللّو ، ونُفرّق ماحصلنا عليه ، بالتساوى بين الكل . وكنا نلعب الكرة الشراب ، وحاورينى ياكيكة ، و كلوا بامية ، تحت عمود النور بزجاجهِ المربّع الذى يئز بطعنةِ الغاز الأبيض الثابت ، ثم نجلس تحت العمود على الأرض ، ونسمع بشغف ، وقلوبٍ واجفة ، لحكايات العفريت الذى طلع لأكبر الأولاد فى الحلقة وسد عليه السكة ، ولم ينقذه منه إلا فارس رومانىّ فى يده حَرْبة طويلة ، وحول رأسه نور باهر يعشى العينين ، وعلى درعه علامة الصليب ، كبيرة ، وهّاجة .

وأنا استيقظ من نومٍ قِلق على السرير غير المألوف ، الغرفة جافة الهواء من التدفئة المركزية ، وأفتح شقا صغيرا فى النافذة فيهاجمنى هواءٌ قارس قاطع ، أنظر من وراء لوحى الزجاج المزدوج الى الساحة التى يغطيها ثلجٌ بلون أردوازىّ باهت كأنه أكوام صغيرة من طباشير رمادى هشّ ، تشقها قضبان الترام وأنهار الشوارع المُسفلتة المتقاطعة . غرفة الفندق القديم مازالت معتمة فى الصبح الباكر ، فيها فوتيىّ عريض واطىء فَرْشُه الأحمر المضلّع حائل كأن التراب قد تغلغل فى قماشه ورسخ فى فتائل النسيج ، والستائر الثقيلة لها شراشيب مشعثة ، مصنوعة من نفس القماش . وعندما فتحت الدولاب الخشبى وجدت أبوابه صعبة الحركة وفيه رائحة ملتبسة .

كانت صفوف متعاقبة من الناس تأتى الى محطة الترام فى وسط الساحة ، ملففةً بالمعاطف. الجلد والفرْو والقماش السميك ورؤوسها مغطاة بالقلابق والشابْكات ، ألوانها كلها قاتمة . ويتدفق الناس ، ويركبون ، صامتين ، كلٌ مهموم بنفسه ، أيديهم مدفونة بعمق فى جيوبهم أو مكفّنة بالقفافيز الغليظة ، والترام يمضى بهم ، كبيراً وأصفر اللون يتأرجح ، وأسمع من وراء الزجاج الثقيل قلقلةَ عجلاته وصراخها الحاد فى الدوران . والثلج قد تجمّد بكتلته الصلبة اللينة الشكل مع ذلك ، لونه شاحب تحت نور مصابيح المغنسيوم فى الشارع ، بصفرته الحادة ، دوائر النور الأصفر على أفاريز المبانى القائمة العريقة وأعمدتها المنحوتة فى الحيطان المتينة الحجر ، وعلى أغصان الاشجار الرفيعة المسنَّنة ، بجذوعها السوداء كأنها محروقة من الشتاء .

الطفل الذى كان ترام راغب باشا يمخض قلبه ، تحت السيف البرونزى الأخضر ، كان يركب معى هذا الترام المضىء الدافىء فى برد أول الصبح ، يقطع هذه المدينة الجميلة الشهيدة ، عرفتُ متعةَ خضرتها ونشوةَ مبانيها الناعمة فى ربيعها الذى سرعان ماانطفأ ، وعرفتُ قسوةَ الصمت فيها ، والحصار ، وهبَّتْ علىَّ من

قتيلها كاف المسيخ أنفاسُه الدؤوب المكتومة فى عالمِ كابوسه الدقيق الحاد .

كان يرقب أباه وهو يحلق ذقنه كل صباح ، وقبل حمّامه ، فى المساء ثلاثَ مراتٍ فى الأسبوع أيام الاثنين والخميس والسبت ، بانتظام ، أو كلما عنَّ له ، أيضا فى غير هذه الأيام .

يحلق بموسى طويلة قديمة الطراز ، مثل التى عند الحلاّقين ، من الصلب الأبيض الرقيق القوى ، مُقعَّرة قليلا على طول منتصفها ، شفرتها القاطعة لونُها أقل لمعانا من جسم الموسى نفسه ، ولها جِراب قاتم الملمس من مادةٍ عظْميّة مُفصّل على آخر الموس بحيث اذا انطوت الموسى انثنت على المفصلة داخلةً فى الجِراب بصوتِ ارتطامٍ مفاجىء . ومعه جِلْدة عريضة ، سميكة ، يعلّقها بمسمار فى حائط الحمام ، ويسنّ عليها شفرة الموسى إذ يحكّها بالجلْد بضرباتٍ عريضة منتظمة حاذقة وثيقة الملمس لها صوت طرىّ ، حتى تصبح الشفرة رفيعة جداً ومرهفة وناعمة الحدّ ليست فيها ذرةٌ من الخشونة . وكان أبوه يُرغّى بالفرشاة العريضة من شعر الخيل ، فى قصعةٍ صغيرة وعميقة من المعدن الذى يلمع ، حتى يرتفع زَبَد الصابون ويتكاثف بياضُه بوشيش بارد يخفت تدريجياً ويهبط بعد انتفاخ ، ثم يمرّ بالموسى على ذقنه بحركةٍ عريضة محكمة ، وينفُض الرغوةَ القليلة المكحوتة ، بلونها المغْبَرّ ، نفضاتٍ سريعة فى حوض الحمام ، ويترك الماء المنصبّ من الحنفية يغسلها ، فتعود الموسى حادةً من جديد وكفئاً ولامعة .

فى الليالى التى يستحم فيها أبوه ، تُسخّن له أمه صفيحة الماء على وابور الجاز ، وتُدخلها له فى الحمّام ، يتصاعد منها البخار فى حلقات متطايرة بيضاء. طقوس الخلاص المُنْهَلّ الصغير من يَوْمِ العالم ، طقوس الخُلوص الحميم الرثّ الى جِسْم الحب .

وبعد أن يَخلصُ أبوه من الحمام ويدخل غُرفة نومه ، جديداً وفوّاحاً برائحة الرجولة والنظافة ، وكأس الكونياك ملىء ، ونسيرة الفرخة أو الديك ، وشرائح البيض المسلوق المقطّع الجاهز تحيط به حبات الزيتون الأسود الغضّة الجلد ، كان الولد أحيانا يجد فى الحمّام كومةً صغيرة مبلولة من الشعر المحلوق الرقيق ، أسود وأبيض ، لم تنزلق بها المياه الى الفتحة المدورة المظلمة . ويخطف قلبَه الروعُ وقدماه تكادان تنحدران به الى الفوّهة الغامضة الفاغرة التى تُفضى الى عالمِ ماتحت الأرض بما يقطنه من أولئك الذين يأتون اليه فى رعبِ الليلِ بعد النوم ، بأنفاسهم اللافحة وأجسامهم «المتموجة»، حضورهم محسوس حىّ وغير مرئى سيقانهم تدقّ بلاط البيت بحوافر مشقوقة ، خطوها مُستَرق ومتربّص . ويسمعها تئن أنين الحزن الذى لاشفاء له . وبنات الظلام يخرجن اليه على هيئة أمه ، أو خالته ، أو جارتهم اليونانية أمّ توتو ، أذرعهن الناعمة تدور حول عنقه فى الليل بحنانٍ قاتل معتصِر . والبقرة الذبيحة تخرج بعد هبوط النوم ، وتجمع عظامَها الجافة التى تُقرقع وتخشخش ، ومازالت عظْمة الكَعْب ناقصة ، ضائعة ، والبقرة تنوح ، من غير العظْمة المفقودة لن ينفكّ الرَصَد ولن تعود البقرة الى جسمها الأصلى قبل أن تسخطها ضرتها الساحرة الشريرة ، امرأة باهرة الحسن والجمال عارية تسرع الى تغطية مابين فخذيها بأوراق شجرة الجميز الخضراء التى لابد أن تضفرها معاً تجدلها بخيطٍ مفتول من سرتها المفتوحة ، تدور فى الشقة المظلمة الآن ، تبحث عن سر الرَصَد ، وتهمهم بلهفة والتياع .

يتقلّب فى مفازع الكابوس الموحش ، وحده ، حتى الآن .

كان بين النوم واليقظة ، فى غرفة النوم التى تبدو فسيحة وخالية ولكن ثقيلة وغريبة . وكانت الحُمىّ ، ورعشة البرد المتكررة تنفضه ، لايدرك تماماً أين هو ، بينما يسعل سعالاً جافاً ممزّقا ، يريد أن يطرد من غورٍ عميق فى صدره شيئاً رازحاً ومتشبثا . ألذلك كان ينام ، وحده ، على السرير العالى المنصوب ، وحده ، فى

الليل ، أوراق الصحف القديمة ملفوفة حول صدره ، جفّ السبرتو والخلّ عنها ، تُخشخش قليلا ويحس خشونتها على عظمه ، تحت الفانلة والبيجاما ؟ وهل كانوا قد انتقلوا يومها إلى بيت عبده فى محرم بك ، والأثاث مازال مفكوكا فى الغرف الثلاثة والفَسَحة ، جاء الليل عليهم ولم يفرغوا بعد من تركيب العفش ونقله الى أماكنه ، رصُّت القفف والسلال والربط ، الكَنَبات معووجة لم تفرش بعد ، الكراسى فوق بعضها البعض ، أخشاب السراير والدولاب قائمة على الحيطان وممددة على الأرض ، أخرجوا الأطباق والحلل والملاعق وتعشّوا على الطبلية ، كيفما اتفق ؟ ألذلك كانت أخواته ينمن على مرتبة الكنبة الاسطمبولى المفرودة على حصيرةٍ على الأرض ، مغطاة بالملاءات إلبيضاء النظيفة ، وهو وحده ، لأن عنده حرارة ورعشة ، ينام على السرير ؟ أكانت أمه قد غلَت صفيحة الماء ، بعد هَدّة النهار وكدّ العِزال ، وفرغ أبوه من الحمام ، واستحمّت بعده ، وناما الآن على مرتبة السرير الكبيرة على الأرض ، تحته ، بعيداً فى ظلمة الليل ؟

سمع ، فى صمت النوم الثقيل ، الصوت الخشن ، هامساً ، ملحا . وحفيف الأغطية والملاءات ، تتحرك ، ولم يكن يرى شيئا . وجاء الصوت الخافت ، فيه تمرد ، حارّ النبرة : لأ .. لأ .. مش عايزة .. لأ . وعاد الصوت المحبوس القوى ، مطموساً فى لهفته لايُقاوَم ، ليس فيه إلا عنف التطلب والاقتحام . أما هو فقد تجمّد فى رقدته ، انعقد السعال فى صدره وتكوّر ورسخ ، صلباً ، لاينزاح ، كأنه مرصود ، تحول حجراً وفَقَد كلَّ حواسه إلا السمع الذى يلتقط الآن ، بوضوح ، الشهقاتِ المتلاحقة ، والفحيحَ العنيد ، والارتطامَ الطرى ، والنَفَسَ المتسارع ، ثم الأنينَ الأبحّ المكتوم ، آخرَ دفقات الجهد المبذول ، مسفوحاً ودفينا ، ينتهى الى تنهيدة الراحة وصمتٌ مفاجىء ، ميّت .

فى غمَرات الحمى كنت قد انزلقت إلى أرضٍ سخنة عامرة ، وكأننى

أطوف بأعمدة الجرانيت فى منف ، وباحات الرخام فى كورنثة ، وتحت عمود بغداد وقبابها المنقوشة بالخط الكوفىّ ، وكأنّ الترام يتأرجح بى فى شارع النبى دانيال ، ودخلت إلى عَرَصةٍ حارَّةٍ ببخار الماء المتصاعد من نوافير تمجّها أفواهُ سباع مكفتّة بالفسيفاء ، وكنت عارياً وحوالىّ الجوارى الخُود ، أراهن وأجسهن ناعمات ، مليئات الأجساد ، يَنْسَبن من بين يدى ، ويتثنّين ، عارياتٍ كاسيات فى غلالاتٍ من الخزّ الموصلىّ ، سوداء وشفافة وفضيّة وهفهافة ومطرزة بالذهب البندقىّ اللّين ومفوّفة بوَشْيٍ مشمشي دقيق الخروم ، وكنّ كثيرات ومتعددات وواحديّات ، يختفينَ ويظهرن ، يتخطرّن مُقبلاتٍ علىّ ويَرْغَن ، كالنّعام ، يهبّ بهن هواءٌ حار فينحسر النسيج السلسال عن أثدائهن مكورة ومخروطة وقائمة ولدنة وكبيرة وتفيض عن اليدين وصغيرة وصلبة القوام ، لكلٍ منها نبْقته فى لون العنبر ، أو عِنَبتُه الطويلة المترَعة بلون النبيذ ، بطونهن مقببة من عاجٍ لدن جسدىّ بحت ، وأطرافهن تتموج وتسبح فى لجّةٍ هادئة كثيفة لاأراها ولكن مائيّتها تغمرنى ، وكنّ ضارعات وشرسات ومطاوعات ونوافر وحائرات وهائمات فى غسقٍ مُخْمَرّ يسيل كأنه يترك عليهن زَبَداً داكناً ينسرب رقراقاً برغوة ذائبة على اللحم الأنثوى المبتلّ الحىّ بحياةٍ غريبة وأجنبية لكنها حميمة وثيقة القُربى ، فى داخلى ، وكان الدم يضرب فى جسمى ويدور جائشاً ومتقلباً فى كُلّ جوارحى ، وكنت أعرف مع ذلك أن السيّاف هنا ، مُشرِعاً سلاحه القاطع المَخُوف ، ولكننى لاأراه ، وكنت أعرف أن التى تتجاوز الجدار منهن إنما تعبره الى ساحةِ مقتلها ، وأن أجسامهن المشتهاة تسقط صريعة الضربة المُصمية بعد الضربة المُصمية ، وكان لضربات السيف بالأعناق الممدودة على النطع صدمةُ ارتطامٍ جافة ، ومنتظمةُ الايقاع ، رتيبة ، ومازلن يظهرن لى ، ويختفين منى ، الرعب والشهوة والغضب والرحمة لُجج طامية ملتطمة فى يقظتى ، متوترا ، مطعونا ، ساقطاً على سريرى منهوكَ الأوصال .

كانت الشمس المنصبّة على الحيطان العتيقة العالية شفرةَ موسى تومض فى تقلُّب عتمة الحلم الساطع ، وكان الحلم مبنياً بحجر عريض وسيطىّ ، شقّق الزمن

جلدَه الخشن ولكنه أبقى على نعومةِ جسده الخفية.والحيطان تدور بوثاقةٍ وإحكام حتى تنتهى ، فى كلٍ من طرفيها ، إلى برج قصير مدكوك مربّع ، حاد الاركان ، ليس فيه نوافذ . وكان الميدان الصخرىّ مهجورا فى الظُهر ، والظلال السوداء محددة وواضحة كأنها مقطوعة ، مرميّة بثقل على الأرض ، وعلى نصف البرج القوى الاكتاف . وكانت النافورة الجافة على شكل منقارٍ بجعة كبيرة ، منحوتة ، رمادية ، أكلت الأيام والمياه القديمة حوافَّ اجنحتها الحجرية المفرودة ، يحيط بها سورٌ من الصخر الأبيض الخام دائرىّ قليل الارتفاع .

وكان الترام يقف أمام البوابة المقوسة الى الداخل قليلا ، بابها الخشبى القديم له ضلفتان مدججتان بالأحزمة الحديدية العريضة ، برؤوس مسامير غليظة مثمنة الأضلاع ، تحت شجرةٍ عجوز وعفيّة واسعة الأغصان ثابتة الورق . قضبان الترام المزدوجة تشق مسارها اللامع فى البازلت الكبير غير المنتظم الذى يغطى أرضية الميدان . المبانى ذات الأعمدة الرخامية تدور على جانبى الحصن العريض الذى يحترق نصفه بالشمس ، ونصفه مقطوع بالظل الأسود .

كان الميدان ، والحصن ، والمبانى ذات الأعمدة ، والترام ، كلها ، مهجورة ، وخالية .

وكان وجه المادونّا الحجرىّ صغير الأنف ، مشروخا ، صوّحته الشمس الحارقة التى لاتغيب ولاتخف وقدتها أبدا . شفتاها الدقيقتان المكتنزتان فى وقتٍ معا ، اللتان يعرف هو تَنَزيُّهما ، وارتعاشتهما ، والتصاقهما بفمه ، وتدوّرَهما ، وانفتاحهما له، مسّتَهما الرفيقة كزَغبٍ ناعم وتماسُّهما الوثيق المضغوط الملتحم، حلاوة الريق العذب الناضح منهما وطعمَ ملح الدموع المتحدرة عليهما ، عَبتّهما حول شفتيه واستسلامهما لرسالة حنانه ، كأنهما حيوانان صغيران كلّهما حيوية وطاقة وبحث وطاعة وطلبٌ للحنوّ معا ، تفترّان الان عن ابتسامةٍ جامدة ، تحت عينين واسعتين ثابتتين ، نظرتهما مدفونة ، ومطلقة .

كان هذا الولد يحمل كتب المدرسة يضمها الى صدره بشدة ، وهو ينهج قليلاً من الجرى طول شارع الكروم الخالى فى العصر المُشمس . كانت أرض الشارع الرملية المدكوكة بالحجر الأبيض ، لينّة ، وكان يحس حُبيبات الرمل تجرش بعضها بعضاً وتتدحرج قليلاً تحت حذائه . ودخل من باب البيت الى ردهة المدخل الواسعة ، رطبة الهواء بعد حرّ الشارع ، معتمة قليلا ، أمام السلالم الممسوحة الرخام . ووقف ، وحده ، كأنه يتحدى كل الأبواب المغلقة وكل الأشلاء الممزّقة ، وقلبه يدق ، وانتضى سيفه ، فى الهواء . كان الباب موصداً صامتا الآن ، طالما شهده موارَبا عن شبَح البنت النحيلة ، المحترِقةِ بسفر الليالى فى قميصها الأبيض الناصل اللدن الوبرة ، تناديه لكى تعطيه فى فمه مذاق حلوى الحنان الذائبة . والسيف الجديد الصلب ، يطعن فراغ العالم ، قوىٌّ فى نبضه المتحشد ، يُومض فى العتمة بلونٍ متضرّج داكن القتامة . انتضاه ، ثم أغمده ، فقط . وطلع السلالم .

أينما توليتُ ، فى الغمْض وفى الصحوة ، وكُلّكِ مشتهاة ، فثمَّ هذا الوجه أمامى ، وجهك . ماثلاً مستضيئاً فى حُرقة الشمس ، ساطعَ الجمال ، وسمرته أسيلة . عيناكِ لهفة الوجود ، زمرّدتان قاطعتان فى القلب . صفحة هذا الوجه الرخيم هى النعمة ، مفقودة ، وقائمة أبدا .

فرسٌ جموح ، تشقّين السحاب ، وساحة روحى هى برّيتك الفسيحة المتموّجة السفوح .

دوائر فخذيك ذهب حمرىٌّ مسبوك ، ملساء باردة تحت خدىّ ، لامعة ، وقاطعة بين يدىّ .

ثدياك عناقيد كرم ، ومازال سيفى على فخذى مسلولاً أمام هول الليل فى

يَمِّ عشقى الملتطم .

وفمك حلو ، مازالت أنهل خمرىَ الصهباء الصافية لاتغيض أبدا ، من عناقيد نهديك ، ومن كأس سرّتك المدورة . سكرتُ من سَرَف سُلافتك التى لاتسعها بحورُ السماوات والأرضين ، ومازال لسانى جافاً مقطوعا على سنّ سكّينتك ، أنينى ويقينى : هل من مزيد ؟

وعلى يديك ينطف دمى ، والعسلُ والخلّ ، واللبنُ والنبيذ ، معا .

فى الآخِر ، تيّقظ دفعة واحدة ، السماء صحو وليس فيها شمس ولاقمر ، وسحابها شفاف وثقيل . كان جسمها الخمرىّ العارى ، بكل بضاضته ، ممشوقاً مع ذلك كالسيف وناعما كأنه موجة عالية وثابتة ، أمام النافذة ، شرائح حصيرة النافذة المسدلة يتسلل منها نور الغَمْر ، مشاعاً ، ليس فيه حدة ، كأنه سائل لبنىّ اللون ورقراق ، وصوت الماء يأتى من وراء الحجَر السميك ، خافتا ، رغوته خفيفة ، والهواء الملحىّ يملأ صدره ، والعالم منفىّ وكأنه غير موجود .

أحَس طعنةً من سنٍ حادة ، مدفونةٍ فى جنبه باطمئنان ، دون ألم . لايعرف ماهى ، سيف ، سكين ، خنجر رفيع ثاقب كالإبرة ؟ كان جالساً على حجر أبيض كبير مستقر على الرمل المتماسك ، على سِيف بحرٍ ساكنٍ لونه كلون الصدَف ، يلمع ويخبو .

أدار وجهه الى جنب ، وقذف من فمه كتلةَ دمٍ صغيرة متخثرة ، أحسها دافئة ومكوّرة . وأحس على جانب شفتيه خيطاً رفيعا لزجاً من الدم ، متعلقا بوجهه . لم يمسحه .

قال لنفسه : فى الرئة . نافذ الى الرئة . ولكن لماذا لاأجد ألما ، ولاصعوبة فى التنفّس ؟

وعرف أنه مقتول .



٨

الظل تحت عناقيد العنب

كانت اسكندرة ، بنت خالتى لبيبة ، كعروسة المولد .

صافية ، خمرية ، ملساء . عيناها واسعتان خضراوان ، وشعرها الوحْف ذهبىّ داكن .

ولم تكن خالتى لبيبة ، أمّها ، خالتى خالتى على الحقيقة ، بل خالة أمى . ولكن اسكندرة كانت فى مثل سنّى ، يمكن ، أو أكبر قليلا . وكانت تلبس فستانا حريريا ، أبيض ، مخنصرا وواسع الحاشية ، واسع التقويرة على صدرها . وكأنها لم يكن عندها غيره . وصدرها لم يكد ينبت ، ولكنه ، على صغره ، ناهد ، وقوى .

وكنت ، فى كل مرة ، واجف القلب وأنا أزورهم فى بيتهم فى شارع نزيب ، قريبا من بيتنا . أدخل من بابٍ خشبى كبير ، كأبواب المخازن ، يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية ، فيه حنفية ماء سوداء غليظة الفوّهة ، قائمة من الأرض ، عمودية ، أمام مرحاض مبنى من الحجر الأبيض الخام ، وحده فى الحوش ، يخدم البيت كله ، وقد نشع الماء فى تموّج قاتم يدور بحيطانه الأربعة ،

وتهب منه ، دائما ، رائحة خاصة نفاذة . تُظلله شجرة توت ضخمة ، فى الموسم تطرح حَبّها الأحمر الأسود الغض الدسم ، وأحسُّ أن فى داخل جذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية .

رُكِنَتْ على حائط الحوش عجلات خشبية عالية ، هائلة الاستدارة ، مخلوعة من عربات الكارّو الضيقة الضخمة ، وصفائح مياه صدئة ، وطسوت سوداء وكراسى مكسورة الأرجل ، وأنا أخطو بحذر وتوجّس بين الكراكيب وبِرك الطين المبلولة دائما ، أمام ثلاث غرف متتابعة ، أبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التى تتقد وتفح تحت الطبيخ والغسيل والستات اللاتى تربّعن على الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عن أفخاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة ، أو متهدلة ساقطة فى أفواه الرضّع ، حتى أصل الى غرفة خالتى ـــ خالة أمى ـــ لبيبة ، فى آخر الحوش ، جَنْب السلم الحجرى الخارجى الذى نصعد منه الى سطح البيت ، أنا واسكندرة ، ويأتى معنا ، أحيانا ، أخوها زكى ، صغير الجسم ، صموتا ، وثاقب العينين . نترجّى خالتى لبيبة لتعطينا مفتاح باب السطح ، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبة على سريرهم الوحيد ، وكان مفتاحاً حديديا طويلاً له رأس على شكل حلقة مفرغة كبيرة .

كان السطح هو الذى يسحرنى .

كان مسوراً من الخارج بالحجر ، وطويلا ، وله باب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصدىء الكبير ، وعندما يصرّ الباب ، وينفتح ، تفاجئنى ، كلّ مرة ، تكعيبة العنب التى تغطى السطح كله ، مورقة ، ومظللة وبليلة الأنفاس ، والهدوء السارى ، وخفوت كل ضجيج ، والبلاط الأبيض النظيف ليس عليه إلا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس . والنور تحت التعريشة اللفّاء الممتدة خفيف كأنه خمْر ، عَطِر الخضرة ، وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلا ، المتدلية من التعريشة ،

واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظلال الصغيرة المتراوحة كأنها رنين موسيقى خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة ، وفى آخر الصيف أشم سُكّر العنب الذى يستوى ، مترعاً بعصارته ، على مهل .

كانت اسكندرة تأتى الى بيتنا ، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام ، لتشترى من وابور الطحين الذى أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد ، تصنع منه خالتى لبيبة الفطير الفلاحى المشلتت على مرق الوزة أو ذكر البط . وكنت أصحبها الى الوابور أساعدها فى شراء وحمل الدقيق ، وأكون معها .

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذى بعد الكوبرى .

هنا كنا ندخل ، أنا واسكندرة ، من فتحةٍ صغيرة مربعة مقطوعة فى جسم الباب الخشبى الضخم ، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها الى عُمق فسيح متموج الهواء معتم قليلا بعد الشارع بنوره الحاد ، نجد أنفسنا فى باحة عريضة عالية السقف ، خافتة الضوء ، يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جدا ، وأرضها سوداء صلبة الحجر . ويقف ، فى مواجهتنا ، فى آخر الباحة ، حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماما للشق المفتوح على الشارع .

ووراء السلك ، فى حزمةٍ من نور الشمس تسقط من فتحةٍ مدورة مغطاة بالزجاج فى السقف ، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة ، جَنْبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة الى الحائط بقضبان أفقية . تنصبّ الأقماع فى مواسير أسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التى تدخل فجأة من شقوق ضيقة مفتوحة على مقاسها تماماً فى حائط حجريٍ تقع وراءه منطقة المحرّكات الخفية والمحظورة علينا.فى المطحن كله تتجاوب أصوات الدقّ المتواتر الذى يأتى من وراء

الحائط رتيبا ومنتظما ، ينبض بقوةِ قلبٍ معدنى هائل ، وخشخشة غربلةٍ مستمرة متراوحة الايقاع ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء على شطٍ خشن الرمل .

كان بيتنا الذى أمام هذا المطحن فى شارع البان ، مزدحما ولكنه واسع فسيح ملىء بالحركة والحياة .

كنا نشغل الحجرات الثلاثة من الناحية الشرقية القبلية . ننام أنا وأخواتى البنات فى غرفة مُنيرة تطل على حوشٍ خلفىّ بين البيوت ، هادىء ومزروع وفيه تعريشة لبلاب كثة نراها من شباكنا ملتفّة على الحيطان وعلى قوائم خشبية قديمة وعلى جذوع ثلاث نخلات طوال سامقة تنبع كلها من جذرٍ واحد عريض متشابك ، وتميس بسعفها بين حيطان البيوت التى تنزل عليها من كل ناحية مواسير الماء والمجارى ، رفيعة وسميكة، مدورة متجاورة ، ومواسير صرف مياه المطر المفتوحة عند آخرها على الأرض ترويها فى الشتاء من ماء السماء .

و « الصالون » يقع بين غرفتنا وغرفة نوم أبى وأمى . وفيه الكنبة الاسطمبولى العريضة ، والجرامفون ببوقه المفتوح ، والكراسى المنجّدة والخيرزان ، ومائدة الأكل الطويلة ، وتمثال البربرى الصغير الملون بعمامته الحمراء وقفطانه الأزرق ويداه تحملان منفضة سجاير تقشرت أطرافها وبان منها لحم الجبس الهش الأبيض . فيه نستقبل ضيوفنا ، فإذا جاءنا أقارب أبى من الصعيد فرشنا لهم وناموا على الكنبة . وله باب عريض من ضلفتين زجاجتين ، والزجاج السميك المحبب فيه نقوش زهور وأوراق وأغصان بيضاء من نفس نسيج الزجاج .

يفتح هذا الباب على فسحة كبيرة طويلة، فيها، من الناحية الشرقية، الغرفة التى أخذها خالى سوريال وعروسة. بعدها، على طول، غرفة المطبخ المُشمسة

الكبيرة المليئة بالحلل والبرطمانات على الرفوف والمغارف والأطباق الصينى فى التملية وموائد الطبيخ المزدحمة ببوابير الجاز.

فى مقابل غرفة خالى سوريال حمّامان طويلان، لكل منهما نافذة عالية مدورة، ودوش، والمرحاض فى واحد منهما بلدى، هو الذى أوثره وأعرفه، وفى الآخر أفرنجى ولاأدخله.

اما فى مواجهة المطبخ فالباب الداخل على غرفة خالى يونان وامرأة خالى إستِر التى كانت تحبنى، وكانت أيامها قد خلّفت يعقوب، فقط، منذ قليل، وتُرضعه. وكان خالى يونان مازال عنده تاكسى مِلْك يسوقه ويكسب منه الشهد، ومازال يشتغل فى النقابة مع البرنس عباس حليم.

أما خالى ناثان فلم يكن يسكن معنا وإن كان يأتى أحيانا على الفجر، يُصحّي البيت ويفطر وينام، وكنت أعرف أنه يشتغل على سيارة لورى ضخمة يسوقها الى دمنهور كل ليلة ويبات هناك معظم الأيام، ولم يتزوج خالى ناثان إلا بعد ذلك بسنوات عندما شبع من الخبص مع النسوان ولم تخلّف له امرأته فكتوريا بنت عم أرسانى الا بنتهما الواحدة. ولم أر بنت خالى هذه أبدا، إلا مرة واحدة، بالصدفة ، فى كنيسة جبّانة الشاطبى ، عندما ماتت أمّى.
وهى التى عرفتنى بنفسها وقالت إنها تزوجت، وخلّفت.

الباب الزجاجى الذى كان يفضى الى ناحيتنا فى البيت أمامه بالضبط، فى آخر الفسحة الطويلة، بابٌ مماثل تماماً يفتح على غرفة المعيشة المشتركة الكبيرة التى فيها ماكنة الخياطة السِنْجر، والبوريه الرخامى، وكنبة اسطمبولى أخت كنبتنا، وكراسى الطقم الجديد الذى صنعه خالى سوريال عند زواجه، والمائدة البيضاوية الرخامية التى حفظت عليها جدول الضرب والإملاء الانجليزى، وفيها أيضا يضع

جدى ساويرس بوص الصيد الطويل وعدّته.

وتنفتح هذه الغرفة على الشرفة التى لها سور حديدى مشغول وتطلّ على مدرسة البنات، ووابور الطحين، ونرى منها، على جنب، دوران الترام فى آخر محطة له، والكركون، والجنينة الغامضة ذات الشجر الكثيف الذى تسقط فروعه الملتفة على الشارع. وكنت أحب أن أجلس فيها وأطلّ من بين حديد السور على شارع ١٢ الواسع المسفلت النظيف، وعلى حائط المطحن العالى الأصفر، وحديقةِ مدوسة البنات.

وغرفة المعيشة لها باب داخلى، على اليمين وأنت داخل، يؤدى الى غرفة جدى ساويرس وتنام فيها جدتى وخالتى وديدة وخالتى سارة، وتطل على الحوش المزروع.

وكانت ستى أماليا، بقدّها النحيل وحيويتها التى لاتنضب وكلمتها التى تمشى على الصغير والكبير، هى التى تُظلّل هذا العالم المتضافر المتنافر، وتحكمه وتسوده برفق، ولكن بحزم وتمكُّن.

هذا البيت الذى يموج بالحركة والناس والزياط والنقار والثرثرة والخناقات والطبيخ والغسيل والأقارب والضيوف والضحك والمعاكسات وعواصف الزعيق والبكاء التى سرعان ماتنجاب والمعاكسات والحكايات، ويأوى أصحابه فى الليل الى خفاياهم، كان مع ذلك واسـا علىَّ بل موحشا عندى لاأجد فيه من هو فى سنّى. عندما كان يأتى ابن خالتى وطواط كنت أهرب معه ونلعب على السطح، ولكنه راح الآن. لذلك كنت أحب أن أذهب الى بيت خالتى لبيبة لكى أطلع مع اسكندرة الى السطح الذى تُعرّش عليه تكعيبة العنب الطويلة المورقة، فى الصمت المظلل بحفيف ورق العنب.

كنت، أحيانا، أستيقظ من النوم مبكرا، وأجرى الى باب غرفة خالى سوريال، أطرقه بخفة حتى لاأوقظ أحدا آخر. ومهما بكرت فى اليقظة كنت دائما أجد خالى سوريال قد أفطر ولبس ويستعد للنزول. ولكنه يقول لى: تعال أدخُل.. اقعدْ إفطر مع مراة خالك. وكانت هذه الغرفة ضيقة قليلا، محصورة، نافذتها الوحيدة يسدها الدولاب الجديد ببابه الواحد الذى تشغل واجهته كلّها مرآةٌ عريضة تردد صورة السرير وعليه المفرش الساتان الأحمر الداكن اللامع، والسجاد البُنّى المحروق الكثيف الوبرة الذى يدغدغ باطن رجلىّ الحافيتين. وكان فيها مصباح كهربى عال له شُعَب مضيئة دائماً فى النجفة المتعددة الأوراق، حمرتها فاتحة وفيها عروق بيضاء متعرجة. وكانت الغرفة تثيرنى كلما دخلت إليها، بأثاثها الجديد الذى تفوح منه رائحة اللوستر النفاذة، والمراتب القطنية العالية واللحاف الريش المنجد بساتان من لون المفرش، أحمر داكن فيه غُرَز مدفونة ماكرة الصنعة، وعَبَق الجنس وسره المغلق ينضح به وجه امرأة خالى الصعيدية الصموت، مدوراً وغضاً وبه آثار الزواق الخفيف على شفتيها المكتنزتين والكحل كأنه طبيعى فى عينيها السوداوين العميقتين، وكانت تلبس روب دى شامبر بالدانتيللا، ضافياً وسابغاً على قميص نوم من نفس الساتان الأحمر الداكن، فتحته واسعة على صدرها الأسمر الوفير، ولم أكن رأيت شيئا مثل هذا من قبل، وكأنما كانت خجولاً من هذا السر نفسه وكأنما كانت تخفى هذا الخجل عندما تنادينى إليها، فيرفعنى خالى سوريال الى السرير جنبها، وتضمنى اليها فأنشق منها رائحة الحمّام والصابون المعطّر ونفح الجسد الأنثوى الجديد اليقظة، وتعطينى بيضة مسلوقة مقشّرة من الطبق الذى على الكومودينو جنب السرير، أو بسكوته بالمربّى، وتعزم علىّ بشفطة شاى باللبن من الكوب الذى تشرب منه، ويخرج خالى سوريال وهو يقول لى: خلّ بالك على مِراة خالك، مِن الغَجَر دول.. أنا سايب معاها راجل أهوه. ويضحك ضحكة صافية ليس فيها سخرية بل إعزاز وحنان أبوىّ، وكنت أفهم أنه يشير الى معاكسات خالتى سارة والنظرات الفاهمة المعابثة التى تحدجها بها خالتى وديدة، وأحس بالفخر والقوة.

وكان خالى سوريال نحيلاً وقصير القامة نوعاً ما، ولكنه قوىّ والعَضَل فى ذراعيه مفتول جاف ومضلّع كأن فيه طاقة خفية، وضحكته عريضة كالماء البللورى الرقراق ويعشق عروسه الجديدة بنت عم عبد المسيح، الصعيدية الحنون المليئة الجسم. كان نجاراً وعنده محل فى شارع الرند، مزدحم بالخشب وأجزاء الكراسى والدواليب والترابيزات والعدد، وكان يُخرج البنك الكبير الى الشارع الهادىء يشتغل عليه بالفارة أو المنشار، والمسامير فى فمه، والقلم الرصاص خلف أذنه. وعندما كبرت جداً صنع لى مكتباً كبيراً كنت أذاكر وأرسم عليه وأنا فى كلية الهندسة، وكانت امرأة خالى مارية هى التى أخفيت عندها مكتبةً كاملة من الكتب الثورية والمجلات الممنوعة والمخطوطات والمنشورات قبل قيام حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، وعندما اعتقِلتُ أحرَقَتْها كلها فى الفرن الذى يخبزون فيه على سطح بيتهم وراء الكركون تماما، حرصاً علىّ، وعندما خرجتُ من المعتقلات لم أرها إلا لماماً حتى ماتت بعد خالى سوريال، وبعد أن زوّجت كلّ أولادها، ومازلتُ أذكرها، صموتاً وجميلةً وعميقة العينين، بمحبة، وأبتسم عندما أذكر كيف كان جدى ساويرس يقول عنها: الصعيديّة بنت الصعيدى، ولكنه لايقول ذلك أبداً على مسمع من أبى.

كان جدى ساويرس قائم العود ، وجهه طويل ووسيم وواضح التجاعيد لوّحته الشمس بسمرةٍ خاصة صحيّة ، وكان يدهشنى ، عندما يشمر كميه ليغسل ذراعيه تحت حنفية الحوض ، أن أجدهما ، فوق الرسغين ، بيضاوين جدا . عرفت عندما كبرت أنه كان باشكاتب حسابات قدّ الدنيا فى البنك الزراعى فى شبراخيت ، وأنه استقال فى عز كهولته ليعود إلى أرضه فى الطرانة ، وأنه أنفق عن بذخ على الشُرب والأكل والمَضْيَفة ورَهَنَ الأرض ولعبَ على القطن فى البورصة ، حتى لم يعد له إلا قراريط ، ثم حَمَلته ستى أماليا على أن يؤجرّها ويعود ليعيش مع أولاده وبناته فى غيط العنب . وعندما خلّف أخوالى عيالهم الكِثار وانتقلنا نحن إلى بيت شارع الكروم أمام اصطبل العربات ، عاد، جدى الى

الطرانة ، وبعدها بقليل نشبت الحرب ، وكنا نذهب أنا وأخواتى إلى الفلاحين عندهم فى إجازات الصيف .

أيامها كان مزاجه صيد السمك . كان يخرج كل يوم الى المحمودية أو الملّاحة ، ويقضى ساعات فى غرفة المعيشة الكبيرة ، بعد الظهر ، فى نور البلكونة ، يصلح سنانير الصيد ويضبط بَكَراته ويُشذّب الفلينات المدوّرة السوداء ويقطعها بمطواته الكبيرة ويركّبها فى الخيوط الرفيعة المثنية الملفوفة بعناية ويقطع بنفسه أطوال البوص وأنا أراقبه مسحورا . وعلى وجه الصبح ، كلّ يوم على الله ، يخرج وعلى كتفه البوصة الخيرزان الطويلة الناعمة ، بعُقَدها المتتالية العريضة لونها أدكن مصفرةً وأخشن من ساق البوصة ، والمخلاة القماش التى اسودّ لونها فيها الصفائح المدوّرة الصغيرة ذات الأغطية يتقلب فيها ويتلوى على بعضه البعض دود الطُعْم والجمبرى الصغير الشاحب البياض ، ويعود على العصارى وفى المخلاة رزق اليوم : قرموط كبير مفلطح الرأس شواربه الطويلة تلعب وجلده اللزج أسود على أبيض ، أو البلطى الفضىّ القِشْر بلون الصَدَف المزرقّ المبلول أو حتى البساريا التى أفرح بها جداً لأن ستى أماليا تقليها وتعطينى منها ، من وراء أمى ، جافةً محمّصة سخنة فى الزيت الفرنساوى تُقرقع رؤوسُها الهشة ، تحت أسنانى ، بلذة . وعندما كنت فى مدرسة الكرمة الاولية القبطية الأرثوذكسية سألنى منصور افندى الناظر عما يشتغل أبى ، فقلتُ بصوت خجولٍ وبلا اهتمام : تاجر بيض وبصل فى شارع أنسطاسى ، فلما سألنى ماذا يشتغل جدّى ساويرس قلت بفخر وكبرياء ، وبصوت عالٍ سريع : صيّاد سمك . وغضبتُ منه جدا فى سرّى عندما ضحك بصوت أجش وحانٍ ، ولكنى لم أغضب طويلاً فلم أكن أسمعه يضحك أبدا . ولم يأخذنى جدى ساويرس معه للصيد ، أبدا ، مع أننى كنت أطلب منه باستمرار ، بخجل وتردد فى الأول ، وبإلحاحٍ وبكاءٍ بعد ذلك ، ثم من غير أملٍ أخيرا ، ولكن من غير جدوى فى كل الأحوال .

كان جدى ساويرس يطلب منى أن أنزل فى الليل أشترى له حُقّ الدخان أبو غزالة ، من البقال الذى على أول حارة من اليمين ، بعد وابور الطحين . وكنت أحس الدخان طريا ولدن القوام من وراء الورق الخشن الداكن الخضرة ، وعليه رسم الغزالة بالخط الأسود تطير فى الهواء بحُرية ، رافعة الرأس ، ساحاتها فسيحة ، وأسعد بها ، وبالشارع المنير وهوائه الرحيب والبيوت النائمة أنوارها صغيرة تبرق وتتخايل من وراء الشبابيك ، وأنسى ، عندئذ، محنة العودة ، وعبور العتبة ، وطلوع السلم .

لأن الدور السفلى من البيت كان مقفلا ، ومهجورا طول إقامتنا فيه مِمّن سمعت أن امرأةً قُتلت فيه ، من زمان ، بسبب العرض ؟ ذبحها زوجها بالسكين ، كما تذبح أمى الفراخ أو البط ، من غير أن يذكر عليها اسم الله . وحبسوه ، ولم يُفتح البيت من يومها . ولم أكن أفهم تماماً ما العرض ولكننى أعرف بالتأكيد أنه من أسرار النساء . وكنت أحيانا ، وأنا نائم فى عز الليل أسمع الأنين الأنثوى الملتاع الطويل ، يصعد الىّ من تحت ، وأسدّ أذنىّ وأدخل تحت اللحاف ، وأسقط فى النوم بسرعة .

كان السلم فى الليل مظلما ومخيفا ، وفَسَحة الباب معتمة ويهب فيها هواء رطب كأنه أنفاس حية ، ترعبنى ، وأحس صاحبتها تترصدنى من وراء باب شقتها ، وتهم بالإطباق علىّ . وعندما أدخل من الشارع يواجهنى باب الشارع الخشبى الثقيل المشغول ، تحت شرفتنا ، دائماً غامضا ، وكأننى أدخله لأول مرة . أستمد الشجاعة من عمود مصباح الغاز فى الشارع ، الذى يدخل نوره قليلاً من العتبة الى الداخل ثم ينقطع فى ظلامٍ دامس وسكون . أضع رِجلاً على العتبة ورجْلاً فى الخارج ، وأُنادى كلّ مرة ، كلّ مرةٍ ، بصوتٍ مرتفع فيه كلّ شحنة شجاعتى ، أنادى باسمى أنا ، بإلحاح ، دون توقّف ، حتى يظهر النور المهتز من باب بيتنا فوق ، تحمله أمى أو خالتى سارة أو امرأة خالى إستر التى أحبها ،

وتتراقص شعلة اللمبة نمرة خمسة على السلالم والدرابزين ، فترتدّ الأشباح وتنحلّ المفازع ، وأسمع الصوت : إطلعْ .. تعالَ .. يالله .. فأصعد السلالم وثبا ، أربعاً أربعا ، وقلبى يخفق ، كلّ مرة ، بالفرح .

كنا فى ليلةٍ فى أول الصيف ، العالم قد خلا فجأة ، أصبح مَخُوفا . صفارات الإنذار تُعول عويلا موحشا ، سمعت الكلاب تنبح ، بصوت مرتفع ، فى السكون ، والظلام الذى سقط .

نزلنا السلالم مسرعِين ، من بيتنا ، فى حارة الجلّنار ءالى راغب باشا . كنت أمسك بيد أختى هناء من ناحية ، وأختى لويزة من ناحية أخرى ، وكانت أمى تحمل أخى ألبير الصغير ، وأبى قد لبس البالطو على جلابيته البيتى البيضاء ، ومعه أختى عايدة ، صامتة وخجِلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة . وعبرنا شارع راغب باشا ، وكان معنا جماعات صغيرة من الناس يتحدثون بهمس ، ودخلنا من ميدان صغير فى تقاطع شارع إيزيس وشارع صغير لاأعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير الى باب الكنيسة الإنجيلية المبنّية بالحجر الأحمر، ووقفتُ بالباب بينما نزل أبى وأمى وأخواتى الى البدروم المتين الصلب الشكل .

كنا نعرف أن باب سِدْرة قد ضُرب ، أمس ، بطوربيد ، ونشرت الأهرام والمصرى والبلاغ خبراً واحداً وبنصّ واحدٍ معا ، أنه انهار بيتان كانا آيليْن للسقوط وأنه لم تحدث خسائر فى الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة . وكنا نعرف أن العمود ، صباح ذلك اليوم ، قد غصّ بالجنازات المتتالية وأن الكنيسة فى جبّانة الشاطبى أيضا قد ظلت أجراسُها تدق طول الصباح وأن العديد واللطْم والشلْشلة قد فاض من بين البيوت والأنقاض وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت فى جامع سيدى المرسى أبى العباس وفى الكنيسة المرقسية فى وقتٍ واحد معا .

وقال أبى إنه فى طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظَهَر الماء فى قاعها ، على دَوَران البياصة ، ورأى ، من خلال كوردون عساكر الجيش المُرابط ، الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة ، وإنه رأى بينها سراير حديدية متلوية ومحروقة معلقاً بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط .

كانت السماء فوق قد أصبحت شاسعة ومخيفة ، تحمل الموتَ فى بطنها ، الموتَ محدداً وضارباً وثقيلاً ونهائيا . وكان نور القمر قاسياً فى سطوعه الفسيح . وانطلقت أسنّة الأشعة الكاشفة سيوفا طويلة متحركة من النور القاطع ، آتية من أطراف المدينة ومن وسطها معا ، تدور فى الزرقة الصافية الحريرية ، تتقاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة وتتركز فى نقطة واحدة وهّاجة ثم تنْشَعِب ، تجوس فى بطن السماء المغلقة عليها ، تبحث عن بؤرةٍ مُراوِغة بينما طلقات الآك الآك الرفيعة الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف ثم تنفجر فى ورود حمراء معدنية تتناثر شظاياها على الفور وتنطفىء ، وهدير محرك الطائرة بعيد وعالٍ ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضادة للطائرات ، فى الصمت الذى يجعل المدينة أكثر شفافية واتساعا ، من الأنفوشى الى المندرة والمنتزة ، من الرَند والبَان والنخيل فى غيط العنب الى اللبّان ورأس التين وأنسطاسى ، من جليمو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلى والنزهة والورديان ، من حجَر النواتيّة الى كوم الناضورة ، من سِيدى جابر وسِيدى بشر وباكوس الى سموحة والمكس ، ومن محطة مصر والرصافة الى مصطفى باشا عَوْداً إلى عزبة الصيادين ، كانت حَبّات اسكندرية عارية مطروحة ، تغطيها فقط أسنّةٌ من شبكةِ الأشعة التى تطعن السماء .

فى تلك الليلة ، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية ، على مقام سيدى أبى الدردار ، لم يصل الى الأرض أبدا .

قال شهود العيان إنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلّب ، حافته

المدببة مصوبة إلى الأرض ، ويومض تحت القمر بلمعةٍ شريرة ، انشقّت قبّة المقام الخضراء ، وسط تعريشة العنب المورقة المسوّرة بسورٍ رقيق من الحديد ، ثم التأمت على الفور ، وصعد منها الحضور الأكرم لوليّ الله . وكان من الصالحين ، يفدى عُزوته وكل أبناء مدينته البيضاء المحروسة ، والبُرْنُس المغربيّ السمنيّ الهفهاف ينفتح كالجناحين فى الهواء ، ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء ، سناه يُعشى الأبصار ، وفاحت رائحة المسك والعنبر المدفون فى المقام المصون ، وإنه بسط ذراعيه فاذا هما عريضتان ، نورانيّتان ، وتلقّى فى حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام ، وطار به كلمح البصر أو أسرع فوصل به فى الحال إلى أكمة الشلاّلات العالية الخضراء الخالية من الناس ، ووسّده الأرض على جَنْبه ، وقد نزع شِرّته وأذاه ، فرَقَد بين الشجر الملتف الأغصان حديداً باردا ميتاً بلا حول ولا قوة وَجَده الناس فى أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفا مؤلّفة ، وفككوه دون ضرر ودون عناء ، وكلّ واحدٍ أخذ منه قطعة حديد خُردة للبَرَكة والعِبرة ، وعندما وصل رجّال الجيش المرابط وضربوا نطاقا حول المكان لم يكن قد بقى من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح ، وكومة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون .

ثانى يوم قال أبى إن اسكندرية أصبحت خطرة على الأولاد وإن لقمة العيش وحدها هى التى تبقيه هنا ، فقالت أمى إنها لن تتركه وحده أبدا ، وسافرت أنا وأخواتى جميعاً الى بيت جدى ساويرس فى الطرانة ، فيما عدا ألبير الصغير الذى بقى مع أمى ، ومات بعد ذلك بسنتين بالتيفود .

وكنت قد عرفت الطرانة وجئتها فى الصيفين السابقين ، وعرفت لندة وأختها رحمة والولد برسوم وبقية العيال ومنهم الولد مخلوف ابن الشيخ عيسى جارنا فى نصف القرية الذى لايسكنه الا النصارى ، وحدهم تقريبا ، مع أن الكنيسة تقع

فى النصف الآخر ، بالقرب من السراية الكبيرة التى ضرب فيها أنيس أفندى نفسه بالنار . وعرفت التجوال الطويل على المدقات الترابية بين الغيطان العالية بالذرة ، لغاية الطاحونة ومابعدها ، وعلى جسر النيل ، واللسان الحجرى الداخل منه الى عرض النهر الواسع ، أقف على طرفه ، بين الأمواج والدوّامات ، وأنادى منه جنيّة البحر التى لم تطلع أبداً هناك ، وإنما جاءتنى فى الآخِر بنشوات الجسد المسحور ومُتعاته الجنونية التى لايعرف غيرهن أن يُذِقْنها لعشاقهن ، جنيّات النهر العميق .

وكنا نلعب الاستغماية أنا وأخواتى والعيال والبنات ، أمام بيت جدى ، تحت شجرة الجميز .

وفى حموة اللعب ، مرة ، هربت لندة فجأة من أمامى إلى ماوراء بيت عم أرسانى ودخلتْ إلى ممر ضيق مسدود بينه وبين بيت جدى ، يظلله آخر فروع شجرة الجميز الفارهة ، وكنت أرى كعبى رجليها ، وهى تجرى حافية تثير التراب من على الأرض ، فيهما بياض متورد وعليهما حبيبات التراب الناعمة الهشة . وكنت ألاحقها ، خلعت شبشبى أنا أيضا ، أحس التراب فى الزنقة بارداً وجافاً تحت باطن قدمىّ ، وعندما أمسكتُ بها ، فى آخر الزنقة ، وهى تستدير تحاول أن تفلت من جانبى ، مرنة ، مسرعة ، وتمرق من تحت ذراعىّ الممدوتين، ضممتها إلىّ ، ووجدتها بين ذراعىّ ، وقد أحيط بها — كما كانت تريد من غير شك ، قلت لنفسى — وأحسست صدرها الحر النافر ، وهى تنهج ، على صدرى ، مضرجة الخدين وعيناها السوداوان الحالكتان متوقّدتان ، وبطنها ، فى فستانها المشجّر بالورد الأحمر والأصفر الصغير على أرضية برتقالى ، يصطدم بى ، ويتلبث لحظة واحدة ، خاطفة ، لانهاية لها ، وهى تحس بانتصابى وتعرفه ، لحظة واحدة ، خاطفة ، تريده ، ثم تتنحى عنه ، بينما وضعتُ شفتىّ الجافتين ، وأنفاسى متدافعة ، على جانب وجهها الذى وجدته أمامى فى هذه الخطفة من الزمن ، وأحسست نعومته وحرارته ونداوته الخفيفة من العرق ، قريبا جداً من فمها المفتوح المبتسم ، ونشقت

رائحتها الزكية ، أوليّة وبريئة ونقية ، رائحةَ الجسم النسوىَ العذرىَ اليقِظ ، ثم أفلتتْ من ذراعىّ ، وجريتُ وراءها خارجين من الزنقة التى كانت ، منذ لحظة ، ساحةً فسيحة ساطعة ، فإذا بنا نكاد نصطدم ، كلانا، بجدّى ساويرس، وكان راجعاً للبيت ، يمشى ببطء مستنداً إلى عصاه الصفراء الغليظة العُقد ، وانطلقنا نجرى من وراء الشجرة ، حتى الجرن .

عند ما عدت على أواخر العصارى ، بعد أن لبست شبشبى وطسست وجهى بماء جارٍ حفنته من عند اللسان الحجرى فى النيل ، ونفضت التراب من على جلابيتى البيضاء التى كان طرفها السفلى قد ارمدّ وابتلّ بالتراب المنعقد ولم تنفع فيه حيلة ، ودخلت البيت ، نادانى جدى ساويرس بصوتٍ كنت أتوقعه . عندما اقتربت منه ، متوجساً ومتماسكا ، سألنى ماذا كنت أعمل فى الزنقة مع البنت لندة ؟ فقلت كنا نلعب كلنا وليس فقط لندة ، نظر إلىّ بعينين نافذتين وعارفتين وصلبتين ، وبدون كلمة ارتفعت يده وأحسست صدمة الصفعة الأولى والأخيرة فى كلّ صباى ، الوحيدة من أى أحد ، بقوتها المفاجئة ، ووقع الإهانة وسخونتها أكبر بكثير من ألم الضربة ولذعها ، وكنت أسمعه ، من وراء غيامة الغضب وحرارته ، يقول إننا كبرنا جدا عن لعب العيال ، ويتكلم عن الأصول وألسنة الفلاحين التى لاترحم البنات . تركته واستدرت . وصعدت الى الجميزة ، عاليا ، إلى البقعة العريضة التى كنت أختبىء فيها ، منذ سنتين ، وأترك نفسى لحلم الشجرة الوارفة وسماء النهار التى تغلّفها وكأنها تنزل إليها وتُحيط بى ، وأنا أرتقى الى الجذع العريض الممتدّ بين الفروع ، يَسَعنى ويحملنى بثقة ، وكنت أسمع أصوات البيت من تحتى والشوارع المتلوية الضيقة فى القرية والناس والبهائم والكلاب كلها بعيدة ولكنها موجودة . وكان غضبى تخامره كبرياء وعزة من معرفتى بأن تلك اللحظة لم تكن مسروقة تماما ، ولاجاءت بالصدفة تماما ، بل كانت بمعنى ما مُدبَّرة ومطلوبة .

وكانت ظلال الورق والهواء المنعش فى أعلى شجرة الجميز المعزولة عن العالم ، تهدهدنى ، ولعلنى ، بالرغم من الجرح ، كنت قد نمت .

فى ١٢ بؤونة من سَنَةٍ قديمة ، كنت فى قاعة مدرسة الأحد فى مبنى الكرمة الأولية القبطية الأرثوذكسية . كنت أحب صوت مس كاترين النحيفة الطويلة البيضاء الوجه ، جسمها كأنه نورانىّ فى فستانها السابغ الأبيض المرسوم بزهور دقيقة حمراء فاتحة ، وهى تُعلّمنا الترانيم فى الغرفة الواسعة المعتمة قليلا ، فيها دكك خشبية طويلة صفراء لامعة ، وصلبة ، وكانت القاعة رطبة الهواء قليلا ، فيها شموع موقدة تحت أيقونة العذراء ، بثوبها الأزرق الملفوف على كتفيها ، تنظر إلينا نظرة غائبة ، واسعة العينين جدا ، وهى تحمل على حِجْرها الطفل البضّ المدملج الجسم ، سعيد النظرة وعورته الصغيرة عارية وبريئة وطبيعية وتدعو قلبى للحنان . ولأننى أجدت الترنيم أخذت من مس كاترين صورةً ملونة ، فى أعلاها كلمات بالقبطية ومقابلها بالعربية اللجنة العامة لمدارس الأحد القبطية الأرثوذكسية ، وفى الصورة عملاقان يرفعان أذرعهما بالبشارة على خلفية السماء الزرقاء ، وعلى حقويهما إزار من الجلد داكن ، يقفان على أرض صخرية عالية فيها نباتات غضيرة ووحشية الشكل ، ويحملان بينهما عصاً متينة يتدلى منها عنقودٌ هائل من العنب ، وموسى شيخٌ أبيض اللحية يصعد إليهما من تحت الأكمة مستندا إلى عصا معقوفة اليد ، وتحت الصورة بالقبطية والعربية « عنب أرض كنعان » ، والآية المختارة : « وأخبروه (موسى) وقالوا قد ذهبنا الى الأرض التى أرسلتنا اليها ، وحقا أنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها » .

كنت أرنّم ، وراء مس كاترين ، بإيقاعٍ يتردد فى الغرفة الواسعة ، له صدى : كَنْزُ مَجْدٍ فى السما ... كَنْزُ مَجْدٍ فى السما ..

ترنيمتى إليكِ ، الفَرْدانية المُثَمَّنة المتملّكة ملكوتَ اليومِ التاسع غير

المنقوص وعندها رحمة الأيام الثمانية معا .

الواحدانيّة المنسوبة الى بيرسيفون ، منهكة ، مهانتها تنوش نِياطى ، كامنة فى نباتات سنوحى ، ماتنى تنعب عبر السنين فوق دندنة الأحزان ، حسنيّة .

منشدق الأُوّلانيّة المُثنّاة ، غُنتُها هيلينّية النبرات ، سيرينتى فى سَنَى الوَسَن ، كاترينا .
اسكندرة ، سيرافينا الفينانة المُغدَوْدِنة على غصون الرَّنْد والعنب ، نداوةُ جناحيها المنضمين علىَّ لانضوب لها .

هنيّة ، ماندالا الحصين ، دورانُ اختناقِها فى أنفاس الإحَن والمحنة مازال يرين على العرين الجنوبى المكين فى الجنينة القبلية .

وفى نهْج الجُلّنار ، مُنَى ، النَفُور ، نازعةً عنّى ، رِنوتها الىَّ سنٌ مسنونةٌ تنخس نزواتى فى الجبّانة المنحوتة بالصوّان .

وفى الطرّانة جميانة ، أيقونةٌ يانعة مُونِقة ، نقطة النجيع أرجوانيةٌ من طعنة سكينٍ نجلاء حول لُجَينِ العنق .

البانةُ المتثنيةُ نوّاسةٌ تحت السنْط النضير ، لندة ، تبّضُّ لها بواطنى المتنزيّة ، ونفحةُ بدنها نفثُ البشنين النابع من غرين النيل .

أما نعمة ، فوطنى ومسكنى ، كنزى ونواتى ، منيعة ، مانحتى حنانها وهناءتى ، وهى نقائى من أدرانى وإليها أُنيب وفى حِضنها أمنْى ورُكنى ومنامى عند المنون .

وأما رانة فهى منفاى . الجنّية النهْمة مَنَاسِكى إليها ، كاهنةُ التنّين ، سوسنةُ منف ، مَنَاتى الوثنية ، وفينوس مُدْنِفتى ، سندِيانةُ كنيستى ، نخلةُ نجرانى ، زنبقةٌ فى زعفرانى ، جُمانةُ النهار . النون .

النورس المتنّمر ينقر عناقيد العنب بمنْسره المحجون . وهو ، فى آن ، يونان المكنون فى بطن الدجنّة ليس له منها منجاة ، والنوتىُّ الرهينُ ينقش المنمناتِ سجيناً فى سفينته إلى نينوى التى لامثال لها .

وأنا فى كِنّ نونِك ، نِصفُكِ إلى يمينى يُمْنٌ ونعيمُ الفتون ونشواتُ الجَنَّات والجُنون ، ونِصفُكِ الداكن نير النِكال ونهش النيران حتى فناء الزمن ، وعلى النصفين معاً نقلتى إلى تنتالوس . جَنَى الأمانى منِيّةٌ تدنو وتنأى . نبْنَبَتِى إليكِ وهنينى وجنوحُ أحنائى . نِضْوُ الضَنى ، كَفنى بين النوْم والنَاى . أنكِل عن إيمانى وأنكث بنفسى . تُونعين فأنكص ، وتُوقنين فأحنث . أنتِ دينونتى . نجواى إليكِ تنِزّ نازفة ، فى طين الدِمْنة الدفين . وحنينى إليكِ نداءٌ إلى حنانٍ جَسَداتّي ونُورانيّ معاً بلا نظير . وإذ أنزعُ إليكِ فإنما هو نشدانٌ إلى أن أطامن من شَجَنِك المستكين . انقضّتْ ناعِقةُ النوى على منكبىَّ ونشبت أسنانها ، ناءت بى ، أختنق فى مكامنها . وهأنتِ قد نضوتِ عنكِ نصالكِ . تنحنى نوّارتك على مُنتهاك غيرَ مُنْبَتّة ، لن يكون لكِ منتهى . ولاتندّعنى نأمة . أنبض فى سَكِينةِ حناياك .

لكنى ماأنى أنزو إلى أقحوان عينيها . أُعتنقُها وأحتجنُ إلىَّ رُمّانتىْ نهديها . لاأُنحّى نظرتى عن ريعان حُسنها المُنيف . ولانهاية لعنفوانها . أنشق نكهةَ سنبلتها . بين ردنيها نَشْرُ النّد والنارنج والنسرين . نُفاضة النجوم تُنير على أناملى . وفى تِرنان النواقيس والصنوج أنهل من مَنّ يُنبوعها ، خدينتى يناغينى غُنْجُ

مغاينها . لَهَبَان التنّور يُنضجنى فأنطفُ بالمَنىّ فى عجينتها السخنة الريانة . هنالك تنبو أسنانُ التياتين ، وتنتسفُ جنادلُ نكرانى كالعِهْن المنفوش ، تُذعِن الطواعينُ وتنصاعُ الشياطينُ أخيراً ، والنيازك نثارةٌ فى عِنان الأنواء .

أنتِ مِعْمدانيّتى الهَتون على نهر الأردنّ . وأنتِ قنّينة النِكْتار وأنتِ النجدة وأنتِ النذير .

ومع حنثى وخياناتى فإننى لم أُنْفِذ إلا قانونك أنتِ فعند الميزان انزلينى منزلة النعماء المكنونة للعاشقين . آمين .

أغنيّتى إليكِ ليست أنيناً ولانحيب النهنهة . بل هزيمُ النَسر المطعون المنتصر . ترنيمُ الميِم إلى أبد الآبدين .

قال : وكتبتُ النونَ بالنثرة على قرطاسٍ من رصاص آن ، ووضعتُها فى جام ، وغسلتها بالمطر ، وغمست منها قلمى والقمر فى منزلته مضيئاً فيّاض الوهَج ، فأتتنى الحيتانُ من موالِجها الظُلْمانية منصاعةً فى الحال ، وحَسُنَتْ عبارتى وازدانت إشارتى ، وذكرتُها فى جنادس الدجّنة بعددِ قُوَىٰ أسماء حروفها ، فانبلجت لى أنوارٌ عظيمة ، وانفتحت لى المخارجُ الرّبانية الى النعيم . امتلأ باطنى معرفةً ونطقتُ بالنبوءات الغريبة الشريفة ، وزال ألمى . وماوقع بصرى بعد ذلك على أحدٍ إلا ارتاع مِنىّ وغرس اللهُ فى قلبه محبتى .

كنت قد خرجت من عتمة القاعة المهتزة بالشموع فى مدرسة الأحد ، إلى نور الشارع الدافىء المظلل بالشجر ، وفى عينىّ حلمٌ بكنز مَعْجِدٍ فى السماء . والهواء شفاف وله رائحة خفية مخضرّة من أغصان العنب ، وجريت إلى بيت خالتى لبيبة . كنت أعرف أنها عندنا فى البيت . وكانت اسكندرة تنتظرنى لامعة

العينين ، خدّاها مضرّجان .

مددت ذِراعِي إلى آخرها تحت سريرهم وتكورت يدى حول جسم البوصة الطويلة الرفيعة والدوبارة الملفوفة حولها ، وفى آخرها فلينة وسنارة صغيرة .

كنت قد انتقيت أصغر بوصة عند جدّى ساويرس ، وتسللت بها مبكراً جدا ، يوم الأحد ، قبل الكنيسة ، وأخفيتها عند اسكندرة . وخافت هى أولاً ثم ضحكت ووضعتها على الأرض تحت سريرهم .

ولما سأل جدى ساويرس عنها ونادى ، بغضب : فين البوصة الصغيّرة ياولاد ؟ هربت إلى غرفتنا فى آخر البيت ، وسكتّ . ومع ذلك فكنت أصلّى للمسيح بحُرقة أن يغفر لى وكنت واثقاً أنه غير غاضب منى . ويئس جدى من البحث عنها ، وسلّم أمره لله ، وكان متحيراً ولكنه لم يسألنى قط ، مباشرة .

وكانت اسكندرة قد نبشت تحت ردغة الأرض المبلولة تحت حنفية الماء ، وتحت شجرة التوت الكبيرة فى حوش بيتهم ، واستخرجت الدود اللزج الدسم الشكل ، ووضعَتْه فى حُقّ صفيح مستطيل وأخفته تحت السرير ، جنب البوصة ، فأخذتُه ، بسرعة ، وأخذتُ اسكندرة من يدها ، وخرجنا .

جرينا فى الشوارع الخالية تقريبا ، ومررنا أمام زرائب الجاموس برائحتها النفاذة وأقراص الجِلّة الطرية تجف فى الشمس أمامها ، بعد صف من صفائح اللبن الضخمة المرصوصة ، فارغة ، ونفذنا من ثقب ضيِق كنا نعرفة فى سور السكة الحديد ، وعبرنا القضبان وسرنا بين الهِيش والحلفاء والبوص والزلط حتى وصلنا الى شط الملاحة المترقرق الضحل ، والماء عليه ساكن وفضىّ وثقيل الشكل .

ومشينا قليلاً بحذاء الشاطىء حتى وصلنا الى مرتفع رملىّ صغير وفى رمله حصى مضلّع ومتراوح الاشكال ، مدبب ومنبعج ومدوّر ومسطّح ، يعطى للرمل استمساكاً وقواما ، وتحت المرتفع جونة ماء عميقة تبدأ صغيرة عند الشطّ ثم تتسع وهى داخلة فى الملاحة ، لونها أكثر زرقة وماؤها يترجرج بسيولةٍ أكثر ، وكانت الشمس قد بدأت تحمى ، وجلست اسكندرة بجانبى على ركبتيها ، فوق أكمة الرمل ، فاحمر جلد ساقيها من الحصى الصلب الأملس ، بينما وقفتُ وذهبت حتى حافة التلة الصغيرة وخلعت حذائى وأدليت رجلىّ حتى أوشكت قدماى — اللتان أحسست فجأة برطوبة الهواء عليهما — أن تلامسا الماء .

رشقتُ جسم الدودة المتنزية الزلقة بين أصابعى ، فى سن السنارة الحادة التى نفذت من الناحية الأخرى ، ورفعت البوصة ، وسقطت السنارة فى الماء وطفت الفلينة بعد لحظة ، باهتة اللون فى فضة الماء السائلة . وانتظرت .

ماذا حدث ؟ كيف سقطت ؟

أحسست نفسى فى الماء ، وكأننى أطفو ، ثم أغوص بهدوء فى عُمق يبدو أنه من غير قرار . وكان الماء حولى دافئاً ومحيطاً وحنوناً وشاملاً ومن غير نهاية ، ولم أكن أشهق ولاأطلب النَفَس ولاأتخبط ، ولم أكن قلقا ولا مرتاعا ولا مختنقا ، وكان هذا العنصر الرفيق الثقيل يحملنى ويسندنى فى نزولى الذى لازمن فيه . والضوء حولى داكن وشفاف معا ، رازحٌ ومُشعٌ معا ، كأننى فى غرفةٍ مائيةٌ شاسعة المدى ، وخصاص نوافذها تنساب منه صفحاتٌ رقيقة النسيج متتالية من النور والماء ممتزجيْن معا . وكان سطح الماء فوقى يومض بإبَرٍ فضية دقيقة ومتموجة لاعِداد لها ، تظهر وتختفى .

الماء يتخلّل تكعيبة العنب ، ويغمرها ، والعناقيد الثرّة داكنة الحمرة حَبّاتها

الغضة المدورة ملتئمة متضامّة بعضها حول بعض ، وتتدلى كأنها نهود متضرجة كثيرة ترفعها الموجات الصغيرة برفق بين يديها ، والورق حولها وفوقها شفاف الخضرة تتلوى عروقه خيوطا لدنة متشرّجة الالتفافات ، يمر بها الماء فتهتز ، مُطاوِعة ومستسلمة ، من الأغصان المبتلّة العُقد . وعلى الموج المضىء وجهُها ، بين ظلال تعريشة العناقيد والأوراق والأغصان المتعرجة ، خمرىّ اللون ورخيما ، يصعد إليه ويُنيرة فى السيولة ، من تحتْ ، إشعاعُ نورٍ متّقد فى قلب الماء ، من شمعةٍ كبيرة ذُبالتها المشتعلة يهتز بها الموج ، كأنها أيقونة مخضلّة البشرة ، وفيها حياة أخرى ، وشعرها الذهبى مفكوك مسترسل منثور وملء الخُصل يحمله الماء فيصطدم بوجنتيها دون صوت ، وقد أخذ لونه يدكن قليلا من البلل ، ويميل إلى لون الكهرمان المحروق المشعّع بالنداوة ، والماء يذهب ويجىء ، فى مُوَيْجاته الصغيرة ، بصفحةِ الوجه الساجى ، عيناها نجلاوان ، من غير تعبير ، ولكنهما تعرفاننى ، وتنظران إلىّ ، فقط . وكأنها تطل علىّ ، وجسمها فوق ، بعيد عنى ، من عالمٍ آخر ، فيه رقةُ السماء المفقودة وحنانُ الهواء الملحى البعيد ، والماء الذى يحتضننى ويتفتّح لهبوطى بلا انتهاء ، يذهب بها ، ويجىء . ولم يكن الغوص إلى تحت قاسيا ولاخانقا ، وكأننى لاأقاومه ، بل كأننى أقبله وأُسلم إليه نفسى .

لم أمد إليها يدى ، ولم أنادها ، كنت أعرف فقط أنها هناك .

قال : أنتِ الشجرةِ التاسعة . أنتِ الريح على المياه العميقة . أنت أُكَمةٌ مورقة بالأشعار ومزهرة بورد البريار .

الكرمة السماوية لايأكل من عناقيدها إلا المغبوطون .

أوّل من دُسْتِ على العنب بقدميكِ العاريتين لكى تعتصرى نبيذه المُفْرِح للناس والآلهةِ معا ، يشربون من عذوبته المزّة فيتكلمون سواءً بسواء .

أوزير واقفٌ فى هيكله ، مطوىّ الذراعين ، مكفّن بالبياض ، والعناقيد تتدلى فى اتجاه وجهه المنحوت من الديوريت الأخضر ، قريبة جداً من فمه الظامىء .

قال : وعرفت أنه سيكون مالا بد أن يكون ، وأننى فى الزمان الثانى سوف أُمنح أن أنهل من جنَى العناقيد ، لأنَّ العنب قد نضج .

سقطت حبات العنب من عيون الصقر حور ، ونَطَف الدمُ من العناقيد .



٩

رفرفة الحمام المشتعل

كان الطفل يجرى الى بيت أم توتو « الجريجية » فى تقاطع شارعى البان والنرجس ، كأنه يلوذ بمكانٍ مسحور .

لم يكن فى حسه ، تماما ، معنى أنها « جريجية » .
كان الاختلاف حينئذ ، عنده ، من طبيعة الأشياء .

كان يشترى الفول من « التركى » بشاربه الأبيض الكبير المصفر قليلًا عند أطرافه من الدخان ، وكان عندما يدخل بيوت جيرانهم المسلمين يحس شيئا من الرهبة ، وكان الكونستابل المالطى الذى ينطلق بالموتوسكل فى شارع الترمواى ، يوقف عربات الحنطور والكارو ويرسل الخيل والحمير الجريحة المقرّحة الجنوب إلى الشفخانة ويشتم العربجية شتيمة بذيئة ويشخر لهم.بالاسكندرانية الفصحى ، وكان عم حسن التونسى بيّاع اللبن يسكن فى حارة وراءهم ، وعنده فى البيت ثلاث جواميس وحمار أبيض فاره ويلبس البُرنس المغربى السمنى الناصع يلقى طرطوره وراء عنقه ، شعره الناعم أبيض ولحيته بيضاء كاللبن ، وكان زوج خالته عم مقار أسود

لامع السواد ، وكان هناك الصعايدة فى الزرائب ، وفى وابور الطحين ، والفلاحين الذين يبيعون الخص والجرجير والليمون والكرات على حميرهم ، لا يلبسون إلا قميصاً داكن الزرقة قصيرا مربوطا بحبل على الوسط ، والصيادون بلباسهم الاسكندرانى الأسود المنفوخ والصديرية ذات الأزرار الكثيرة على الفانلة الطويلة الكمين ، يبيعون السمك فى مقاطف من الخوص المجدول يحملونها على رؤوسهم المعممة بطاقية صغيرة ملفوفة بالشاش الأبيض عدة مرات ، والأفندية بالجاكتات الطويلة والبنطونات الضيقة فى آخر الرجلين ، وكانوا جميعا يجعلون العالم مكاناً غنياً ومتقلب الألوان ، مخيفاً إلى حد ما ، وجذاباً أيضا .

كان بيت أم توتو من دورين ، ولكنه عال ، يحسه دائماً مغلقاً على سره ، منيعا ، متين الحجر ، نوافذه كبيرة خضراء ، وله سور صغير من الحديد المشغول يحيط بجنينة صغيرة مزروعة بعناية ، فيها شجر نبق ملتف الفروع وارف ، غليظ الخشب، وشجرة موز واحدة ، قصيرة ، أوراقها عريضة ، غضرة ، سميكة ، ومشققة مشعثة قليلا عند حوافها المصفرّة .

وكان أمام البيت دكان جزارة كله مبلّط بالقيشانى ، الجدران والأرض تلمع ، وأنصاف العجول والذبائح الأخرى مشقوقة ، مفتوحة البطون ، بأقفاصها العظميّة الداخلية الفاتحة الاحمرار ، معلقة بخطاطيف أمام الباب تحت اليافطة الزجاجية السوداء المكتوب عليها بخط ثلث ذهبى فخم طويل الحروف ، وكان قد تعلم القراءة وربط الحروف ، وقرأ : جزارة محمد محمود البهنساوى .

وكانت أمه هى الوحيدة من بين خالاته التى تزور أم توتو وتحبها ، ويحس كأن بينهما نوعاً من الفهم ، ويتحدثان معاً طويلا ، بهمس ، بينما يذهب إلى غرفة توتو الصغيرة التى تكبره قليلا فى السن وفى الجسم ، ويناديها باسمها الأصلى كاترينا لأنه كان يحب مدرسته مس كاترين ، فتضحك البنت ، وتعطيه ليأكل

البرقوق المسكر المجفف الذى يستطعمه بلذة ، يستمرىء جسمه اللين المتغضن ، المحمر ، الملتف على نواته الصلبة ، الغارق فى عسله الداخلى الناشف .

كانت أمه تتركه أحيانا ، بعد ظهريات بأكملها ، عند أم توتو ، وتذهب لزيارة حبايبها أم فلة ، أو أم أليس ، ولا تعود إلا عندما يهبط الليل .

لماذا ذهبت أنا يومها إلى بيت أُم توتو ؟

قالت لى ستى أماليا بصوت غضوب ومكبوح : رح انده خالك يونان من عند اللى تتقرص فى بطنها أم توتو الجريجية . قل لى يجى لى عايزاه .

فتحت لى أم توتو الباب ، وأزاحت الستارة الكروشيه المخرمة التى تنسدل عليه مباشرة من جُوَّه ، أحسست خفة جسم الستارة علىّ واهتزازها ، ونسيت غضبى من ستى عندما انحنت علىّ أم توتو ، بوجهها الأبيض الرفيع الدقيق الملامح وقبلتنى فى فمى قبلة خفيفة ، بحركة ألفةٍ وحنانٍ بسيط خالص ، كما تفعل دائما ، كما لا تقبلنى أمى أبدا ، وملأت صدرى بعبق عطرها النافذ ورائحة جسمها النظيف والبودرة التى لم أكن أشم فوحها الخاص إلا عندها .

قلت لأم توتو : عايز خالى يونان فى كلمة .

قالت لى ، حانية : عاوز تقول له إيه حبيبى ؟

وكان فى نبرتها أهون إيحاءات لهجة الجرِيج ، كانت بنت بلد ، تقريباً ، فى كلامها ، ولكن برقة خاصة ، وأقل تخفيف للأصوات الحادة .

قلت لها ، خجلا : عايزه فى كلمة سر .

فابتسمت بعذوبة ، وتسليم .

خرج خالى يونان من غرفةٍ داخلية أقفل بابها وراءه ، وجاء إلى الفسحة وهو بالقميص الحرير المخطط بأقلام زرقاء رفيعة ، من غير ياقة ، والبنطلون الذى له حمالات أستيك طويلة ، وفى يده جاكتته . كان فارع القامة ، خطواته هادئة بطيئة الوقع ، وسيم السمرة ، شامخ الوجه ، ومال برأسه قليلا إلىّ يسمع ما علىَّ أن أقول ، وأجاب فى غير تعجل ولا سخرية ولا غضب : أوامرك ياسيدى . حاضر . عِينىَّ ، بس كده .. طب اقعد انت هنا عند خالتك أم توتو .

وقال لها بصوت كأن فيه شبهة ابتسام : هاتى لى الياقة والكرافتة من جوّه . أخطف رجلى أشوف عايزين إيه وراجع حالًا .

ووضع الياقة المدورة الصلبة البيضاء حول عنقه ، وزررها بدبوس صغير لامع ، ولف الكرافتة .

وكنت أعرف أن ما بينهما شىء خفى أحبه ويشوقنى ويسحرنى .

كان واضحاً أنها أيضا تستعد للخروج ، فأومأت له ، وقالت إنها ستنتظره على كل حال .

كانت فى عز ازدهارها ، نحيلة الوجه ، رقيقة الجسم . فى عينيها دائماً نظرة مطارَدة ، متوسلة وتوشك أن تكون مقهورة ، ولكنها جذابة ، نسوية جدا ، مطالِبة ، وانحناءة حاجبيها عليهما غير واسعة ، وخطهما ملىء وناعم التقويس . وكان شعرها القصير الاجارسون مفروقاً على اليمين ، عقمت خصلة منه على هيئة كعكة صغيرة على أذنها اليمنى ، وكان لونه بنياً ذهبيا داكنا بحيوية غضة . شفتاها مرهفتان سريعتان إلى الارتعاش ، وأنفها مستقيم طويل . كان بياض وجهها مشوباً بخمرية صافية شفافة ، وكان نهداها صغيرين ، مخروطين ، تحت فستانها الأحمر الغريب الذى لم أستطع أن أرفع عنه عينى .

كان النصف العلوى من فستانها من نسيج خفيف هفهاف ، واسع المتحة عند أعلى الصدر ، وبينما كاه الواسعان يشفّان عن ذراعيها البيضاوين ، لحمهما البض قليل ومتماسك وممشوق وقد اكتسب حمرة خفيفة من لون النسيج الشفاف ، كان الصدر من قماش حريرى ، من اللون نفسه ولكنه ساتان لامع غير شفاف ، ينزل كالحرملة على صدرها بنقوش رقيقة . تنتهى هذه الحرملة فوق الركبتين بقليل ، ليبدأ تحتها النسيج الشفاف مرة أخرى ، مبطنا بالقماش السادة اللماع حتى منتصف الرجلين ، وكان جوربها تحتـه حريريـا وسميكـا يستديـر حول أسفـل الساقين بضمة متينة ، وحذاؤها من الشامواه الأحمر بثلاثة شرائط جلدية فوق أعلى القدم تنتهى بزراير صدفية مدورة ، كعبه عال وكبير . وكان على صدرها العارى المنبسط سلسلة ذهبية رقيقة جدا تتدلى بصليب مشغول .

كنت أفتكر أيامها أن توتو هى بنت خالى يونان ، وكنت أتصور أن أم توتو هى زوجته ، بشكل ما ، ولم أسأل .

ولما عاد خالى يونان بعد قليل ، خرجا معا ، وركبا السيارة المربعة القوية التى كان يسوقها ، وعرفت فيما بعد أنهما ذهبا معا إلى المصوراتى ، وأن كلا منهما أخذ صورة لنفسه ، وحده ، وأنهما تبادلا الصورتين . ووقعت صورتها فى يدى بعد ذلك بسنوات طويلة فاحتفظت بها .

وجدت نفسى وحدى فى الفسحة الخالية المعتمة قليلا ، التى كانت تفتح على المطبخ مباشرة .

ومرة واحدة ، وكأنما على فجاءة ، فغمتنى روائح دافئة شهية من حبال التين والزبيب المعلقة من مسامير فوق نافذة المطبخ ، تجف فى الشمس من وراء زجاج النافذة . وكانت برطمانات المربى البيتية ، والفواكه المجففة المسكرة ، على

الرفوف ، غارقة فى سوائلها الكثيفة داخل الزجاج البلورى المضلع الذى يمتص النور ويعكسه من جديد مشققا ، متكسرا . وليس فى المطبخ ذبابة واحدة .

هبت نفحات غريبة باهتة الحلاوة ، كأنها لم تكن هناك من قبل ، من أزهار كبيرة بيضاء ، عروقها طرية وقوية تبتل فى الماء الصافى الذى ثبت كأنه جامد وشفاف ، فى قازة زرقاء رقيقة الزجاج ، بطنها الكبير المدور عليه رسوم تنانين حمراء وصفراء ذهبية متلوية الذيول ، ألسنتها طويلة رفيعة مشقوقة نصفين منطلقة بقوة من أفواهها الجميلة المفتوحة ، ونفث رائحة المفرش القديم الباهت الخضرة ، الدسم الملمس ، شراريبه المنقوشة الكثيرة متلاصقة تهتز حول رخامة المائدة المدورة ، وأرجل المائدة الخشبية لامعة ومشغولة وتنتهى بما يشبه أقدام الأسد ، مقوسة المخالب . وسحرتنى مرة أخرى ، كما تسحرنى دائما ، القوقعة . بيضاء هائلة الشكل رابضة تحت القازة الكبيرة ، حلزونية وملتفة بنعومة ، وفى آخر دوراتها المتراكبة التى تضيق بالتدريج ، طرف مدبب طويل ، لبنى اللون والجلد الداخلى فى القوقعة أملس محمر . حولها شقيقاتها ، قواقع أصغر ، سطحها الخارجى بياضه محبب وأكثر خشونة .

جريت ، كأننى أفر ، أبحث عن توتو فى غرفتها الصغيرة الضيقة التى لم يكن لها نافذة ، وحيطانها من الأرض للسقف مغطاة بورق أصفر باهت وله لمعة معا ، وفيه نقوش وزهور حمراء دقيقة جدا ، أوراقها محددة جدا ، خطوطها القاطعة المسننة بلون أكثر حمرة من أجسام وريقات الزهور . وكانت توتو تلازم هذه الغرفة لا تكاد تبرحها . وجدتها تذاكر على مكتب صغير مسند إلى الحائط ، فوثبت وجلست على سريرها أنظر إليها وهى تكتب دروسها بالحروف اليونانية الغريبة على كراسة ورقها فيه مربعات خطوطها طفيفة جدا . أصابعها الصغيرة البيضاء تلتف بعنق الريشة المسحوب ، ورأيت على أطراف أناملها بقع حبر بنفسجى اللون .

كانت توتو ، على عكس أمها ، مدورة الوجه باستدارة كاملة وطازجة الخدين . عيناها واسعتان فى خضرتهما نقط صفراء ثاقبة متوهجة كإبر من النور ، وصموتا جدا لا تتكلم إلا نادرا ، ولم أرها تلعب أبدا .

قالت توتو : تعال نطلع عند تيته .

فأومأت برأسى ، ووثبت نازلا من السرير واندفعنا نجرى نسابق أحدنا الآخر على السلالم الحمراء الرخامية الباهرة النظافة ، إلى الدور الثانى .

وما أن فتحت جدتها الباب حتى انقلبت الدنيا ، أمسكت بيد توتو بشدة ، بينما تواثبت حولنا القطط ، لاعداد لها ، سمينة وجافة القد ، سوداء حالكة وخضراء رقطاء ، صغيرة واهنة زاحفة ، وشاحبة البياض ، تموء وتصيىء ، وقوية متواثبة تزمجر وتفح ، مقشعرة ، وصفرتها حريرية ناصعة ، تقرقر وتهر ، مربربة زاكية تزوم ، وعيونها تتقد ، وتركب بعضها بعضا ، وكأنها ، كلها ، ستهاجمنا بضراوة . والجدة القليلة الجسم ، ملفوفة بروب حريرى قديم سابغ عليها ، تصوصو بصوت رفيع حاد ، آمر وحنون فى الوقت نفسه ، ممطوط وأغن ولا أفهمه ، حتى تفيء القطط إلى هدوء نسبى ، وتأوى إلى أماكنها المختلفة فى شتى أرجاء البيت ، وتظل توتو تتحدث إلى جدتها باليونانية ، بينما رائحة القطط الحيوانية التى تملأ البيت تفغمنى وكأننى أستطعم على لسانى كثافتها وخصوبتها . ثم ذهبت تيتة ، تتدأدأ فى مشيتها بخطواتها الصغيرة ، وجاءت ببلح مقشور مصفى من النوى غارق فى عسله ومحشو بالجوز وبالبندق ، وأعطت أصابعها الرقيقة الشفافة ، عليها عسل مربى البلح ، إلى قطة صغيرة جدا أخذت تلحسها بنهم وإصرار وهى تصيىء .

عندما فتحت توتو باب شقتهم كان الظلام يوشك أن يهبط ، والفسحة غامضة وكثيفة بروائحها العبقة الراكدة . أوقدت توتو مصباح الجاز الكبير الأبيض

البطن ، بعود كبريت جاءت به من المطبخ ، فى العتمة ، وأنا مسمر جنب الباب ، واجف القلب . شدت توتو دلاية كالكمثرى فى نهاية سلسلة نحاسية مربوطة بالمصباح ، ورفعت زجاجته الشفافة بحرص ، وأشعلت الفتيلة بينما هى تمسك بالدلاية طوال الوقت . ردت الزجاجة إلى مكانها ، ثم تركت الدلاية فجأة فارتفع المصباح من تلقائه ، وفرت السلسلة النحاسية منسابة من خلال حلقة مثبتة فى السقف ولها صوت صرير متتابع . سطع النور فى الفسحة ، وظهرت نقوش الملائكة والطيور المرفرفة المخرمة فى الستائر الكروشيه المسدلة على النوافذ وعلى الباب ، والفوتيات القطيفة الخضراء المتموجة اللمعة . قفزت إلى فوتيى كبير منها فغاص بى ، وهو يقاومنى قليلا بتنجيده الطيع والقوى .

جاءت توتو ، دون تردد ، وجلست معى فى الفوتيى العريض ، وأحسست جسمها يلتصق بى . استدارت إلىّ ، ونظرت إلىّ طويلا . وقلت لنفسى إنها عزيزة علىّ جدا . وفجأة عانقتنى . أحسست ذراعيها العاريتين ، رفيعتين وقصيرتين ، حول عنقى ، تحبسان وجهى ، وأحسست صدرها الطفلى يهتز . وضعت رأسها خلف وجهى ملتصقا به ، وأحسستها تبكى ، بصمت ، وإصرار ، كأنها لن تفرغ أبدا ، وترفرف بين ذراعى . كنت أحيط خصرها ، كأننى ألجأ إليها ، منها ، لا أقول شيئا وكأننى أقول أن بكاءها يهدّ العالم علىّ . حتى سكتت فجأة ، واستراحت . عرفت ، بعد ذلك بثلاث أربع سنين ، عندما تزوج خالى يونان فعلاً ، أن أم توتو كانت قد تزوجت ، من زمان ، بالجزار الذى كنت أرى محله أمام بيتها ، وأراه ، يقف فى المحل المبلط كله بالقيشانى ، ساعداه المفتولان قد شمر عنهما ، قويا وصدره صخرى تنفتح عنه تقويرة الصديرى اللامع الكثير الأزرار المحبوك يبدو من الشق الطويل فى أعلى جلابيته الواسعة التى جفت عليها نقط الدم المتناثرة ، وأنه طلقها بعد أن خلفت كاترينا التى كنا نقول لها توتو . وسمعت خالتى وديدة تحكى لامرأة لم أكن أعرفها ، وهى لا تعرف أننى على مسمع ، أن الجريجية المقروصة أم توتو كانت لايفة على أخويا يونان ، كانت عايزه تلهفه

ياختى ، وكانت حاتجيبه على ملا وشه لكن برضو هو كل الطير اللى يتاكل لحمه ؟ أخويا يونان جدع ملو هدومه ، ما يِضّحكش عليه بالساهل . أهو رماها زى الكلبة ، واتجوز إستِر . وغضبت جدا فى قلبى لأننى لم أصدق أن أم توتو كانت تضحك على خالى يونان وكنت أعرف أنها تحبه ، كما تحبنى .

وعندما كنا فى كليوباترا ، وكنت قد تخرجت من الهندسة ، وذهبت إلى معتقلات أبو قير وهاكستب والطور وخرجت منها ، وكنت أشتغل مهندس ترميم فى المتحف اليونانى الرومانى بمرتب قدره إثنى عشر جنيها أعول بها نفسى وأمى وأخواتى الأربعة ولم أكن أقرأ الصحف ، وبينما كنت فى المتحف ، مهموما بالشغل ذات يوم سمعت إشاعة أن الجيش فى القاهرة قام بحركة ضد الملك ، وأن الدبابات فى الكورنيش ، ولم أهتم يومها كثيرا بأخطر حَدَثٍ فى تاريخنا لفترة طويلة ، ولكننى عندما طرد الملك من اسكندرية نزلت فى الشوارع مع صاحبى عبد القادر نصر الله وشربنا العرقسوس الذى كان يوزعه البائع عند كوم الدكة مجانا ، ابتهاجا وتيمنا بالخلاص . وكنت أحب أيامها حبا لا أعرف كيف الخلاص منه ولا كيف الخلوص إليه ، وفى آخر المساء عدت الى بيتنا وكلى قلق وفرح وتوفز ، وطرق باب شقتنا ، ودخلت امرأة جميلة ممتلئة مدورة الجسم ، بيضاء ، غزيرة الشعر ، فى فستان فقير الشكل تحمل على ذراعها طفلة فى الثانية ، وراعتنى عيناها الخضراوان كأنهما وحشيتان من ضغط القهر ، كحيوان . ولم أعرفها ، وسلمت علىّ بيد أحسستها مليئة مرتخية كأنها لا تعرفنى ، وعندما جاءت أمى إلى الباب رحبت بها وأخذتها فى حضنها وقالت لها : أهلا يا توتو يابنتى ، أهلا بيكِ ، اتفضلى ، إزيك ياضنايا ، إزيك ياريحة الحبايب . تدهور قلبى وامتلأ وجهى بالدم . وجلست المرأة الغريبة ، مهدودة ومستكينة ، وعرفت أنها تزوجت من عامل فى الفابريكة اسمه حسن ، وأنه كان حشاشا ومتلافا وأنه طلقها بعد أن خلفت بنتها وأن اسم بنتها فتحية أون أمها ماتت من زمان طويل وأنها تشتغل الآن بياعة فى هانو وليس لها

أحد فى الدنيا. وكنت جريحا وأدركت، متأخراً جدا، ومن غير جدوى ، مدى قسوة بكاء الطفلة التى كانت ، على كتفى ، وأن هذه الطفلة لم تندثر ولن يجف بكاؤها ابدا .

تزوج خالى يونان وجاءت امرأة خالى إستر إلى بيتنا الذى رأيت شرفته مرة تسقط فى ليل الحلم مليئة بالناس لا صوت لهم ، أمام مدرسة البنات الداخلية ، وإلى جانبها وابور الطحين .

كانت البنات تنمن فى الدور الثالث من المدرسة ، أعلى من بيتنا . وكانت أنوار المدرسة تطفأ فى تمام الساعة التاسعة بالليل ، وتصمت الأصوات القليلة المضطربة بعد ذلك ، وأصداء ضحكات البنات ، ويحل الظلام فى المدرسة ، وأرى ، فى نور الغاز المتشعع من عمود الشارع ، تكعيبة العنب فى حديقة المدرسة ، أخشابها واضحة معرقة وسط دغلات أوراقها الكثيفة ، وطبقة تراب خفيفة فى النور ، على أغصان شجر التوت والنبق الوارفة . وكنت أرى البنات أحيانا ، فى أول الصبح ، عندما أرفع بصرى من شرفة بيتنا ، وهن يخطفن أمام النوافذ المفتوحة ، فى قمصان نومهن الخفيفة الملونة ، وشعرهن مبلول ومفكوك ، ثم يختفين .

كانت امرأة خالى عروساً جديدة ، ولم تخلف بعد ، وافرة الجسم ، تضحك كثيرا ودافئة الصوت ، وكلها معابثة وشيطنة وجرأة حسية بالكلام والإشارة والنظرات ، وجهها كامل الاستدارة وخمرياً جدا ، عيناها مليئتان . وحاجباها رفيعان جدا كقوسين ، على جفنين متخمرين قليلا . وكنت أهرب إليها اذا ضربتنى أمى ، فتحضننى وتلاعبنى وتمسح دموعى فى ذيل فستانها ، وتقول لأمى : هو الملاك ده برضو له ضرب ياختى ! وفى مرة نسيت أن أقفل باب الحمام ورائى ، وانفتح الباب فجأة وعندما استدرت مفزوعاً رأيتها على الباب

تسدل فستانها على فخذيها المكتنزتين السمراوين ، بدون اهتمام ، وضحكت بصوت عال وقالت وهى تصفق بيديها وعيناها مرحتان لامعتان : هيه .. وشفت الحمامة .. ! وبعد أن كدت أموت من الخجل ضحكت أنا أيضا وكان ذلك بدون أهمية ولكنه كان سراً بيننا .

كان خالى يونان قد حصل على رخصة دولية وسافر إلى انجلترا مع خالى ناثان يجربان حظهما ، وكان يشتغل هناك سائق لورى بالليل ، والتحق بمدرسة نقابية بعد الظهر ، وعاد واشترى سيارة أجرة مربعة الشكل يسوقها ويكسب ذهباً وكان فخورا بعمله ، وانتخب رئيساً لنقابة سواق الملاكى والتاكسى والأوتوبيس ، وكان وفدياً عندئذ ثم أصبح صديقا للبرنس عباس حليم وعمل معه ، وكان البرنس شخصياً يزوره فى النقابة ويخرج معه ، فى التاكسى ، وهو يجلس بجانبه ، وكان عندئذ قد رافق أم توتو ، ثم تركها ، وكان أنيقا وله مهابة فى البيت ، ويجيد الكلام ويعرف الانجليزية وسافر مرة إلى جنيف ليحضر مؤتمراً عمالياً دوليا . وسمعت جدى ساويرس مرة يقول إن ابنه يونان « خطيب يخلب لب السامعين » بينما ناثان قصير ومكير وخباص ولكنه قلبه كالحليب ، أما سوريال أصغر أخوالى فقال عنه إنه حشاش ولكنه ابن حلال وابن صنعة ويده تصوغ الذهب من الخشب .

كنا فى أول الصيف ، وكانت الشهادة قد جاءت بالبريد أننى انتقلت إلى السنة الثانية فى مدرسة النيل الابتدائية ، وفى الصبح رأيت البنات وأمهاتهن وآباءهن يتزاحمن حول قوائم الناجحات التى علقت على لوحات كبيرة داخل باب المدرسة الحديدى ، أمام تكعيبة العنب ، وكان الفراشون يحومون حول البنات وآبائهن يتهافتون عليهم بالتبريك والدعوات ويلتقطون الأرزاق التى تدس فى أيديهم ، ثم انحسر الاضطراب ، وصعدت البنات إلى الدور الثالث استعداداً للاجازة الصيفية وكنت أرى النوافذ مفتوحة على السراير وقمصان البنات البيضاء مفتوحة قليلًا على صدورهن من الحر .

وفى العصر كان الهواء قد ضعفت حرارته ، والنور فى الشارع ناعماً والشمس صفراء ، وكان السحاب الأبيض الجامح فى السماء بطانته تحمر قليلًا وهى تنزلق وتتقلب بسرعة فى الزرقة الصحو الصافية . وكنت أقف وحدى فى شرفة بيتنا ، أحلم بغموض ، وأنظر إلى الكركون على جنب بعيداً وراء دوران الترام ، والحجر فى حيطانه أسود ومضلع وكثيف ، وأمامه الشجر الذى تهتز أغصانه الثقيلة . والحمام الذى كان يهدل ويشقشق بشدوه المكتوم الرتيب طول الظهر من الحر ، قد صمت أخيرا . وكان الشارع خاليا ، نظيفا ، أرضه باهتة السواد ، والعالم كله هادىء تماما .

التفت فجأة إلى مدرسة البنات ، أمامى ، فرأيتها وهى تلقى بنفسها من النافذة ، فى نور آخر النهار . كان جسمها خفيفاً يتقلب فى الهواء كأنها تطير وهى تسقط ، جونلتها الزرقاء الداكنة تنحسر عن رجلين تضطربان وتصطدمان كأنهما بلا وزن . وكانت صامتة . .

سمعت خبطة الجسم فى تكعيبة العنب صدمة جافة ، ولها فرقعة مكتومة ، وخشخشة الورق ، .والاحتكاك الصلب ، بينما الجسم يثب إلى أعلى وثبة صغيرة من رجع الصدمة ، ثم ينقلب ويسقط على بلاط الممر ، بصوت ارتطام مسدود ، نهائى ، كومة مهتدلة ، ذراعاها ملتويتان تحت رأسها ، كأنها بلا عظام .

فزع الحمام الذى كان يأوى إلى وكناته الخفية وسط الشجر ، وطار يرفرف بأجنحته الطويلة التى مستها حمرة الغروب فاشتعلت ، فى السماء .

وسمعت على الفور صوت القىء ، تشنجات متقبضة ثم انفجار متحشرج ، والجسم يهتز على الأرض ، الرأس الملتصق بالبلاط يندفع منه سائل لزج ثقيل محمر الرغوة .

ثم الصمت .
لحظة واحدة من الصمت الكامل . التام .

هل كانت صرختى القصيرة ، لم أسمعها ، هى التى أتت بخالتى سارة وخالتى وديدة وامرأة خالى إستر ، كلهن ، يجرين إلىّ ، أم صرخات البنات التى ارتفعت ، مروَّعة ، ونداءات المشرفة والفراشين الذين أخذوا يخرجون متلاحقين من باب المدرسة الداخلى ؟ .

كانت على الباب لمةّ صغيرة من الناس ، جاءت عربة الاسعاف بجرسها المجلجل ، ودخل المتطوعان ، بالكاب الأحمر والحلة الصفراء ، وحملاها على نقالة وأدخلاها فى جوف السيارة التى انطلقت ودقات الجرس السريعة تصلصل بإلحاح .

لم أترك الشرفة ، ولم أتعشّ ، أين كانت أمى ، وخالتى وديدة وستى أماليا ؟

عندما تقدم الليل كانت قريباتى كلهن جالسات على حصيرة فى الشرفة ، وكنت ملتصقا بحديد سورها ، وكان قلبى موحشا وعيناى مغلقتين .

نادتنى امرأة خالى إستر ، من بينهن جميعا . كان شعرها فى الليل عارياً وقصيرا وغامض السواد ، ووجهها المدور الأسيل السمرة صافياً فى نور الليل الصافى ، وكانت عيناها النجلاوان منتفختين قليلا ، وتومضان .

وقالت لى فجأة ، بلهفة : ياضنايا .. مالك ؟ تعال .. تعال نم على حجرى هنا .

وضعت رأسى بين فخذيها الطريتين الممتلئتين ، وكانت ناعمة تحت وجهى ، ودافئة ، ونفح جسمها الانثوى حميما ، ونزلت بيدها الرخصة فضغطت على وجهى ، بحنو ورفق ، على حجرها . ونمت .

فى آخر أيامه الستة ، فى غسق القاهرة الفاطمية ، وفى غسق العشق الأخير ، قال لها : عندئذ ، كان هذا الطفل ، فى السابعة من عمره ، قد عرفك ، ونام فى حنو جسدك .

قالت له : كانت طفولتك مدللة .
قال : كان الموت فيها كثيرا .

واحدة حمامتى ، كاملة ، مشتعلة بين العناقيد والحسك ، طالعة أبدا من ساحة قلبى كعمود دخان معطر بالمر واللبان ، لا تهبّ زعازع الزمن الهُوج بنشرها العَبِق ، نارها سوداء وجميلة ومتقدة ، لا تنطفىء

الزبَد على أصابعك السمراء المكتنزة ناصع كرغوة البحر فى موجته التاسعة والأخيرة

وما زال شعرك الوحْف الوَحِيُّ السواد غدائره تتنزّى ثم تثوى تحت يدىّ اللتين تُمَسِّدان جعودته وتُرَوِّضان رعونة حَرَشته .

رأس الميم المكسور المدور على ذاته فُلْك مُغلق يمخر الموج بلا مَرْسىً ، وكأن الأرض تتشقق غداً وتمور تحت طوفان البحر الغَضُوب .

ملائكة الجحيم تحوم بى وهزيم المَلأ الأسمى فى سماءٍ طامية يزمزم بحَدَمة

الغُلمة وجمجمة الرمضاء . أُوام حَوَمانى له طعم الرُغام فى فمى . اليمّ الخضمّ يموج بدوامات من غُرام حمّياى الى حَرَمِك . ميمى ممدودة إليك بجسم منهمر ونعمتى فيك موصولة بالمِيميْن . رمالُ مهامِهِ المضَض ترتمض جمراً وحمما ، وبى لَمَم من غمرات التّيم التى تتمعَّجُ فى مكامنى .

وهأنت تُميطين لى الغيام عن مَيْعة جسمك وترمقيننى ، وامقة ، بسهام نُجمتيك الخمر المُزّة إذ تلاثميننى مُضمَخَّة بمَتَاع ملكوت النعمة المحض . فى قوامك الشامخ الأُملود عِصمتى ومَنَعتى . واذا جلاميدُ مَخْمصتِى رسومٌ طامسة ، وحطامُ الشموس تهمي ، وجهومة أيامى المُهَدَّمة فى العتمة المُدْلَهِمة ، قد مضت . المسوخُ الكظيمة الماثلة دوماً قد مالت ثم انحطمت فاذا هى هشيم . والأمشاج المُمَزَّعة قد التأمت بمعجزتك يارؤوم . مِهاد لحمك الهضيم تميس فى نسائم الرحمة . وقمر مُحيّاك كاملٌ ليس فيه ثلمة .

جِماحى إليك شِماسى مستميتٌ مقتحمٌ فى معمات المحبة . ومُهجتى مِزَعٌ ممزَّقة بين أناملك . أمسُّ حَلَمة أكمتيك الدَمِثة وينهمل مطر الدِيمة على رُمّانتيْك . أتسنم عِمْدان آجامك من المرمر الرخيم ، والرُمح يميد فى دِمنتك .

تعازيم هيامى مُسداة إليك ، حتى شموع موتى .
ياحمامتى المضطرمة ..
ألم تصغى لمتيّم يُحبّك لحمُه ودمُه ؟
ألا ترين رفرفة الملاك الأسود الذى يراه ؟
فى عماية الموات الدامسة انزاح الحجر عن فم القبر وصعدتُ إلى السِماك العُلَى .

ذهبت مع أبى ، بعدها ، إلى شغله فى مغازة الشيخ شاهين المراغى ، فى

شارع أنسطاسى ، أراد أن يحتفل بى ، فأخذنى إلى المصوراتى الذى كان فى شارع السبع بنات .

كانت « المغازة » مخزنا ومحلا ومكتبا لبيع وشراء البيض والبصل والسمن البلدى ، وتوريدها للخواجات المصدرين أو لتجار الجملة من أولاد البلد . وكنت أعرف أن تجارة أبى قد كسدت ، وأنه باعها للشيخ شاهين المراغى ودخل معه شريكاً بالعمل بثلث الأرباح ، وكنت أتصور أنهم فى آخر كل شهر يجمعون النقود الفضة والمعدن ، ريالات وأنصاف ريالات وأنصاف فرنكات وقروش وملاليم ، ويقسمونها ثلاثة أقسام يأخذ أبى واحداً منها ، وأحس فى ذلك ظلماً غير مفهوم .

كانت المغازة فسيحة ومعتمة ورطبة وأرضها من الأسفلت الأسود وفيها أعمدة حجرية عالية ، ورأيت فيها ناسا غامضين صامتين ، بملابس الشيالين الزرقاء وعممهم وطواقيهم ، جالسين على خيش مفروش على الأرض ، أذرعهم مرمية على ركبهم بتعب ، بين أكوام مرصوصة من شوالات البصل لها عبق نفاذ مهايجم ، وأقفاص البيض الأبيض يلمع وسط القش الذى تخرج أعواده الرفيعة كشوكٍ هشٍ من بين القضبان الخشبية وتذكرنى برائحة الفراخ . وفى آخر المغازة ، فى الظلام ، تومض صفائح السمن فوق بعضها بعضا ، شكلها ثقيل وثابت .

سلم علىّ الشيخ شاهين ، كان له وجه مدور غنى داكن السمرة ، وابتسم لى فغارت عيناه الصغيرتان اللامعتان مدفونتين إلى أعمق فى دسم ملامحه ، وكانت على رأسه عمامة يلتف حولها شاش ناصع البياض حريرى الشكل له شراشيب رفيعة وراء أذنه ، وسلم علىّ أيضا ابنه الشاب الذى نظر إلىّ بلا مبالاة ، وكان يلبس بدلة صوف انجليزى مربعات ، وكرافتة رفيعة جدا محزوقة بإحكام فى الياقة البيضاء المنشاة ، وعلى رأسه قبعة رمادية كالخواجات ، يلفها شريط حريرى رمادى أيضا . وقال لى الشيخ شاهين ، ما شاء الله ربنا يطرح

فيك البركة يابنى ، وتاخد الشهادة ، ونبعتك بلاد الانجليز تكمل علامك زىّ أحمد افندى ابنى كده .. ومرت فى ذهنى صور غامضة لبلاد باردة ينزل فيها الثلج كالمطر وفيها عساكر كثيرون على موتوسكلات ونساؤها مثل أم توتو ، ثيابهن قصيرة وشفافة وأجسامهن رقيقة وناعمة ، ولكنى مع ذلك لم أصفح فى قلبى عن الشيخ شاهين ولا عن ابنه .

ولم يكن الشيخ شاهين يعرف القراءة ولا الكتابة ، وكان هذا يحيرنى جدا ، وكان أبى هو الذى يكتب ويحسب ، وكنت فخوراً به ، وكان مكتب أبى كبيرا ، بجانب باب المغازة وعليه دفاتر الحسابات مرصوصة ومفتوحة ومجلدة بالأسود وفيها خطوط مموجة بالأزرق والأحمر على حواف الورق السميك وهى مقفلة ، وسحرتنى مَكَنة نسخ الخطابات والفواتير المكتوبة بالبالوظة البنفسجى ، حديدها الغليظ المتين له يد تدار على قائم حلزونى الحلقات ، فتنزل الحديدة العلوية المسطحة على الورق الشفاف المبلول بللا خفيفا ، فوق ورق نشّاف فاتح الحمرة ، حتى تنطبق انطباقاً محكماً على قاعدة المكنة الصلبة الراسخة ، وعندما ترتفع الحديدة العلوية تظهر الصورة مقلوبة على الورق الخفيف المبلول .

تسللت ودخلت مكتب الشيخ شاهين ، وكان نظيفا جدا وخاليا وفيه رائحة تراب وهواء محبوس وله مهابة ، والنصف العلوى من بابه زجاجيا محببا مبيضا وعليه اسم الشيخ شاهين أحمد المراغى ، وتحته اسم أبى ، وتحتهما تجار البيض والبصل والسمن البلدى بالجملة والقطاعى ، كلها بالخط الثلث حروفه قائمة بكبرياء وشموخ ، بالأسود والذهب ، أقرؤها من الداخل ، مقلوبة على الزجاج المبيض ، ونقلت اسم أبى على ورق أبيض ، مرة معدولًا ومرة مقلوبا ، وأحسست تحت يدى لدونة الجوخة الخضراء على المكتب ، مسمّرة بمسامير صفراء غليظة على إطار خشبى لامع مموج وداكن يدور بأطراف المكتب الأربعة ، وعندما خرجنا أخذت معى ظرفاً كبيراً فيه مجموعة من الفواتير والخطابات البيضاء عليها اسم

أبى ، واستخدمتها بعد ذلك بكثير فى كتابة الشعر ، أيام الحرب .

فى محل المصوراتى دخلنا إلى الغرفة الداخلية الفسيحة المعتمة ، وأضاء الرجل مصابيح كهربائية قوية كثيرة من عدة زوايا ، وكان الهدوء ثقيلا ، ووقف أبى ، بيده عصاه الأبنوس ذات المقبض العاجى ، وفمه مزموم ونظرته متأملة وعميقة وصافية جدا ، ورفعنى المصوراتى وأجلسنى على مائدة عالية صغيرة بجانب أبى . وكنت ألبس قميصى الحرير الأبيض الواسع الياقة والبنطلون القطيفة الأسود الذى له حمالات فيها زراير بيضاء كبيرة ، وحذائى الأبيض الجديد الذى له نعل مطاطى رمادى يغوص قليلا تحت قدمى عندما أمشى ، وجوربى الأسود المرفوع مضموم على ساقى وحده ليس فيه أستيك ، ووضعت يداً على يد ، وكان شعرى ناعما ومفروقا . وقال لى المصوراتى ان انظر فى عين الكاميرا الكبيرة المعدنية المحدبة التى كانت تومض فى الانوار القوية ، وكنت مستقراً فى فراغ الهواء العالى وآمناً ، وأحسست نفسى بعيداً جداً عن الأرض ولم أكن أخشى السقوط ولم أكن أخاف من الموت وكنت أرى رفرفة البنت التى تسقط ، وهى تطير ، ولا تصل أبدا الى تكعيبة العنب الكثة الشرسة تحتها . وكان المصوراتى يلبس چاكته قماش سوداء خفيفة على قميص ، ولها كم منفوخ مضموم على أعلى ذراعه بحلقة أستيك سميكة ، وأدخل رأسه تحت القماشة السوداء التى انسدلت خلف الكاميرا ، ووقف بين القوائم الحديدية المثلثة ، وسمعناه من تحت خيمته الداكنة يقول لنا بصوت مكتوم : كويس .. كويس .. بصوا لى هنا فى عين المكنة على اليمين شوية .. كويس كده ، واحد اتنين تلاتة خليكوا كده من غير حركة .. وخرج بسرعة ، وأزاح غطاء مدوراً من على فتحة العدسة ثم أعاده بصوت صفقةٍ نهائية ، وقال : مبروك .

ولما عدنا بالترام فى أول الليل ، كان الميدان الصغير فى آخر شارع راغب باشا خاليا ، ودكان الدخاخنى ، بمنصته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجية فى

الشارع ، مغلقا ، ولكن السينما ، التى بُنِيت فى عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة ، كانت منيرة بعقد طويل من المصابيح الكهربائية مدلى على الباب ، يضىء إعلاناً ملوناً فيه حصان أحمر يجرى وعليه راعى بقر قبعته عريضة مستديرة زرقاء ، باهتة على وجهه الناصع الزرقة ، ويرفع سوطاً طويلا فى الهواء ، وكنت أتأمل الاعلانات الملونة المصورة على هذه السينما فى طريقى للمدرسة كل صباح ، وأقرأ عناوين الأفلام وأسماء الأبطال ، وأتخيل أحداث الروايات ، طويلا ، وما يدور فيها ، وأحلم كثيرا بأن أدخل هذه السينما . ولم أدخلها أبدا .

رأيت أننى أسير إلى كوم الدكة ، وفى الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التى تقع على المحمودية والتى كنت أشترى منها ، الآن وأنا صغير ، الخس والجرجير والبصل الأخضر والكرات والملوخية والكرفس والبقدونس والخبيزى والفجل والسلق للقلقاس ، وفى كل مرة أسير إليها متمهلًا ، متأملا ، أمر بسياج خشبى عال فيه ثغرات طويلة بين ألواح الخشب ، أضع عليها عينى ولا أكاد أرى وراءه أسرار هذا المبنى الغامض البعيد الشاحب البياض ، وله أعمدة مدورة وشبابيك طويلة ، ولا أكاد أرى حديقته الواسعة ، معتمة بأشجار وارفة أثيثة الأغصان متشابكة وكأنها وحشية . وأقول لنفسى كم من الأسرار وراء كَمْ من الأسوار حدستها ولم أعرفها أبدا وشد ماأَحِنّ إلى معرفتها ، موقناً أننى لن أعرفها أبدا وأن الشوق سيظل مع ذلك أبدا ، فى روحى ، برعماً خاماً مزدحماً بعصارته الكثيفة وجائعا إلى التفتق والازدهار .

دخلت جنينة الخضار من باب خشبى مفتوح دائما مخلوع المفصلات ، وأحسست بالأرض كاملة ترف بأنواع الخضرة منها القصيرة اليانعة والفارهة الطول ، والداكنة والملتفة ، والرقيقة والمتكاثفة ، والمرهفة السنان كأنها شفافة ، أمُرّ على مدق ترابى ضيق من تحت تعريشة العنب المورقة القائمة على أعمدة من خشب

التفت بها أغصان الكروم الملتوية ذات العُقَد الخشنة ، وأسمع الحمام يزقو ويهدل بترجيع رتيب الايقاع ، مختبئا فى الشجر الكثيف الداكن الورق ، لا ينتهى إيقاع ترتيله وليس لشجوه انقضاء ، وأنفذ من جانب البقرة التى تدور بالساقية فى وسط الجنينة ، ببطء وإصرار ، مغماة العينين ، تجتر وينزل اللعاب من خطمها فى خيوط فضية طويلة ، وأسير على المسقى الطويلة التى يتسلسل فيها الماء من الساقية على القاع الرملى الطينى الصلب الفاتح اللون ، يترقرق ، وتضوء الشمس على مويجاته المنسربة بخريرِ موسيقىٰ تفتح أبواب القلب فى الهواء الطلق النقى العبق برائحة الخضر وروث البقرة والسباخ البلدى والنعناع والريحان معا .

خرج إلىّ الفلاح القصير المدكوك الجسم من حصه الطينى والضيق كأنه يطلع من تحت الأرض ، وجهه مجدور وعميق الغضون ومحروق ويده قصيرة الأصابع خشنة ، حَشَّ لى الخضار بمنجل صغير مقوس وحاد السن ، وأحسست مدى رهافة حركته ورقتها وحنوها وكفاءتها فى وقت معا ، وأحسست أن فى جسم هذا الرجل جدى ساويرس وأبى وأولاد عمتى بقطر ورفلة ، وأخوالى الثلاثة يونان وناثان وسوريال ، وأن نظرتهم جميعا ، معا ، فى عينيه الغائرتين الثاقبتين ، وأننى لا انفصل عنه ولا عنهم ، وأن فى يديه تربة قلبى الملوثة الغمقة المعجونة بالطين لا تجف أبدا ، وأن هذه الجنينة هى بستان ألف ليلة وليلة المسحور الذى طالما التقى فيه المحبون خفية وعرفوا — كما عرفت — من فنون العشق ما لم يعرفه من قبل بشر .

ورأيت أننى صعدت إلى أعلى تلة كوم الدكة القديمة ، وقد جلا عنها الجنود الانجليز سراً فى الليل ، ولأول مرة منذ وعيت لم يكن اليونيون چاك يرفرف على ذروة التلة ، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديمة قد أزيل وحلت محله ساحة مسفلتة ومبانٍ حكومية ، وأننا كنا ننطلق فى جماهيرنا الغفيرة ، منذ الصباح الباكر ، نرتفع على طرقات كوم الدكة الخالية التى كانت محرمة علينا

وقد أصبحت فى هذا الصبح حلالا ، جماعات جماعات ، أصوات هتافاتنا مبحوحة فى الهواء النقى : الجلاء الجلاء يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال ، وكانت عنابر الجنود الانجليز خاوية على عروشها ، ولم يتحرك الجيش المرابط لاحتلالها بعد ، ودخلناها ورنت أصداء أحذيتنا فى فراغ حيطانها ، وكان بلاط أرضها مترباً قليلا وعليه قصاصات ورق ممزقة قليلة وبقايا القش ، وكأن اليوم عيد ، وجماعات المتظاهرين كأنهم يرقصون رقصات جماعية ، يشورون ويهتفون وينشدون من الفرح .

وكانت الأشجار القصيرة المشذبة على جانبى الممرات الترابية كأنها رؤوس خضراء مشعثة مطموسة العيون فى الجدائل الخشبية الغليظة المورقة بدغلات من الأغصان كثيفة جعدة منذرة ومهددة وشرسة ، وعندما طوفنا بكل أنحاء القلعة المهجورة الموحشة ، ونزلنا ، وجدنا جنود بلوك النظام صفوفاً متراصة تحت سفح كوم الدكة ، وفى أيديهم دروعهم الخشبية الخضراء القائمة ، على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة ، ركبهم مدورة سوداء بارزة تحت الشورتات الكاكى الطويلة ، وشرائط الألشين تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميرى الضخمة المتربة بجلدها الخشن المقبب ، وانتظمت الجموع بقيادة صديقى عبد القادر نصر الله الذى كان ما زال فى كلية الطب بينما كنت قد تخرجت سنتها من كلية الهندسة ، وكان قد انضم الى جماعتنا الثورية الصغيرة ، ورأيت على جانبى شارع النبى دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة ، حمراء لها قشرة لامعة ، كأنها جنبرى مسلوق ضخم ، أيديها وأرجلها ثلاثية الأصابع مبتورة ومتورمة ومدورة وحول رؤوسها غلاف صدفى شفاف تحدق من وراء زجاجه عيونها المفتوحة المتهمة ، وكانت المظاهرة تشق طريقها ، مع ذلك ، بحرص ، بين صفى الجثث الطفلية تحاذر أن تمسها ، وعندما وصلنا الى واجهة كأنها بوابة فندق منيف ،

ناطحة سحاب ، ألواحها زجاجية مدخنة شاسعة ، تقطعها أعمدة الألمونيوم المصقولة ، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار ، وسمعنا فى الوقت نفسه فرقعات الرصاص فى الهواء كأنها غير جدية لا تحمل خطرا ، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشاهقة ، ورأيت الناس يسقطون بصمت ، مضروبين بالرصاص ، وتمر عليهم الأقدام المتلاحقة ، والناس قد انطلقت تجرى فى كل اتجاه ، وكانت موجة الناس تصعد وتهبط ، ورأيت الأجسام التى أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية ، وتتقلب فى الهواء ، وتسقط بعيدا فى البحر ، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمواج مفتوحة الأفواه بصرخة لن تصمت أبدا ، ورأيت وجهها الذى أحبه ، ويرودنى فى حلم مستمر ، يسبح فى مياه حبى التى لا تغيض ، ساطعا بسمرته الخمرية وسط زبَد الرؤوس المتلاطم من غير صوت ، وأحسست الطعنة فى قلبى من عينيها الواسعتين بموجها المخضرّ الثبَج ، وسقطت فى الغمْر ، ولما أفقت كانت الطعنة ما زالت تغوص فى عمقى الذى ينصهر ويتقد ويفيض حمما كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تثجّ باللظى وتُغرق جسمى فى ضرام اللهب ، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النار ترفرف حولى وتصعد بى ، فى زرقة السماء الصحو الناعمة ، محترقاً من غير انتهاء .

إدوار الخراط

القاهرة ــ الجمعة الكبيرة

٤ برمودة ١٧٠١

١٢ أبريل ١٩٨٥

للمؤلف

أ ــ قصص :

١ ــ حيطان عالية	مجموعة قصص، على نفقة المؤلف،	القاهرة ١٩٥٩ (نفد)
٢ ــ ساعات الكبرياء	مجموعة قصص، دار الآداب،	بيروت ١٩٧٢ (نفد)
٣ ــ رامة والتنين،	رواية، طبعة محدودة،	القاهرة ١٩٧٩ (نفد)
	المؤسسة العربية للدراسات والنشر	بيروت ١٩٨٠
٤ ــ اختناقات العشق والصباح	قصص، المستقبل العربي،	القاهرة ١٩٨٣
٥ ــ الزمن الآخر	رواية، دار شهدى،	القاهرة ١٩٨٥
٦ ــ محطة السكة الحديد	رواية، مختارات فصول،	القاهرة ١٩٨٥
٧ ــ ترابها زعفران	نصوص اسكندرانية، المستقبل العربي	القاهرة ١٩٨٥
أضلاع الصحراء	رواية (معدة للنشر)	

ب ــ دراسات :

١ــ القصة القصيرة فى السبعينيات	مختارات ودراسة مطبوعات القاهرة	القاهرة ١٩٨٢
٢ــ شعر الحداثة فى مصر	مختارات ودراسة (معدة للنشر)	
٣ــ ملامح الحساسية الجديدة فى القصة القصيرة	دراسة (معدة للنشر)	
٤ــ فى الواقعية وماوراء الواقعية	دراسات (معدة للنشر)	

جـ ــ مقالات

١ــ الصلابة موقف اخلاقى	« الجمهورية »	القاهرة، ٢١/٧/١٩٥٦
٢ ــ لا.. بل الشعر قوة الانسان والكلام أعظم خطرا من الحرب	« الجمهورية »	القاهرة، ١٩٥٧
٣ــ عالم نجيب محفوظ	« المجلة »	القاهرة، يناير ١٩٦٣
٤ــ الفنان ناقد أيضا (تعليق على نقد ماهر شفيق لقصة « تحت الجامع »)	« الأدب »	القاهرة، نوفمبر ١٩٦٣
٥ــ شولوخوف واللون الهادىء	« المجلة »	القاهرة، ديسمبر ١٩٦٥
٦ــ ملامح صورة عالم مضى أندريه موروا	« المجلة »	القاهرة، نوفمبر ١٩٦٧

٧ـ أرض الحجر (عرض لرواية الكاتب الافريقي البكس لاحوما)	«الادب الافريقي الاسيوي»	القاهرة، مارس ١٩٦٨
٨ـ في البحث بين أفريقيا وآسيا	«الادب الافريقي الاسيوي»	القاهرة،صيف ١٩٦٨
٩ـ مجلة ٦٨ والقصة المصرية المعاصرة	«المساء»	القاهرة، ٢٠ ابريل ١٩٦٩
١٠ـ ابراهيم الكاتب وهموم العصر	«المجلة»	القاهرة، سبتمبر ١٩٦٩
١١ـ ابراهيم أصلان وقناع الرفض	«جاليري ٦٨»	القاهرة، فبراير ١٩٧١
١٢ـ لماذا «٦٨» ولماذا كان يجب أن تستمر ؟	«جاليري ٦٨»	القاهرة، فبراير ١٩٧١
١٣ـ قراءات في قصائد من الشعر الافريقي	«الادب الافريقي الاسيوي»	اكتوبر ١٩٧١
١٤ـ يحيى الطاهر عبد الله والرحلة الى ماوراء الواقعية.	«الطليعة»	القاهرة، يونيو ١٩٧٢ بغداد ١٩٧٤
١٥ـ هيمنجواي والكلاسيكية الجديدة	«روزاليوسف»	القاهرة، ٢يوليو ١٩٧٣
١٦ـ العنصر اللاواقعي عند بعض الواقعيين	«روزاليوسف»	القاهرة، ٢٠أغسطس ١٩٧٣
١٧ـ السيريالية في القصة القصيرة	«روزاليوسف»	القاهرة، ٢٤سبتمبر ١٩٧٣
١٨ـ أيام طه حسين العامرة	«روزاليوسف»	القاهرة، ٨أكتوبر ١٩٧٣
١٩ـ ألبير كامي والوجودية	«روزاليوسف»	القاهرة ٢٢أبريل ١٩٧٤
٢٠ـ آلان روب جرييه والشيئية	«روزاليوسف»	القاهرة، ٦مايو ١٩٧٤
٢١ـ ناتالي ساروت والمدرسة العضوية	«روزاليوسف»	القاهرة، ٢٠مايو ١٩٧٤
٢٢ـ محمود البدوي شاعر الحدوتة الشعبية	«روزاليوسف»	القاهرة، ١٩٧٤
٢٣ـ القيم الجمالية أساس الصلة بين الادب والمجتمع	«روزاليوسف»	القاهرة، ١٩٧٤
٢٤ـ لورنس داريل والثقافة	«البيان»	الكويت، ابريل ١٩٧٤
٢٥ـ لورد بيرون	«البيان»	الكويت، سبتمبر ١٩٧٤
٢٦ـ السيريالية في الادب ١	«البيان»	الكويت، يناير ١٩٧٥
٢٧ـ السيريالية في الادب ٢	«البيان»	الكويت، فبراير ١٩٧٥
٢٨ـ لانجستون هيوز	«البيان»	الكويت، يونيو ١٩٧٥
٢٩ـ دفاع عن التجريبية في الفن	«الموقف العربي»	القاهرة، يونيو ١٩٧٨

٣٠ـ كيث دوجلاس، شاعر الصحراء
المصرية «البيان» الكويت، العدد ١٧١
٣١ـ حول الشكل الاسطورى فى الفن «البيان» الكويت، يونيو ١٩٧٩
٣٢ـ مفهوم للرواية «الآداب» بيروت، فبراير ـ مارس ١٩٨٠
٣٣ـ مشاهد من ساحة القصة القصيرة
فى السبعينيات «فصول» القاهرة، يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٢
٣٤ـ قراءة فى ملامح الحداثة عن شاعرين
من السبعينيات «فكر» باريس، يونيو ـ يوليو ١٩٨٤
«فصول» القاهرة، يوليو ـ سبتمبر ١٩٨٤

د ـ ترجمة :

١ـ الخطاب المفقود، إ.ل. كارجيالى مسرحية، الدار المصرية للكتب القاهرة ١٩٥٧
٢ـ الحرب والسلام ج١و٢، ليوتولستوى رواية، الدار المصرية للكتب القاهرة ١٩٥٨
٣ـ الغجرية والفارس، قصص رومانية الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٨
٤ـ شهر العسل المر، قصص إيطالية كتب ثقافية، القاهرة ١٩٥٩
٥ـ فارالاكو، إميل سيسيه، رواية غينية الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٢
٦ـ انتيجون، جان آنوى، مسرحية، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٣
(بالاشتراك مع الفريد فرج)
٧ـ مشروع الحياة، فرانسيس جانسون،
دراسة سيمون دى بوفوار دار الآداب، بيروت ١٩٦٧
٨ـ ميديا، جان آنوى، مسرحية، مجلة المسرح، القاهرة ١٩٦٨
٩ـ الوجه الآخر لامريكا، ميكائيل
هارنختون، دراسة، دار الآداب بيروت ١٩٦٨
١٠ـ تشريح جثة الاستعمار، جى دى
بوشير، دراسة، دار الآداب بيروت ١٩٦٨
١١ـ الشوارع العارية، فاسكو براتوليني، رواية، دار الآداب بيروت ١٩٦٩
١٢ـ نحو التحرر، هربرت ماركوز دراسة، دار الآداب بيروت ١٩٧٢
١٣ـ حوريات البحر، قصص امريكية، دار الهلال القاهرة ١٩٧٩
١٤ـ الاسلام والاستعمار رودلف بيترز، دراسة، دار شهدى، القاهرة ١٩٨٥

هـ — للاذاعـة :

— برامج خاصة « مع الأدباء » للبرنامج الثانى

١ — مولود معمرى
٢ — بوريس باسترناك
٣ — وليام جولدنج
٤ — هنرى دى مونترلان
٥ — البيركامى
٦ — ناتالى ساروت
٧ — ستيفن سبندر
٨ — جان جرينيه
٩ — اندريه برتون
١٠ — ترستان تزارا
١١ — مالك حداد

برامج خاصة طويلة للبرنامج الثانى :

١ — أورفيوس الأسطورة بين جان كوكتو وجان آنوى
٢ — إليكترا الأسطورة بين جان جيرودو وجان بول سارتر وأوجين أونيل
٣ — كليوباترا الأسطورة بين شكسبير وجورج برنارد شو وأحمد شوقى
٤ — ميديا الأسطورة بين يوريبيديس وسينيكا وجان آنوى
٥ — أوجست . ستريندبرج
٦ — فرانز كافكا
٧ — مسرح طاغور
٨ — الدراما البدائية
٩ — المسرح الدينى عند الفراعنة
١٠ — المسرح عند الفراعنة .
١٢ — فجر المسرح الافريقى
١٣ — ايسخليوس
١٤ — سوفوكليس
١٥ — يوربيديس
١٦ — أريستوفانيس
١٧ — الشعر الافريقى
١٨ — بول إيلوار

ـــ مسرحيات طويلة مترجمة للبرنامج الثانى :

١ـــ النورس	أنطون تشيكوف
٢ـــ سوء التفاهم	ألبير كامى
٣ـــ الحصار	ألبير كامى
٤ـــ المجانين	ألبير كامى
٥ـــ مسافر بلا متاع	جان آنوى
٦ـــ بيكيت	جان آنوى
٧ـــ عنقاء كثيرة الظهور	كريستوفر فراى
٨ـــ سوناتا الشبح	أوجست سترندبرج
٩ـــ انتهت الحرب	أريستوفانيس
١٠ـــ السلام	أريستوفانيس

ـــ مسرحيات قصيرة مترجمة للبرنامج الثانى :

١ـــ المحرب	سول بيلو
٢ـــ فى قلب السنين	اريك بير كوفيتشى
٣ـــ الاسلاف يتميزون غضبا	كاتب ياسين [مسرح الجيب]
٤ـــ الهولندى	ليروا جونز
٥ـــ الأقزام	هارولد بنتر
٦ـــ الطريق البنفسجى الى حقل الخشخاش	موريس ميلدون
٧ـــ الولد الحالم	يوجين أونيل
٨ـــ بعد يوم واحد	جوزيف كونراد
٩ـــ كلمات على زجاج النافذة	وليام يتلرييتس
١٠ـــ البروفيسور تاران	ارثير آداموف
١١ـــ الملك والمتسولة	حوفيند داس
١٢ـــ العذاب	جوفيند داس

صدر لدار المستقبل العربى
عام ١٩٨٥

○ أهمية ان نتثقف يا ناس .... د. يوسف ادريس
(٢٠٧ ص — ٣٠٠ ق)

○ صناعة الجهل .... د. نعمات فؤاد
(٣٣٦ ص — ٥٠٠ ق)

○ لعبة الأمم فى الشرق الأوسط .... امين هويدى
(٢٨٤ ص — ٥٠٠ ق)

○ التكوين التاريخى للامة العربية .... د. عبد العزيز الدورى
(٣٦٦ ص — ٥٠٠ ق)

○ فى اصول السياسة المصرية .... سعد زهران
(٢٦٥ ص — ٤٥٠ ق)

○ تأثير الثروة النفطية على العلاقات العربية .... د. احمد يوسف
(١٥٢ ص — ٢٥٠ ق)

○ شرق النخيل (روايه) .... بهاء طاهر
(١٠٤ ص — ١٧٥ ق)

○ الرئيسه (روايه) .... د. شريف حتاته
(٣٨٧ ص — ٤٠٠ ق)

○ كتاب التجليات (جزء ٢) .... جمال الغيطانى
(٢٢٨ ص — ٣٥٠ ق)

○ اشعار فؤاد حداد .... فؤاد حداد
(٤٨٠ ص — ٦٠٠ ق)

○ اختراق حاجز الصوت (قصص قصيره) .... محمود البياتى
(٤٤ ص — ١٠٠ ق)

○ الزينى بركات .... جمال الغيطانى
(٢٨٨ ص — ٢٥٠ ق)

○ انفجار سكانى ام ازمة تنمية ؟ .... د. ابراهيم العيسوى
(٢٩٥ ص — ٤٥٠ ق)

○ اقنعة القلق (مسرحيات) .... الفريد فرج
(١٢٨ ص — ٢٠٠ ق)

○ ناميبيا (قضية الاستقلال الصعب) .... د. ابراهيم نصر الدين
(١٥٢ ص — ٢٥٠ ق)

○ مذكرات محمود رياض.. ...محمود رّياض
(٦٣٢ ص ـــ ٩٠٠ ق)
○ ثلاثية الرفض والهزيمة.. محمود امين العالم
(١٨٤ ص ـــ ٢٧٥ ق)
○ الصحوة الاسلامية والتحدى الحضارى.................. . ...د . محمد عمارة
(١٨٤ ص ـــ ٣٥٠ ق)
○ حكاية عبد الناصر (٤ حزء) سلسلة للاطفال................ . .. .جمال سليم
(١٦٠ ص ـــ ٣٠٠ ق)
○ الديون والتنمية . ... د رمزى زكى
(٢٧٢ ص ـــ ٥٠٠ ق)
○ نحو فكر عربى جديد........................... ....عادل حسين
(٢٨٠ ص ـــ ٥٠٠ ق)
○ طريقة المسار الحرج فى المشاريع الانشائية........................ ....عامر الدحانى
(٢٠٨ ص ـــ ٣٥٠ ق)
○ فكر وفعل............................. ....د . احمد صدق الدجانى
(٢٢٤ ص ـــ ٤٥٠ ق)
○ مخطط التفتيت فى المنطقة العربية....................... ... .عونى فرسخ
(٣٠٤ ص ـــ ٥٠٠ ق)
○ فجر التصوير المصرى الحديث (١٩٠٠ ـــ ١٩٤٥)............ ....عز الدين نجيب
(١٥٩ ص ـــ ٨٠٠ ق)
○ الاسلام والمرأة .. . .د . محمد عماره
(١٩٨ ص ـــ ١٧٥ ق)
○ الأوبك فى الاقتصاد العالمى.............................. .. .. .ترجمة زهدى الشامى
(١٥٠ ص ـــ ٣٥٠ ق)
○ قاموس المصطلحات الناصرية..مجموعة من الباحثين
(٢٠٨ ص ـــ ٢٠٠ ق)
○ فقر الفكر وفكر الفقر..د . يوسف ادريس
(٢٦٤ ص ـــ ٥٠٠ ق)
○ شكاوى المصرى الفصيح جـ ٣ (رواية)................. ....يوسف القعيد
(٤٢٢ ص ـــ ٦٠٠ ق)
○ صحراء (رواية) .. ..مركز الترجمة الفرنسي
(٤٠٠ ص ـــ ٧٠٠ ق)
○ الصياد واليمامه (رواية) . . . .ابراهيم عبد المجيد
(٩٦ ص ـــ ٢٠٠ ق)

( ) نهر النيل بين الماضي والحاضر والمستقبل.. ... .مجموعة من المتخصصين
(٢٨٥ ص — ٤٠٠ ص)
( ) من يساعد اسرائيل.. .. .. د حودة عبد الخالق
(١٥٠ ص — ٢٧٥ ق)
( ) مع عبد الناصر........ ... .أمين هويدى
(٢٧٠ ص — ٥٥٠ ق)
( ) ابحاث مختارة في القوميه العربية. . ... ساطع الحسرى
(٤٦٤ ص — ٥٠٠ ق)

( ) تحت الطبع ( )

[ ] مذكرات محمود رياض جـ ٢ ....محمود رياض
[ ] استراتيجية المصالحة.. ....فريق أول محمد فوزى
[ ] الصناعة العسكرية الاسرائيلية... . ...امين هويدى
[ ] ازمة المجتمع العربي................................ ....د . سمير أمين
[ ] وثائق الحوار العربي الأوروبي.......... ....تقديم د أحمد صدقي الدجاني
[ ] اراء ومطارحات............... ....د . احمد [illegible] الدجاني
[ ] من بين صفوف الطبقة العاملة........................ ....أحمد ابراهيم موسى
[ ] حور محب.................. .... حسين ذو الفقار صبري

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥/٧٨٦٦
الترقيم الدولي ٩ — ٠٣٤ — ٤٤٢ — ٩٩٧ (ISBN)

ليست هذه النصوص سيرة ذاتية ، ولا شيئاً قريبا منها . ففيها من شَطْح الخيال ، ومن صنعة الفن ما يشطّ بها كثيراً عن ذلك .

فيها أوهامٌ ـــ أحداث ، ورؤى ـــ شخوص ، ونُوَيّات من الوقائع هى أحلام ، وسحابات من الذكريات التى كان ينبغى أن تقع ولكنها لم تحدث أبدا .

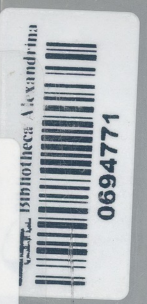
لعلها أن تكون صيروة ، لا سيرة ، وليست ، فقط ، ذاتية .

هى وَجْد ، وفقدان ، بالمدينة الرخامية ، البيضاء ـــ الزرقاء ، التى ينسجها القلب باستمرار ، ويطفو دائما على وجهها المُزبِد المضىء .

اسكندرية ، يا اسكندرية ، أنتِ لستِ ، فقط ، لؤلؤة العمر الصلبة فى محارتها غير المفضوضة .

مع ذلك ، أنشودتى إليك ليست إلا غمغمةً وهينمة .

إدوار الخراط



دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــرة

٢٧٥ قرش